فِکْرُ وَ فن

٩

أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ
تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

سُورَة الرَّعد آية ٣٠

WAHRLICH,
BEI DEM GEDENKEN AN GOTT
WERDEN DIE HERZEN STILL.

SURE 13, VERS 28

فكر وفن

العدد التاسع ١٩٦٧ العام الخامس

يصدرها: البرت تايلا و اناماري شيمل

الفهرست

٤ ادراك الواقع فى العلوم الطبيعية، بقلم جرهارد فراى
Gerhard Frey: Erkenntnis der Wirklichkeit in den Naturwissenschaften

٧ اناماری شیمل: هرمان هسه (١٨٧٧—١٩٦٣) · Annemarie Schimmel: Hermann Hesse

١٥ هرمان هسه: حظ · Hermann Hesse: Glück

٢٠ هاينرش كولهاوسن: الزجاجة الفاطمية :«كأس هيدفج»
Heinrich Kohlhaussen: Das Hedwigsglas der Veste Coburg

٢٢ اشعار فى الكؤوس الزجاجية · Gedichte über Gläser

٢٥ فنون الانسان فى ابداع الزجاج · Die wunderbare Entwicklung der Glaskunst

٣٣ ورقة من تاريخ الاستشراق فى المانيا: تيو دور نولدكه عن اينّو ليتمان; ترجمة و تعليق : محمد على حشيشو
Aus der Geschichte der deutschen Orientalistik: Theodor Nöldeke, von Enno Littmann. Bearbeitet von M. A. Hachicho

٤٤ روبرت شويتزر: بعض النقاط البراقة من علم حياة الجزئيات
Robert Schwyzer: Aus der Molekularbiologie

يقدم الناشر ودار النشر شكرهم لكل من شرفهم بمعونته فى تحضير هذه المجموعة
وبدون مساعدتهم لكان من المحال ان تحصل هذه المجموعة على شكلها الحالى الجميل
ننشد القراء الكرام ان يداوموا فى ارسال معاونتهم وآرائهم القيمة ونحن لهم من الشاكرين

ترجمات: Dr. Christoph Bürgel, Göttingen; Dr. Muhammad Ali Hachicho, Köln; Dr. Arnold Hottinger, Beirut; Dr. M. A. Ibrahim, Winterthur; Prof. Dr. Hans Wehr, Erlangen; Magdi Youssef, Bonn.

Nr. 9 1967 5. Jahr

FIKRUN WA FANN

Herausgeber:
Albert Theile und Annemarie Schimmel

الفهرست

٦٠ هانس اولريش بوف: التقدم و التقليد فى علم الجراحة
Hans Ulrich Buff: Fortschritt und Tradition in der Chirurgie.

٦٧ روبرت موزيل: الشحرور · Robert Musil: Die Amsel

٧٨ محمد الفيتورى: البنفسجات الثلاث . Muhammad al-Faituri: Die drei Veilchen

٨١ عبر الحدود: ملاحظات حول لوحة للرسام الباكستانى زبيرى
Jenseits der Grenzen: Gedanken zu einem Bild des pakistanischen Malers Zubairi

٨٤ قال كشاجم يصف اصطرلابا · Kuschadschim: Das Astrolab (deutsch von Christoph Bürgel)

٨٦ تاريخ: المؤتمر الدولى الاول لعلماء الدرسات الايرانية فى طهران
Chronik: Der Erste Internationale Iranistenkongreß in Teheran

٨٩ طلائع الكتب . Buchbesprechungen

صورتا الغلافين: بحيرة «بند امير» فى افغانستان يطل عليها مزار لعلى بن ابى طالب

تصوير: اناماری شیمل

دار النشر: Übersee-Verlag, Hamburg 36, Neue Rabenstr. 28, Bundesrepublik Deutschland

تظهر مجلة "فكر وفن" العربية موقتا مرتين فى السنة – الاشتراك: ١٠ مارك ألمانى. – النسخة الواحدة: ٦,٠٠ مارك ألمانى؛ ثمن الاشتراك المخفض للطلبة: ٣ مارك المانى، النسخة الواحدة: ماركان. – تقدم طلبات الاشتراك إلى دار النشر

تصنع الكليشيهات: Chemiegraphische Kunstanstalt Friedrich Heitgres, Hamburg

© 1967 by Albert Theile فى سنة ١٩٦٧ بطرف

الطباعة: Druck: J. J. Augustin, Buchdruckerei, Glückstadt

ادارة التحرير: Adresse der Redaktion: Albert Theile, CH 6314 Unterägeri, Zug, Switzerland

ادراك الواقع فى العلوم الطبيعية

بقلم جرهارد فراى

لم يعد هنالك وجود لصورة العالم كما كانت عليه فى العلوم الطبيعية بالقرن التاسع عشر. فالعلم الطبيعى الحديث قد أدى إلى عدد كبير وقدر حاسم من المعارف الجديدة والهامة. إلا أن هذه لم تتكامل بعد لتشكل لنا صورة موحدة جديدة للكون فى العلوم الطبيعية.

ومع ذلك توجد مميزات مشتركة بين كافة النظريات المختلفة حول هذا الموضوع. فمن وجهة نظر الفزياء الحديثة نجد أن الفكرة السائدة حتى الآن هى أن العالم شئ وإدراكنا له شئ آخر. وبالطبع كان معترفا بهذا المبدأ فى الفزياء الكلاسيكية. إلا أنه كان من الممكن آنذاك القول بوجود أجسام ذات بناء معين، كتصور ذرات أو موجات مادية وسط غاز «إيثير» مادى بدوره. أما الآن فلم يعد فى الامكان مواصلة تعريف خصائص المادة بكونها هيولية ومادية، حسب المفهوم التقليدى.. أما أن هنالك شيئا موجودا بالفعل فأمر لا يتطرق إليه شك. إلا أنه يبدو لى أنه لا سبيل إلى إيجاد الدليل الفعلى على وجود العالم الخارجى. والأمر شبيه هنا بالتعرف على الذات.

ذلك أنه لا يوجد ثمة «دليل» على وجود ذاتى ووعيى الباطن. فهو إذن ضرب من الحدس أو البصيرة الذاتية، ذلك الذى يجعلنى أفترض وجود ووعيى وذاتى والعالم الخارجى جميعا. على أنى لا أملك – رغما عن ذلك – أن أشك حقا فى وجودى وكينونة العالم الخارجى. ومن هنا يبزغ السؤال الباحث عما أستطيع التعرف عليه من الواقع.

نحن – من جانب – نفتت الواقع على شكل جزيئات كائنة «على هذه الصورة»، وموجودة هنا والآن على هيأة مفردة يمكن التحقق منها بالإشارة إليها فى مكان محدد. ومن ناحية أخرى نجد العموميات التى نطلق عليها ناموس الطبيعة. وهذا الأخير هو موضوع العلوم الطبيعية، الذى عن طريقه تبين لنا أن التناظر كامنا فى صلب العلم الطبيعى. التناظر بمعناه الرياضى العام.

وقد تعين على مفاهيم الحياة اليومية أن تخضع لتعريف محدد، وأن تتخلص بالتالى من اسقاط الانسان لذاته عليها حتى يمكن الاستعانة بها على نحو علمى دقيق. ومع ذلك فان مفاهيم علم الفزياء تستمد من سلوك الانسان وتصرفه بازاء موضوعات بيئته. وقد تعين علينا أن نستوثق من أن تلك المفاهيم لم تعد كافية للإحاطة بمجالات أصغر وحدات الوجود وأكبرها على نحو متكافئ. إذن فعلينا الاستغناء عن تصور مسار للكون يخضع للحتمية العلية خضوعا تاما. خاصة وأنا لا نعلم ما يفضى به تطبيق مثل هذا المفهوم على كل ما فى الكون.

ونحن لم نعد – إلى حد ما – نكتفى بتأمل الطبيعة ومراقبتها من الخارج. بل نأخذ فى الاعتبار المبدأ المعروف بأنا أنفسنا جزء من الطبيعة. وبالتالى فكل عملية نتصدى فيها للتعرف على الطبيعة، هى فى حد ذاتها تدخل فى مسار عمليات الطبيعة. ولعلنا نرى أى نتائج تترتب على ذلك فى نظرية الكم. إن الانسان كائن ذو سلوك. وهو أثناء سلوكه يعد جزءا من عمليات الطبيعة. ومن ناحية أخرى هو لا يتأتى له التعرف على الطبيعة دون أن يسلك. ونحن لا نرى أن السلوك يقتصر على التجربة وإنما يمتد فيشمل الملاحظة الواعية كذلك. وبهذا المعنى لا يمكن التعرف على الطبيعة دون فعل سلوكى، أو ما يدعى باليونانية Techne، وهى الأصل لكلمة تكنولوجيا Technik = Technology. ويتضح فى عالمنا الحديث مدى الترابط الوثيق بين العلوم الطبيعية والتكنولوچيا.

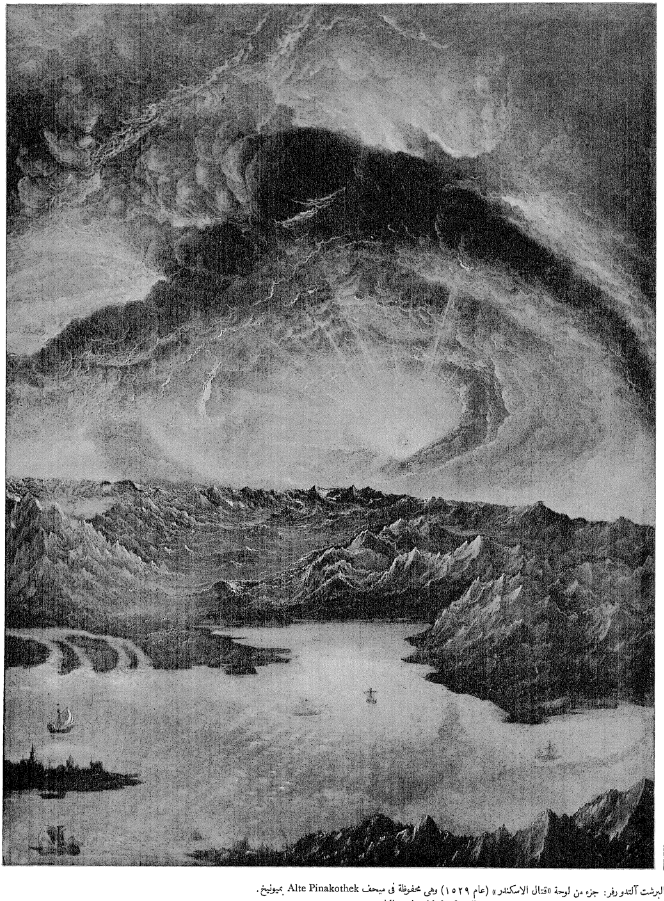

البرشت آلتدورفر: جزء من لوحة «قتال الاسكندر» (عام ١٥٢٩) وهى محفوظة فى ميحف Alte Pinakothek بميونيخ.
Albrecht Altdorfer: Detail aus der „Alexanderschlacht“ (1529)
نشكر دار نشر البرت سكيرا بجنيف Édition d'Art Albert Skira لإعارتها لنا كليشيه هذه اللوحة.

ولعل «كانت» كان على حق حين قال بأن أشكال تصور الانسان وتفكيره تتدخل فى إدراكه للموضوعات وتعرفه عليها. وإنه لفى مقدور الانسان أن يطور فى علم الرياضة ما شاء من نماذج وتكوينات. وهذه تواصل تطورها سلفا باعتبارها مجرد إمكانيات شكلية للتفكير. وإن التعرف على العموميات لا يتأتى إلا لأنها متساوية ومتشابهة ومتكررة. وليست الصيغ الرياضية المجردة والمطابقة هنا سوى المعادلات. إنها صيغ الفكر المجرد التى بها وحدها نستطيع أن نتصور القوانين العامة فى الطبيعـــة.

إن الانسان، بمجرد أن يضع لنفسه هدفا، فهو يسلك. ومرة أخرى عليه أن يضع فى اعتباره تلك الصيغ الفكرية العامة. وعليه فلا عجب إن كانت التكنولوجيا تنهض على معادلات ومتناظرات. وكما أن الانسان، باعتباره صاحب الوجود العام الثابت فى الطبيعة، لا يرى إلا متناظرات، فانه يعود ليطبع محاولاته التكنولوچية لتحويل بيئته التى يعيش فيها بالمعادلات. والآن نجدنا فى استزادة دائمة من تطبيق الأجهزة والآلات التكنولوچية فى بحوثنا التجريبية. وعليه فان تلك المتناظرات التى نطبعها ونسبغها على الأجهزة المذكورة لابد أن تدخل بدورها فى نتائج البحوث التجريبية. وإن المتناظرات، بهذا المعنى العام، لهى البناء المسبق لفكرنا البشرى. وربما كانت كافة القوالب المسبقة ، التى يقوى فكر الانسان على صياغتها، من هذا النوع. وإن أهم واجبات علم الرياضة لتقوم على تطوير هذه القوالب. وهكذا تتمتع الرياضة بأهمية أساسية. فان تحويل القضايا إلى معادلات رياضية ليبدو بمثابة الصيغة الحقة للسيطرة على الكون. وما الطبيعة والتكنولوچيا سوى وجهين لهذه المهمة الأحادية؟

عن كتاب جرهارد فراى:

Gerhard Frey: Erkenntnis der Wirklichkeit. W. Kohlhammer, Stuttgart 1965.

ترجمة: مجدى يوسف

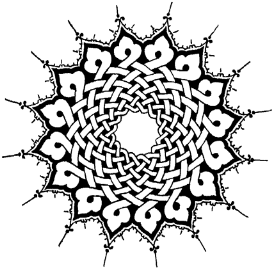

تعرض الزخارف متناظرات متنقلة ذات بعد واحد وبعدين. ومن أجمل الأمثلة على ذلك ما خلفه فنانو العرب فى القرون الوسطى من زخارف متنوعة (الارابسك). ونحن نعلم اليوم أنهم قد عثروا على كافة المتناظرات الممكنة من النوع المتنقل ذى البعدين.

هرمان هسه (١٨٧٧-١٩٦٢)

شاعر النور والزهور ...

بقلم انا ماري شيمل

كانت أيام صيف عام ١٩٤٧ ولياليه حارة حارة. لم تصادفنا قطرة مطر واحدة منذ أسابيع .. والجو عبقت رائحته بالياسمين والزيزفون حتى أخذتنا الدهشة وتداعت إلى ذاكرتنا أبيات تغنى بها شاعر رومانسى، من يكون سوى «هرمان هسه»، وتقول كلمات قصيدته :

نحن ، أبناء شهر تموز
نعشق عبير الياسمين الأبيض
نسير نتريض فى بساتين مزهرة
ساكنين ضيعانين فى أحلام مقبضة.

كنا نتضور جوعا ، وماكنا نتوق إلى اللحم الذى نسينا مذاقه منذ أعوام وأعوام، وإنما إلى غذاء الروح الذى لم نعرفه منذ اندلعت الحرب، بل منذ أن استلم النازى زمام الحكم فى ألمانيا .. منذ أكثر من عشرة أعوام آنذاك.. ! جاءنى فى تلك الأيام الحارة أحد تلامذتى، وهو شاب يتألق نشاطا وذكاء ، وكان فى لباس أبيض وفى يده وردة حمراء : «يا أستاذتى» هكذا بادرنى : «أود أن ادعوك للاشتراك فى احتفال خاص، فنحن بصدد تكريم الذكرى السبعين لمولد هرمان هسه؛ وسوف نجتمع لهذا الغرض فى غرفة صديقنا «ح» فى تمام الساعة الخامسة من الثانى من شهر تموز ... فلديه بعض المأكولات (كان من أهل الريف!)، ولدى الكتب الجديدة لهرمان هسه ... فلنحتفل بهذا اليوم !»»

سرتنى هذه الدعوة إذ كنت أحب أشعار هذا الأديب الذى فضل أن يعيش خارج وطنه — ألمانيا — وأن يقيم فى جنوبى سويسرا. بل أذكر أن أول ما حفظته من الشعر فى طفولتى كان له، وهو عبارة عن ثلاث رباعيات يصف فيها حال الانسان الذى يتمشى فى غابة خيم عليها الضباب ... ويصف فى هذه الأسطر المعدودة الإحساس العميق بالوحشة حتى فى وسط الملأ، حيث يرى المرء سواه من الناس بما فيهم أحبابه وأقاربه وكأنهم أشباح لا سبيل الى أن يلتقى بهم أو يختلط وإياهم. وكم من مرة رددت أشعاره وأنا فى ظلمات الحرب ... ومنه الشعر الذى أفاد فيه باشتياقه للموت «أخيه العزيز» الذى ينتظره على ط يقه اينما ولى ؛ ومنه ابياته حول الفراشة الزرقاء المشابهة لقطعة من الصدف ... تبدو لحظة ثم تغيب على ما تبدو السعادة للحظة واحدة ثم تغيب ولايمكن الاحتفاظ بها ... وهنا السحاب الأبيض الذى شبه الشاعر محبوبته به : السحاب البتولى الذى لا يمسه يد عاشق مشتاق ... كل ذلك فى قصائد صغيرة جميلة الايقاع ذات اربعة او ستة أبيات تركزت فيها خواطر الشاعر وأحاسيسه على أكمل صورة كما يركز المصور الشرقى تجارب حياته فى حركة واحدة لقلمه او ريشته على ورقة شفافة.

لم أكن حتى ذلك الوقت قد اطلعت على نثر هرمان هسه الا فيما ندر، فضلا عن أن العثور على آثاره كان متعسرا فى ألمانيا آنذاك، إلا أن تلميذى المذكور كان قد جمع منها ما جمع ، فجعلنا نقرأها فى ذلك اليوم لمدة ساعات وساعات ...

لم تكن المراسلة ممكنة بين ألمانيا وسويسرا فى ذلك العام غير أننا وفقنا بعد عام او عامين فى إبلاغ تحياتنا وبالغ إعجابنا الى شاعرنا المحبوب الذى كان قد حاز على جائزة نوبل فى عام ١٩٤٦ ؛ فأجابنا بلطيف العبارات ورقيقها. وقد ظل يبعث الينا بمقالاته وأشعاره، فلم ينقطع حبل الصلة الفكرية بيننا بل دام اكثر من اثنتى عشر سنة حتى توفى فى عام ١٩٦٢. وفى ذات مرة أهدانا لوحة صغيرة من رسمه. ولإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن هرمان هسه لم يكن شاعرا كبيرا فحسب بل أيضا إنسانا كبير القلب، ورائدا لا يستنكف أن يمد يده لكل من رأى فيه استعدادا فنيا، وأن يصادق ويآخى كل من وجد لديه اهتماماً خاصا بابداع الانسان. كان قد عرف الحياة، بظواهرها المشعشعة وبواطنها المظلمة، فأحبها على

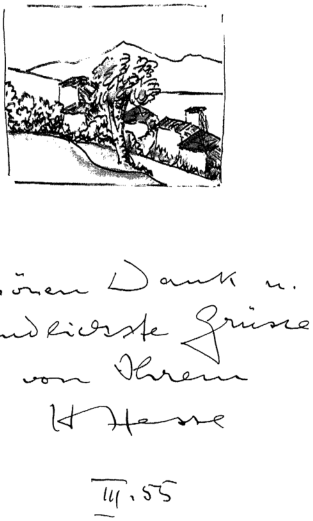

لوحة بالألوان المائية لهرمان هسه، كان قد اهداها لمؤلفة هذا المقال.

الرغم من مشاكلها (ولعله أحبها من أجل مشكلاتها) التى تعرف من خلالها على عمق الوحدة وسكونها ؛ وإن شكى منها فى صدر شبابه حين أنشد يقول :

تسقط من شجرة حياتى
ورقة ورقة ...

ومع ذلك كان يعلم ان «الأم الأزلية الأبدية» ستحبو فى نهاية الأمر ولدها الانسان بشفقتها وعطفها ...

ولد هرمان هسه فى ٢ تموز سنة ١٨٧٧ فى مدينة كالف Calw، وهى مدينة صغيرة فى جنوبى ألمانيا تقع على حافة الغابة السوداء. كانت أمه ابنة لأحد المبشرين المسيحيين فى الهند، وهكذا نشأ هسه فى جو بروتستانتى ضيق الأفق. فلم يطق هذا الجو الخانق، وفر من المدرسة حيث يقول فى ذلك : «منذ الثالثة عشرة من عمرى أيقنت شيئا واحدا : وهو أنى سأكون شاعرا أو لا أصبح شيئا على الاطلاق ... !» وصار هسه بعد ذلك تلميذا حرفيا فى متجر للكتب، وهكذا تعلم هذه المهنة؛ ثم نشرت له أشعار صغيرة وقصص من تأليفه، وقد اهتم بطقوس الديانة الهندية خاصة فى أثناء رحلة له الى الشرق فى سنة ١٩١١. وأقام منذ عام ١٩١٢ فى سويسرا حيث كان ابوه قد استقر هناك

لفترة ما، ومنذ ١٩١٩ عاش فى قرية «مونتانيولا» الواقعة بإقليم تيجينو فى جنوبى سويسرا، حيث ألف فيها بعد آثاره العديدة.

ونعثر فى حكايات هسه كلها على الكثير مما يتعلق بحياته الشخصية، ونادرا ما لا تتضمن قصصه على ايماءات الى سيرته وتجاربه. وكان عنوان أول قصة اشتهر بها: «تحت العجلة» (١٩١٦)، يروى فيها حياة شاب لا يطيق تزمت المدرسة فيتمزق عذابا لما يصدر عن معلميه ورفاقه من تصرف سيء ونية خبيثة حتى لكأنه يقع فى كل مرة تحت هذه العجلة التى لا ترحم... ولاشك أن هذه الحكاية تعكس تجارب هسه فى شبابه الا أنها كانت تعبر عن كرهه لجو المدرسة خاصة وأن البطل يموت فيها عاجزا ممزقا... ثم أن هسه نفسه اشتغل بمسائل التحليل النفسى الذى كانت سويسرا مركزا له. ويرى القارئ تأثير ذلك فى قصته «ديميان» (عام ١٩١٩) حيث يحلل الأديب مشاعر الشخصيات بدقة ومهارة. وكان هسه يوقن ان لهذا الطرز من الأدب قيمة خاصة، إذ هو «يعبر عن أزمة الانسان ويعترف بضيق الزمان بأخلص قدر ممكن». ورغم ذلك فقد كان يعلم أن هذا الأدب يقتصر على المراحل الانتقالية وبالتالى فليست له قيمة مطلقة.

ولم يكن هرمان هسه وان برع فى التحليل النفسى طبيبا أو إخصائيا نفسيا، بل كان على النقيض من ذلك فنانا موهوبا، كان شاعرا ورساما. فمن يقرأ قصصه وأشعاره يحس أن هذا الشاعر ينظر الى الأشياء بعين رسام؛ لا مثيل له فى وصف ألوان الزهور فى بستان، او فى تصوير أشكال السحاب المارة على نافذته، حتى أن القارئ ليرى ماثلا أمام عينيه كل ما توفر هسه على رسمه بألفاظه المتوازنة وكلماته المتجانسة.

ولذلك كان من الطبيعى أن يؤلف الشاعر كتابا عن حياة رسام، سماه «الصيف الأخير لكلينجسور» (١٩٢٠)، مشيرا باسم البطل الى شخصية «كلينجسور» وهو الساحر العظيم فى قصة «پارتسيفال» الألمانية القديمة، واصبح فى تأليف الشاعر الرومانسى الألمانى «نوفاليس» (١٧٧٢ — ١٨٠١) رمزا للشاعر الخالص الكامل، ثم انه صار فى اوبرا «پارتسيفال» لريشارد فاجنر المثال الأمثل للهوس الشهوانى... كل هذه الاتجاهات موجودة فى الرسام الذى دعاه هسه «كلينجسور» حيث بلغ قمة أعماله الأدبية فى هذه القصة المتألقة ضياءاً وبهاءاً. وكان هسه نفسه من هواة الرسم، وخاصة إنتاج اللوحات الصغيرة لمنظر بستانه وقريته وساحل البحيرة القريبة من داره؛ وفى بعض الأحايين ألف أساطير زينها برسوم عجيبة أهداها الى اصدقائه، منها أسطورة «بيكتور» (اى باللاتينية: الرسام) وتحولاته الغريبة».

وبعد ان فرغ هسه من تأليف حكاية الرسام «كلينجسور» القوية الجاذبة توجه مرة أخرى الى عالم الشرق وصنف كتابه المسمى «سدهارتا» Siddharta (عام ١٩٢٢)، وهو سيرة شاب هندى يسلك طرقا مختلفة فى حياته، ما بين عاشق وزاهد، وعامل وعالم، حتى انتهى الى المعرفة الكاملة التى تطمئن بها القلوب وتسكن النفوس. ويقلد هسه فيه أسلوب الكتب الدينية الهندية — وهو ثلاثى — يقدم رويدا رويدا، الأمر الذى جعل تأثير هذا السفر قويا، ولعله الكتاب الأول لهسه الذى أفاد فيه عن فكرته المركزية: عن الوحدة الأصلية التى تختفى وراء الأشكال المتضادة والأسباب المتباينة...

ولكن لم يلبث هسه أن أقام فى هذا العالم الساكن طويلا، بل كان مؤلفه الكبير التالى رسائل وأشعار متفرقة تختلف مضمونا وأسلوبا عن محتويات «سدهارتا» أشد الاختلاف كما يشير عنوان هذا الكتاب إلى خصوصيته الغريبة، وهو «ذئب الصحارى» (١٩٢٧). يحكى هسه فيه سيرة رجل (وكأنه يبحث عن نفسه، قائلا «كنت كذا وكذا...»)، رجل غريب، يحس فى سريرة نفسه أنه نصف انسان ونصف ذئب، ذئب جوعان تائه فى صحارى المدن المتمدينة، يبحث عن صيد من الأرانب أو الظبيان وقد صار هذا الانسان—الذئب رمزا للمرء الذى يعيش فى أزمة الحضارة الغربية، باحثا عن معنى جديد لهذه الحياة التى تجردت من كل معنى.

نعثر فى هذا السفر على صور أدبية جميلة للحب والعشق، وكذلك على ما يدهش العقول من ألعاب معنوية؛ أما الوجه الأهم لهذا الكتاب الذى يخرج على تقاليد الحكاية الموروثة ويجاوز حدود الأساليب المعتادة فهو الاستهزاء الخفيف الذى مكن المؤلف من وصف تجارب الحياة سواء كانت مرة او حلوة؛ تتأرجح ما بين الوحشة ولذة الهوى وما بين حلاوة الموسيقى والرغبة فى الانتحار...

وقد أفاد الشاعر عن هذه الوحشة وتلك العزلة التى حلت به مرة بعد الأخرى برغم شهرته الواسعة شاكيا إياها ومستهزئا منها:

لأصحابى زوجات، وقطط وكلاب
فهم لا يعرفون العزلة الطويلة...
وكان كل واحد منهم حاضرا (على الأقل نظريا!)
ليقتسم معى قطعة خبزه الأخيرة

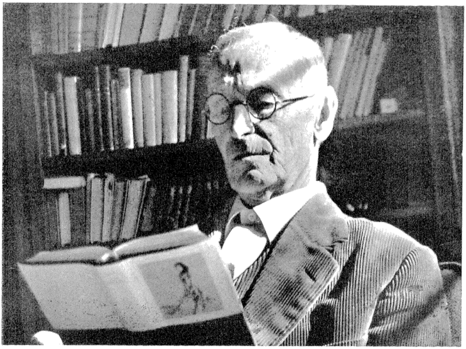

هرمان هسه

او ليسرع الى مراسم دفنى فى غاية الحزن
ولكن لا وقت لأحد منهم كى يرسل الىّ بطاقة بريد.

وإن كان «ذئب الصحارى» صيحة لنفس الشاعر المعذب فقد كان كتابه الذى نشره بعد ثلاثة أعوام أكثر نظما وتشكيلا، وهو «نرجس وفم الذهب» يروى فيه حكاية صديقين، يمثل أحدهما — وهو «نرجس» — العاشق المشغوف بحب النساء، والوله بالجمال، يبحث فى كل امرأة يحبها عن «الأم السرمدية» أو القوة الباطنة المؤنثة الوالدة المولدة التى خرج العالم منها واليها سيعود. أما «فم الذهب» فهو مثال القوى الروحية، يصير أبا فى دير ويشغل نفسه بأرفع الأمور الروحية التى لا يشوبها ظل هوى او عشق مادى. وإن كان هسه فى كتبه السابقة قد أشار إلى هذين الطرفين للحياة، أى المادة والروح، الهوى والزهد، الجمال المطلق المجسم فى المرأة والمعرفة واليقين الذى يحققه الزاهد المتصوف — فقد جعل هنا البطلين نموذجين لكل من هاتين الامكانيتين. ومقصده أن الحياة لا تتم الا بالتعاون بينهما، وأن المركز اللانهائى للحياة أعلى من الهوى والزهد. أما شكل «الأم السرمدية» التى أحبها هرمان هسه واكثر من استعمالها رمزاً فيصفها فى هذا الكتاب للمرة الأخيرة بهذه الصراحة.

ذلك أن الشاعر توجه مرة أخرى بعد ذلك الى الشرق، ناشرا فى سنة ١٩٣٢ كتابه الرومانتيكى «رحلة الى الشرق» Morgenlandfahrt أما العنوان فيصعب ترجمته الى أى لغة او لسان لأن كلمة Morgenland بالألمانية تعنى «بلاد الصبح» وهى الكلمة القديمة لبلاد الشرق؛ ثم أن مؤلفى الأعمال الرومانسية فى ألمانيا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تحدثوا عن هذه البلاد الشرقية Morgenland وكأنها الموطن الروحى للشعراء، وقياسا على ذلك يمكننا أن نكشف عن العلاقة بين عبارتى «الشرق» و«الإشراق» فى لغة الفلاسفة والمتصوفين فكأن الشرق إذن «بلاد الإشراق» (فى معنى الفلسفة السهروردية). فلا عجب إن صارت بلاد الشرق وموطن الإشراق الغاية القصوى لأحلام الأدباء الألمان، ولعلهم كانوا يرون فى كلمة Morgenland إيماءاً بكلمة «الغد» Morgen، وأصبحت هذه البلاد «بلاد الاستقبال» التى كنا نعيش فيها فى الأزل مستمتعين باشراقة نورها والتى سوف نعود اليها فى الأبد، فهى أصل النور الباطنى كما قال عنها «نوڤاليس» و«شليجل»: وطن الخيال وينبوع العشق ومرجع الآمال. ولا شك ان هرمان هسه كان «الفارس الأخير من جيش الرومانسيين المحتشم»، فى هذا الكتاب الصغير الحجم أعاد ذاك الخيال القديم لوطن الروح الذى نبحث عن الطريق اليه، ونضل ضلالا، وننسى رفاقنا، ونتحول ويتحول الطريق، وفى النهاية نحس ونعرف أن هذا الوطن كامن فى قلوبنا نحن ... كان الكتاب الأخير الذى ألفه هرمان هسه أثناء الحرب

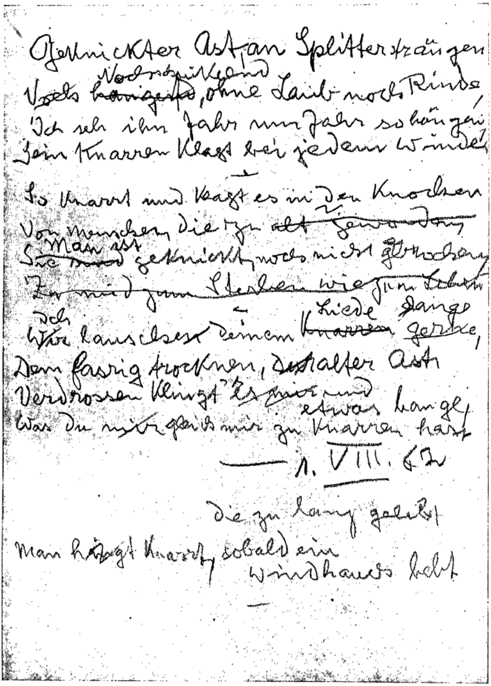
Geknickter Ast an Splittersträngen
Noch hängend, ohne Laub noch Rinde,
Ich seh ihn Jahr um Jahr so hängen
Sein Knarren klagt bei jedem Winde.

So knarrt und klagt es in den Knochen
Von Menschen die zu
Man ist geknickt, noch nicht gebrochen

Ich lausche deinem Liede lange
Dem fasrig trocknen, du alter Ast
Verdrossen klingt es und etwas bange
Was du mir zu knarren hast
1. VIII. 62

die zu lang gelebt
Man hängt knarrend sobald ein Windhauch hebt

آخر أبيات هرمان هسه

فرع شجرة مقوس بقذاه
تدلى عاما بعد عام
يخشخش عبر الريح
أغنيته بجفاف..
دونما أوراق .. دونما لحاء
عاريا .. مصفرا .. متعبا..
من طول الحياة،

وامتداد سكرات الموت.
وتطن أغنيته
فى صلابة وقسوة
فى عناد وجزع مكتوم
طوال صيف وصيف
وشتاء آخر.

(ترجمة : مجدى يوسف)

العالمية الثانية ضخم الحجم يحمل عنوان «لعب خرز الزجاج» (١٩٤٣) وهو قصة تربوية نسجت على منوال رواية «ڤيلهلم مايستر» لجوته. يصف هسه منطقة خاصة من العالم الغربي فى زمان بعيد — ولعله بعد سنة ٢٠٠٠ م — حيث يقيم فيها «خصوص الخصوص» اى زبدة الجماعة الروحية، على نهج الطرائق الدينية القديمة، دون مال أو زواج وقد شغلهم الفن والعلم الخالص. ولهم نظام دقيق فى مراتبهم ولكل منهم وظيفة خاصة فى التربية أو التأليف او غير ذلك : «وكلما ارتفع شأن المنصب كلما زاد عمق الارتباط، وكلما عظم شأن الوظيفة كلما اصبح الواجب أشد وأقسى، أما إذا كانت الشخصية اقوى فان الاستبداد يصبح أحرم».

وقد قصد هسه فى هذه الرواية أن ينتقد السيء من عادات زمانه، كأن يدبج الكاتب أو الصحافى مقالة اوكتابا عن أى موضوع شاء، من تفرعات حياة عائلة قاتل او عن نجوم كرة القدم الى تاريخ الكلاب المحبوبة عند الأمراء فى سالف العصور، وهو ما يدعى اصطلاحا بالـ Feuilletonism وهذه العادة التى لا يفرغ منها حتى اساتذة المدارس هى ما يكره أهل هذه المنطقة البعيدة، فان غرضهم الوحيد هو المحافظة على القيم الثقافية والأخلاقية الخالصة. وصار ما قال هسه حول «لعب خرز الزجاج» مركز إهتمامهم وغاية أعمالهم، ومعنى هذا اللعب تصفية القدرة على التفكير وهو أن يوصل العالم تصورات من ميادين مختلفة ويربطها فى شكل كلى جديد : فمثلا أن يأخذ صوت نغمة كلاسيكية تذكره بلوحة رسام صينى، ويرى فى هذا الرسم شبها لشكل هيكل معاصر، ثم يضم إليه ما يشبهه من معادلة رياضية حتى يجعل العلوم والفنون كلها مرتبطة على نحو صحيح (وهذا هو ما يهدف إليه الدماغ الإلكترونى بأسلوب مغاير).

قال هسه أن هذا اللعب الروحى كان قد تطور فى فروع العلم، نحو اللغة او الرياضيات مثلا، ثم أن اهل الاختصاص اوجدوا القوانين لإنشاء بناءاً عظما معنويا شاملا للعلوم والفنون كلها. أما الأصل الأهم لهذا اللعب الخيالى، وكذلك الفن المحبوب عند أهل المنطقة البعيدة فهو الموسيقى الكلاسيكية. يصف هسه هذه الموسيقى بكلمات عارف قديم صينى قائلا :

«أصول الموسيقى بعيدة جدا. وهى تنشأ من التوازن وتتأصل فى الوحدة الكبرى. وقد ولدت الوحدة الكبرى القطبين ؛ ومن القطبين تتولد قوتا الظلمة والضياء. فإذا كان العالم ينعم بالسلام وإذا كانت الأمور جميعها على خير ما يرام، وإذا تتابع تحول رؤوسها، أمكن إتمام الموسيقى ؛ وإن لم يسلك الهوى والأمانى سبلا غير قويمة أمكن إكمال الموسيقى. وللموسيقى الكاملة سبب، ينشأ من الموازنة، وتنشأ الموازنة من الحق، والحق من معنى الكون. ولا يستطيع التكلم بالموسيقى إلا من عرف دلالة الكون وتعمق كنهه. وتستند الموسيقى على الوفاق بين السماء والأرض، على اتفاق الظلمة والضياء. أما الدول المنحلة والأقوام المشرفة على الهلاك فلا غنى لها عن الموسيقى، وإن لم تكن ذات أنغام مرحة ؛ وكلما كانت الموسيقى اكثر انحرافا وسلبا لأرواح الناس كلما كانت حزينة وكلما كانت البلاد مشرفة على هاوية سحيقة وكان حاكمها أقرب إلى سقوط لا قيامة بعده ... أما موسيقى العصر المنظم فهادئة مرحة، وحكومات أقطارها معتدلة.»

وكذلك صارت قوانين الموسيقى أصلا لهذا اللعب الروحى الذى يفهم معناه كل مطلع على ألعاب شعراء الشرق الذين افتخروا بنسج شبكة دقيقة من تعبيرات متجانسة فى شعر واحد أو بحياكة شبكة لطيفة من كلمات مشتقة. أما معنى هذا اللعب عند هسه فهو الحفاظ على العلوم والفنون والوقوف على الارتباط السرى بين الأشياء والقيم. يحكى المؤلف فى روايته هذه حياة أحد أساتذة هذا اللعب واسمه يوسف كنيشت (اى يوسف العبد) الذى نال المرتبة العليا فى هذا الميدان، ولكنه يفهم أن دوام ذلك الحالً من المحال لأنه ينقصه العشق، وهكذا ينصرف عن الدنيا ويعتزل التحول الدائم الذى لا قيام ولا حياة إلا به، ويترك وظيفته التى باشرها منذ سنوات طويلة ليربى ابن صديق له، ولكنه فى الصباح الأول وعندما يريد أن يسبح معه فى البحيرة الباردة عند طلوع الشمس إذ به يموت غريقا ... ثم أضاف هسه الى هذه الحكاية ثلاث «سير» يصف فيها المراتب المختلفة للحياة الانسانية فى عالم القدماء، وهى سيرة الساحر الذى يستطيع جلب الأمطار، وقصة تدور فى جماعة من الهنود وتشبه بما سبق أن دونه هسه ما قبل اثنى وعشرين سنة فى كتابه «سدهارتا» ؛ أما السيرة الثالثة فهى حكاية قسين فى أوائل تاريخ النصارى. كل منها يعكس مسائل واجهها «يوسف العبد» فى حياته، وكأن هؤلاء الرجال كانوا هو بنفسه. ثم أن هسه اضاف الى كتابه هذا بعض القصائد مدعيا أن «يوسف العبد» كان قد ألفها فى شبابه. ومن بينها أروع أشعار هسه التى تفيد عن دينه وفلسفته فى الحياة بكل وضوح، وعنوانه «درجات»، قال فيه إنه يوجد لكل درجة فى الحياة قيمة خاصة وزهر معين، وكما يزهر الشجر وتذبل الزهور هكذا تزهر الحكمة والفضيلة لمدة معينة لا تدوم الى الأبد ؛

وعلى القلب أن يهجر قديم روابطه ويقبل دوما على حياة جديدة؛ عليه أن يودع درجة السلم ويعيش بالقوة السحرية الكامنة فى ابتداء درجة سلم جديدة؛ والمرور من مكان الى مكان ومن مرحلة لأخرى بغير تعلق خاص بأحدها. هذا ما تتطلبه روح الحياة، فنحن لا نكاد نألف مكانا او نستوطن بقعة حتى تهبط قوانا وتفتر توترات عضلاتنا وتكسل عن العمل .. أما من كان على استعداد دائم وسفر لا يعرف التوقف فينجو من الفتور والعادات الرخيصة؛ ولعل ساعة الموت مجرد باب لأسفار جديدة وسياحة لا نهاية لها. ذلك أنها لا تزال هى صوت الحياة الذى يدعونا الى طريق جديدة، والى التحول والصعود أبداً ...

تعال يا قلبى ، ودع وآشتف!

إن هذه القصيدة التى كتبت بأسلوب جد جميل وايقاع جد جذاب يذكر بأفكار محمد اقبال الشاعر الباكستانى الذى قدره هسه كل التقدير، وقد ركز الشاعر فيها نظرياته بوضوح كامل : كانت آثاره الأدبية من شبابه الى قصصه الأخيرة، إلى الأبيات التى دونها فى أيام شيخوخته معترفة بهذه الحقيقة : أن لا دوام لظواهر العالم، وأن الحيـاة تتطور فى درجات، أهمها ثلاث : عصمة الطفل، ومعرفة الرجل بما أمر ونهى وأتى من ذنوب وهو ضال، وفى نهاية معرفته بالوحدة الأصلية الكامنة وراء لعب الحياة المتباين الألوان أوهو، إن لم يستطع إدراك هذه الدرجة، أصابه الهلاك. ولا يمكن لأحد أن يؤيد أخاه فى هذا التطور. فعلى كل انسان أن يتم حياته حسب مقدوره. وكثيرا ما نعثر فى آثار هسه القديمة على مسألة القدر والجبر، اى على مسائل غير قابلة للحل إلا بالإيمان. ما زال هسه وإن اعترض على عائلته المتنسكة ذات التربية الدينية الضيقة الآفاق، مشغولا بمسائل الدين طول حياته؛ وهو يرى فى النظام الرهبانى أحسن إمكانيات الحياة الروحية كما نستدل على ذلك من كتابه «نرجس وفم الذهب» وكذلك من كتابه الآخر «لعب خرز الزجاج»، ولا شك أن القوة الباطنة الملهمة لآثاره كانت قوة دينية عميقة.

ولكن دين هسه يبعد عن الدين المسيحى الموروث بعدا كبيرا. كان الشاعر يحب العالم الشرقى؛ يقدر عالم العرب كأحد المظاهر الكبرى للحضارة، وكان قد اطلع على كتب الدين الهندية، وبالخاصة البوذية التى تعلم فيها المراقبة والدخول الى الأعماق الكامنة حيث يكتشف أن كلا منا أخا للآخر؛ وأن قضاء الواحد مربوط أشد الأرتباط بمقدور الآخر. ولكن الحضارة الأكثر تأثيرا فيه كانت حضارة الصين القديمة. فقد كان له ابن عم؛ وهو ڤيلهلم جونـدرت Gundert، عاش فى الشرق الأقصى لمدة ثلاثين سنة أو اكثر وهو اليوم أفضل مترجم للأدب اليابانى والشعر الصينى إلى الألمانية : هكذا كان اتصاله الأول بهذه الصنعة وبالخاصة بالكتاب القديم الخاص بالتفاؤل واسمه «اى جينج» I Ging. إن دين الصين القديم يعبر عن القطبين اللذين لا حياة إلا بهما، وظن هرمان هسه أن وظيفة الشاعر (او الانسان الواعى) تكمن فى «أن يدون الصوت المثنى للحياة». وهذا الصوت المثنى الذى يشكل الحياة هو ما يدعى «عالم الأب» و«عالم الأم» اى عالم الروح المحض والتجريد وعالم الشهوة والتشكيل الجمالى. أما الفنان فعليه أن يوحد هذين الضدين أى أن «يربط القطبين ببعضهما» ويوجد التوازن بين الروح والنفس، بين التجريد والتشكيل أوإن أردت بين التنزيه والتشبيه، وفى التعبيرات الصينية، مقابل لذلك، هو ما بين «ين» و«يانج». أما «ين» فهو القوة المؤنثة الوالدة البطيئة القمرية المطيرة، وأما «يانج» فهو القوة المذكرة التوليدية العالية الشمسية. هذا ما يعبر عنه هسه فى «نرجس وفم الذهب» بعد أن اقترب من هذه المسائل فى كتبه السابقة، ويدعم إفادة هذه الحقيقة فى «لعب خرز الزجاج» فى قوله أن معنى هذه اللعبة هو التعرف على «سر الكون حيث يتحقق القدوس فى المد والجزر الناجم عن التنفس بين السماء والأرض وبين «ين» و«يانج» أبداً.» ومعنى هذا فى ألفاظ اهل الدين واصطلاحات المتصوفين أن الحياة الإنسانية لا تصح إلا بالخوف والرجاء، بالقبض والبسط، وأن سر الألوهية يظهر فى الجمال والجلال ...

وكما يوجد فيما وراء هذين القطبين الوحدة الأصلية يجب على الانسان أن يتحققها فى نفسه، اى أن معرفته لهذه الوحدة لا تبقى مجرد نظرية محضة اوعلم فلسفى بل انه يجد الطريق الى سر الأسرار، الى اعماق قلبه؛ التركيز، والمراقبة — هذا هو ما يطلب هسه من المريد الذى يدهشه كثرة صور العالم وأشكاله :

الأيل والعزب؛ الوردة الحمراء
زرقة البحر؛ العالم المتلون
ركز نفسك — فاذا به ينحل
الى ما لا اسم له ولا شكل
ركز نفسك وارجع
تعلم النظر وتعلم القراءة
ركز نفسك — يصير العالم خيالا
ركز نفسك — يصير الخيال يقينا .

هذا هو ما تعلمه هسه من التركيز والمراقبة. أما الأشياء العابرة الدنيوية فما حالها عنده؟ إن اطلعنا على آثاره بدقة نعثر على موتيف يتكرر لديه منذ عشرين سنة، اى منذ «ذئب الصحارى» الى «لعب خرز الزجاج» وهو موتيف المحافظة على كل ما له قيمة فى تاريخ الحضارة : على «المسرح السحرى» الذى يحتوى على أشخاص شتّى من أكابر الدنيا، وهم يعيشون فى وقت واحد على حال واحد ويجرون الناظر الى وسطهم فيحضر لقاءهم لا فارق فى ذلك بين زمان او مكان. ويعود هذا الموتيف فى «رحلة الى الشرق» وكذا فى السجلات السرية التى تحفظ العلوم وأخبار الماضى ولكنها تغيب عن نظر غير اللائقين .. يبحث عنها أهل الرحلة الى الشرق، هذه «جمعية الطالبين فى يبس صحراء الزمان والأرقام ...»

ويكرر هسه هذه السجلات المخفية مرة اخرى فى «لعب خرز الزجاج» عندما أوجد «أرشيف اللعب» حيث يحفظ أهل هذه المنطقة الحقائق التى عثروا عليها عند لعبهم، ويحفظون جميع العلوم والفنون كى يكونوا حاضرين فى احتفال اللعب؛ هكذا يحفظ الأرشيف اللغة الشاملة على كل الإمكانيات أى خزانة قوانين التفاهم، والمفتاح لعالم الروح ... قال هسه عن هذا اللعب : «ايقنت بغتة أنه فى لغة «لعب خرز الزجاج» — او على الأقل فى روحه — كل شيء يعنى الأشياء كلها حقا، وعرفت أن كل رمز وكل امتزاج لرموز معينة لا يذهب بنا الى هنا او هنالك، ولا الى أمثلة فردية ولا الى تجارب او الى براهين متوحدة، بل أنه يذهب بنا الى المركز، الى سر الكون وباطنه، الى المعرفة الأزلية»

وهذا هو معنى اللعب الذى يكاد القارئ يستغربه او يعتبره مجرد لهو؛ أن يسلك بالإنسان الى باطن الكون، حتى لا يقف عند ظاهر الكلمات والرسوم بل يجد طريقه الى الباطن «حيث يصبح كل ما يفعل وكل ما يتفكر مناجاة بروحه هو». وإذا وصل الطالب هذا المنزل لا يهتم بالزمان ولا بالمكان وإنما يرى على ما قال هرمان هسه «الوحدة تبتسم فوق التشكيلات الجارية، تبتسم فى نفس الوقت من فوق آلاف مؤلفة من المواليد والأموات ...» ويقترب هسه بكلامه هذا من أهل التصوف فى الغرب والشرق، وكذا يوحد القطبين المتضادين — الروح والهوى، والعالم والفنان — فى حياته ويجسمهما فى شخصيات آثاره الأدبية. هكذا جمع بين الخصال الشرقية والغربية، وعبر عن أسرار الحضارة الشرقية بألفاظ جد رائعة وجميلة لا يمكن ترجمتها الى لغة أخرى لعذوبة ما فيها من ايقاع.

كان هسه قد عرف أعماق الحياة وظلماتها، ولكنه كان يعلم أن معنى الحياة لا يوجد فى الظلمات وفى الآلام، بل أنه كامن وراء كل هذه التظاهرات — كما قال فى «لعب خرز الزجاج» بلسان بطل الرواية «يوسف العبد» الذى يخاطب صديقا له قد يئس من معنى الحياة، مشيرا الى السماء بعد الغروب «انظر الى هذا السحاب وأشرطة السماء ... لا يوجد عمق الكون وأسراره حيث يوجد السحاب والسواد بل يوجد فى صفاء تماما : هناك حيث النجوم ... !»

وكثيرا ما اعترف باعتقاده أن المقصد الغائى فى حياة الفرد وحياة الكون هو الصفاء الذى يجده الإنسان بعد الابتلاء بل ايضا فى أثناء الآلام — وكان المثال الأعلى عنده لهذا الصفاء البشوش الناشيء من الدموع يتمثل فى موسيقى «موتسارت» الموسيقار النمسوى الذى يفيد عن هدوء القلب واطمئنانه فى صفاء سماوى ... وقال هسه (ايضا فى الكتاب السابق ذكره) فى فضيلة هذا الصفاء البشوش :

«إن هذا الصفاء هو سر الجمال والسر الخفى لكل فن. إن الشاعر الذى يمدح روعة الحياة وفظاعتها فى ايقاع اقدام أبياته الراقص، او الموسيقار الذى عبر بالغناء عن الحضور المحض : كلاهما حامل لنور، معزز للصفاء والضياء فى عالمنا — وإن يسلك بنا للوهلة الأولى مسالك الدموع والتوتر الحزين ... وربما كان الشاعر الذى نبتهج بأبياته وحيدا، حزينا كل الحزن، أوكان الموسيقار حالما سوداويا، ومع ذلك فهو يشارك بعمله صفاء الآلهة وصفاء النجوم. فالرائعة التى وهبنا إياها ليست سوداويته، ولا أوجاعه ومخاوفه القاتمة، بل هى قطرة من النور الصافى، من الصفاء السرمدى ...»

من أجل ذلك كان هسه يحب الحياة، ويحب كذلك الموت : كان الموت رفيقه وصديقه منذ أيام شبابه، وهو كذلك قنطرة عبرت به الى درجات جديدة، الى تطور جديد. تطور غير بعيد عن رسائل المتصوفين القدماء ومؤلفات محمد إقبال الشاعر الفيلسوف الباكستانى الذى رأى هرمان هسه فى شعره «جاويد نامه» «الديوان الشرقى — الغربى» الكثير من الأفكار المشابهة لأفكاره هو، لاسيما فى الاعتقاد بالدينامية الأصلية الواجبة لديمومة الحياة. ونحن نرى فى هرمان هسه واحدا من شيوخ أدباء جيلنا الحالى، حافظا لقيم الحضارة الغربية وفى ذات الوقت هاديا الى الشرق، الى ينابيع الإشراق.

حظّ!

بقلم هرمان هسه

إن الانسان، كما صوره الله ووعته آثار الشعراء والأدباء وحكم الشعوب على مر آلاف الأعوام، قد جبل على أن يسعد بأشياء قد لا تنفعه، أو قل بحاسة لادراك الجمال. فدوما يسهم الفكر مع الحواس بنفس المقدار فى إبهاج الانسان بكل جميل. وطالما استطاع بنو البشر أن يغتبطوا، وسط ما يعترى حيواتهم من أخطار ومنغصات، للعب الألوان فى الطبيعة أو على لوحة من إبداع فنان، أو لنداء نابع من أصوات العواصف وأمواج المحيطات أو من موسيقى خلقها إنسان، وطالما كان فى مقدورهم أن يروا أو يحسوا العالم ككل فيما وراء المصالح والغايات .. وأن يدركوا العلاقة بل آلاف العلاقات والتشبيهات والانعكاسات التى تفعم بلغتها المتدفقة أبدا نفوس المستمعين إليها بالحكمة والبهجة والتأثر والسعادة .. فمن لفتة رأس قطة صغيرة لعوب إلى عزف متنوع لسوناته، ومن نظرة كلب يخفق لها الفؤاد إلى مأساة شاعر — طالما سيطر الانسان على شكوكه، واستطاع أن يضفى على حياته معنى، دائما ومن جديد .. فالـ«معنى» هو تلك الوحدة المستمدة من التعدد، أو قدرة الفكر على إدراك تشتت العالم فى اتحاد وانسجام .. فمن أجل الانسان الحق، الصحيح، المتكامل، غير المشوه، يتبرر وجود العالم ووجود الله دون توقف أو انقطاع. يتبرر فى أعاجيب كتلك التى تفصح عن أمور تتعدى مجرد ترطب حرارة الجو فى المساء، وانتهاء وقت العمل، مثل تورد الأصيل وتدرج ألوان السماء فى صورة ساحرة من الأحمر الشفاف إلى البنفسجى، أو مثل وجه إنسان تكسوه أعجوبة الابتسام فى ألف مرحلة وانتقالة، وكأنه صفحة السماء عند المغيب، أو مثل الغرف والنوافذ فى كاتدرائية، ونظام أعضاء التلقيح فى آنية الزهر، وكمنجة مصنوعة من ألواح خشبية، وسلالم موسيقية، وشىء رقيق شفاف يتعذر فهمه، ولد من الطبيعة والفكر، ويضم العقل وما فوق العقل والطفولة جميعا كاللغة! إن جمالها ومفارقاتها وألغازها وما يبدو من أمر خلودها الذى لا يحميها من النكسات والأمراض والأخطار، شأنها فى ذلك شأن كل ما هو إنسانى — كل هذا يجعلها بالنسبة لنا، نحن خدامها وتلامذتها، واحدة من أرفع وأبهم الظواهر على سطح البسيطة.

ولا يقتصر الأمر على أن كل شعب أو جماعة حضارية تخلق لنفسها لغة تتناسب وتاريخها، فضلا عن تأديتها لما لم يفصح عنه بعد من أهداف، ولا مجرد أن يتعلم شعب لغة أقوام أخرى فيعجب بها أو يسخر منها ومع ذلك لا يستوعبها تمام الاستيعاب! لا .. وإنما اللغة لكل فرد من بنى الانسان ممتلك خاص، مادام صاحبنا لا يعيش فى عالم ما قبل اللغة، أو فى دنيا سادتها الآلية عن آخرها حتى عادت لتصبح مجرد واقع لا ينطق .. فلكل مستقبل للغة متأثر بها، أى لكل إنسان صحيح غير معلول أو منهار، كلمات ومقاطع وحروف وصيغ وتركيبات نحوية ذات قيمة ودلالة تخصه هو بالذات. وهكذا يمكن لكل لغة أصيلة أن تدرك وتعاش من جانب الموهوبين فى إجادتها واستيعابها، على نحو خاص شخصى إلى أبعد حد، وحتى لو لم يعلم أحد من هؤلاء شيئا عن ذلك. وكما يوجد موسيقيون مولعون بآلات عزف أو طبقات صوت معينة دون سواها مما لا يجيدون ولا يحبون، فهكذا يحس معظم الناس منذ نشأة حاستهم اللغوية بميل خاص إلى كلمات ونغمات معينة وحروف صوتية فردية أو متتابعة، بينما يفضلون تجنب غيرها. فإذا ما أحب امرء شاعرا أو أعرض عنه، رجع ذلك فيما يرجع إلى الذوق اللغوى والسماعى لهذا الشاعر ومقدار ألفته

لنفس القارئ أو بعده عنها. وفى استطاعتى أن أذكر على سبيل المثال عددا لا آخر له من القصائد التى أحببتها عشرات السنوات ولازلت أحبها، لا لمعناها، ولا لحكمتها، ولا لما تحويه أو تتمخض عنه من خبرات أو طيبة أو رفعة، وإنما فقط من أجل قافية معينة أو خروج إيقاعى بالذات على القواعد المتوارثة، أو اختيار موفق لحروف صوتية محببة إلى النفس قام به الشاعر عن غير وعى مثلما يتمرس بها القارئ دون أن يشعر. وكثيرا ما يمكن أن نخرج من بناء وإيقاع جملة نثرية لجوته أو برنتانو، أو لسنج أو إ. ت. آ. هوفمان، بخصائص الشاعر واستعداداته الجسدية والنفسية على نحو أفضل بكثير مما نخرج به من إفادة هذه الجملة النثرية. وهنالك جمل نعثر عليها فى كتابات أى شاعر، وأخرى لا توجد إلا لدى علم مشهور فى مجال موسيقى اللغـة.

أما الكلمات بالنسبة لنا فهى كالألوان على لوحة «پاليت» فى يد المصور. يوجد منها الكثير، ويخرج منها جديد على الدوام، أما الكلمات الطيبة الأصيلة فقليلة، وإنى لم أخبر طيلة سبعين عاما مولد كلمة واحدة جديدة من هذا الطراز. وكذا الحال مع الألوان فهى ليست كثيرة بلا حصر ولا عد وإن كان يمكن تدريجها وخلطها بما لا نهاية له. ومن الكلمات ما هو محبب أو مستهجن لدى كل متحدث، ومنها كذلك ما هو يومى لا يخشى عليه الانطفاء ولو استعمل ألف مرة، بينما نجد أيضا من الكلمات ما لا يذكر إلا فى المناسبات، فلا ينطق المرء بها أو يدونها — مهما كان مقدار حبه لها أو ولعه بها — إلا بترو واقتصاد يتناسب وندرة الموقف وخصوصيته.

ومن بين هذه الأخيرة كلمة : حـظ (Glück). فهى واحدة من الكلمات التى طالما أحببتها وأحببت سماعها. ومهما اختلفت الآراء حول معناها فهى تفيد على أى الحالات عن أمر جميل طيب مرغوب فيه. وهكذا أيضا وجدت نغمة هذه الكلمة.(*)

فقد وجدت فى هذه الكلمة، بالرغم من أنها قصيرة، صعوبة وامتلاء عجيبين. شيئا ذكرنى بالذهب. فقد كان لها — فضلا عن الامتلاء والخطورة — بريقا يشبه الومضة الخاطفة وسط السحب بينما يشع من المقطع الأول السريع الذى يطل مبتسما مضغما فى حرفى GL ويستقر ضاحكا فى Ü غير أنه لا يلبث أن ينتقل مسرعا فى تصميم وإيجاز ينم عنهما حرفا CK اللذان تنتهى بهما الكلمة الألمانية. ويالها من كلمة تضحك وتبكى، وتذخر بآيات السحر والتجسيد : فما علينا كى نعيها ونحس بها على حقيقتها إلا أن نضع إلى جوارها كلمة أخرى جاءت متأخرة، متعبة، مسطحه، من النيكل أو الصفيح الأحمر لا الذهب، مثل : الواقع أو الاستثمار. ولاشك أن كلمة Glück «حظ» لم تستخرج من معاجم اللغة أو تستمد من غرف الدراسة، فهى لم تخترع أو تشتق أو تؤلف من مقاطع مختلفة، وإنما كانت وحدة كاملة متكاملة هابطة من السماء أو نابعة من الأرض كنور الشمس ووجهة الزهرة. أى سعادة رائعة أن توجد مثل هذه الكلمات! فبدونها ما أجدب أن تكون الحياة وأن يكون الفكر، فكأنها حياة بلا خبز وخمر، بلا موسيقى أو ضحـك.

لم تتغير أو تتطور علاقتى بكلمة الحظ Glück إلى ما بعد هذا الجانب الطبيعى الحسى، فلازالت عندى حتى اليوم خاطفة بعيدة القرار، ذهبية الضياء كما كانت على الدوام، ولا زلت أعشقها كما أحببتها صبيا من قبل. ولكم خبرت آرائى وأفكارى من تطورات حول مدلول هذا الرمز السحرى، ومعنى هذه الكلمة الصعبة القصيرة، فلم تخلص إلى وضوح سوى أخيرا جدا. ذلك أنى ظللت حتى بعد منتصف عمرى بكثير أتقبل هذه الكلمة بإذعان وعدم اختبار على أنها تعنى فى لسان العامة شيئا ايجابيا وقيما للغاية، وإن كان فى حقيقته شائعا ومألوف. فما أن كانت تذكر هذه العبارة : «حظ!» حتى تترادف فى الذهن صور بعينها : ميلاد حسن، تربية صالحة، مستقبل باهر، زواج موفق، نجاح فى أمور البيت والأسرة، تمتع بصيت ومكانة اجتماعية، مال وفير وخير كثير. وكنت لا أختلف عن سواى فى استحضار هذه الصور عندما ترد لفظة الحظ. وقد بدى أن الناس إما أن يكونوا محظوظين أو منحوسين، تماما كما يوجد حاذقون وغير حاذقين. وكذا تحدثنا عن الحظ فى التاريخ فكنا نعتقد أن ثمة شعوبا وحقبا محظوظة دون غيرها. هذا بينما كنا نعيش فى زمن «محظوظ» بدرجة غير عادية، فقد غسلنا بسلام طويل وحرية واسعة وراحة ورفاهية كبيرة، وكأننا كنا فى حمام دافئ من كل هذه الحظوظ. وبرغم ذلك لم نلحظ كل هذا الخير، فقد كان الحظ بالنسبة لنا بديهيا. وقد كنا نحن الشباب فى تلك الحقبة التى كان يبدو عليها إمارات الدعة والسلام، حين تتعلق بنفوسنا موجة من الأسى والتشكك، نشتهى الموت ونتغنى بالانحلال وفقر الدم المشوق، بينما ندعو فلورنسا الا «كواترو تشينتو» وأثينا بيرقل وغير ذلك من سالف العصور

*) يتحدث المؤلف هنا بالطبع عن الكلمة الألمانية : Glück التى تختلف فى إيقاعها بعض الشيء عن ترجمتها (حظ) وإن اتفقت معها من ناحية أخرى فى أن كليهما مخطوف .

حقبا محظوظة. إلا أنه وإن خف الحماس لازدهار تلك العصور تدريجيا — فقد قرأنا كتب التاريخ ومادونه شوبنهاور، وصرنا لا نأمن السمو والكلمات المنمقة، وتعلمنا كيف نعيش فى جو فكرى نسبى لا يميل إلى المغالاة — ومع ذلك بقت كلمة الحظ، أينما قابلت المرء عفوا، محتفظة بكامل وقعها الذهبى الأول مذكرة بأرفع القيم. ولعلنا كنا نعتقد أحيانا أن الحظ عند البسطاء من الناس قاصر على متع الحياة اليومية، أما نحن فكنا نربط الحظ بأمور كالحكمة وبعد النظر والصبر وخلو النفس من بذور الخطأ. وكلها أشياء جميلة كانت تملأنا بالسعادة دون أن تستحق مع ذلك أن تحمل هذا الاسم الفطرى الممتلىء العميق الذى يدعى الحظ.

أثناء ذلك كنت قد لاقيت من النجاح فى حياتى الخاصة ما جعلنى لا أعلم وحسب أنه لا مكان ولا معنى فيها لما يدعى الحظ، بل ولا لمحاولة بلوغ ذلك الشىء أصلا. وربما عرفت هذا السلوك فى ساعة حماس بأنه مجرد استسلام للقدر Amor Fati، وإن كنت فى الواقع لا أميل أبدا إلى الحماس اللهم إلا فى حالات تطور متوهجة لا تدوم طويلا. ومن ناحية أخرى لم يعد مثلى الأعلى هو حب شوبنهاور الخالى من كل رغبة واشتهاء منذ أن عرفت تلك الحكمة الساحرة دوما فى اقتصاد وغير ولع بالظهور أو ضوضاء، والتى على تربتها نمى ما يروى من حكايات عن سير معلمى الصين ومأثورات «دشوانج دسى».

على أنى لا أبغى هنا أن أثرثر على غير هدى بل أريد أن أقول شيئا محددا بالذات. لذا فلأحاول أولا، وحتى لا أخرج عن الموضوع، أن أشرح بالكلمات ما تعنيه بالنسبة لى اليوم كلمة الحظ. إنى أراها الآن شيئا موضوعيا تماما هو الوجود الكلى ذاته أو الكيان اللازمانى أو موسيقى العالم الخالدة، أو ذلك الذى أطلق عليه آخرون انسجام الأجرام أو ابتسامة الله. وإن هذا الجوهر وهذه الموسيقى اللانهائية، وتلك الأبدية الكاملة النغم ذات جلوة الذهب لهى الحضور الخالص فى كامل هيأته، إذ هى لا تعرف الزمن ولا التاريخ ولا ما قبل وما بعد. وهكذا أبدا يضىء وجه العالم ويضحك بينما تصعد أجيال وشعوب وممالك فتزدهر وتعود لتهبط نحو الظلال ونحو العدم. فالحياة تعزف أبدا موسيقاها ولا تكف أبدا عن أن تدور رقصتها الأولى، أما نحن الفانون المعرضون للأخطار ووهدة السقوط فما يصيبنا رغم ذلك من فرحة وسلوى وقدرة على الضحك إنما هو جلاء من هناك أو عين مفعمة بالضياء وأذن ملؤها الموسيقى ..

أما إذا وجد حقا فى أى وقت بشر أسطورى الحظ أو إذا ما سقط النور العظيم فقط أحيانا ولساعات أو لحظات رائعة محملة ببهجة من السماء على أبناء الحظ المرموقين بعيون الحساد أو على من حبتهم الشمس بأشعتها وعلى أصحاب السلطان، فلن يصبح فى مقدور هؤلاء أن يذوقوا حظا مغايرا أو سعادة أخرى. وإنما نصيبنا من الحظ هو أن نتنفس فى حاضر كامل، ونشارك فرقة الأجرام غناءها، ومفتتحى حلقة الدنيا رقصهم، والله ضحكته الخالدة. وكثيرون ذاقوا هذه التجربة مرة أو بضع مرات. أما من أوتى له أن يخبرها فلم يعرف الحظ للحظة واحدة فحسب، وإنما جاء معه بشىء من جلوة ونغمة وضياء السعادة الأبدية. وكل ما يفد لعالمنا من حب العشاق وسلوى وبهجة الفنانين فيتألق بعد قرون مثلما كان فى يومه الأول، قادما من هناك ..

حتى هذا الشمول القدسى الواسع كالعالم بلغت دلالة كلمة الحظ فى رحلة حياتى .. ولعله يحق بى أن أذكر صبيان المدارس من بين قرائى أنى لا أقيم هنا بحثا لغويا بحال من الأحوال وإنما أروى قطعة من تاريخ الروح .. وما أنا أبدا بهادف أو راغب إليهم أن يضفوا على هذه الكلمة كل هذه الأهمية والخطورة فيما يعبرون عنه بالقول أو الكتابة. أما بالنسبة لى فقد تجمع واكتمل حول هذه اللفظة البهية القصيرة الذهبية الضياء كل ما كان يجيش فى نفسى عند سماع رنين وأنا طفل .. ولاشك أن حساسية الطفل أقوى منها لدى البالغ، فاستجابة كافة الحواس لنداء الكلمة ووقعها الملموس أشد وأعلى. إلا أنه لولم تكن هذه الكلمة عميقة عميقة وأصيلة مستديمة لما تبلور حولها تصورى للحاضر الخالد و«الأثر الذهبى» (فى الفم الذهبى) وضحكة الخالدين (فى ذئب الصحارى).

عندما يحاول من تقدمت بهم السن أن يتذكروا متى وكم من مرة وبأى قوة كان إحساسهم بالحظ، إنما يبحثون بالدرجة الأولى فى طفولتهم، وعن حق يفعلون. فاستيعاب تجربة الحظ يتطلب أول ما يتطلب استقلالا عن الزمن، وبالتالى من الخوف ومن الأمل. وهذه القدرة تضعف بمرور الأعوام لدى معظم الناس. وأنا بدورى عندما افتش عن لحظات معايشتى لجلوة الحاضر الخالد وابتسامة البارى، أعود فى كل مرة إلى طفولتى حيث أجد أكثر وأقيم تجاربى فى هذا الميدان. وبالطبع كانت أوقات السعادة فى الصبا أكثر تألقا وتلونا وبهجة وضياء منها فى أيام الطفولة، كما كان حظ الفكر منها أكبر. إلا أنه كلما دقق فيها المرء تبين له أنها كانت ذاخرة بالطرب

والمرح عنها بالسعادة الحقة. فقد كنا فى تلك السن طروبين فكهين حاضرى البديهة ذوى مداعبات طريفة. وإنى لأذكرنى وسط أصدقائى فى عز الصبا حين سأل أحدنا — وكان على شيء من السذاجة — عن كنه ضحكة هوميروس، فرددت عليه بقهقهات موقعة تماما على وزن بحر شعرى إغريقى. كانت ضحكاتنا عالية ولقهقهاتنا رجة — إلا أن مثل تلك اللحظات لا يصمد أمام النظرة الفاحصة المتأخرة. فكل هذا كان طربا ظريفا جميل المذاق ولكنه لم يكن هو السعادة الحقة. وكلما طال تتبع مسار هذا الاحساس تبين أن السعادة لم تعرف إلا فى الطفولة وفى ساعات ولحظات من الصعب العثور عليها من جديد. ذلك أنه قد تبين بالتمحيص أنه أيضا فى الطفولة لم تكن جلوة السعادة أصيلة فى جميع الحالات، ولم يكن الذهب صافيا تماما. فاذا ما حاولت أن أكون دقيقا للغاية تبقى فى النهاية عدد ضئيل من التجارب، وحتى هذه لم تكن صورا يمكن رسمها، ولا قصص تروى، وإنما كانت تنزلق متجنبة كل استفسار عنها. فإذا ما تذكرت شيئا منها بدا للوهلة الأولى وكأن الأمر يتعلق بأسابيع أو بأيام أو بيوم واحد على الأقل كعيد الميلاد أو أول يوم فى عطلة. إلا أنه حتى يتيسر إعادة بناء يوم من عهد الطفولة فى الذاكرة يلزم آلاف الصور، بينما لا تستحضر الذاكرة ما يكفى منها لاستعادة يوم واحد، بل ولا حتى نصف يوم.

وسواء دامت تجربتى مع السعادة لأيام أو ساعات أو لمجرد دقائق، فقد خبرت الحظ بضع مرات كما دنوت منه فى شيخوختى وأيامى الأخيرة. على أنه مع طول ما محصت لقاءاتى مع الحظ فى طفولتى المبكرة، فقد صمد أحدها دون أن يتزعزع. كان ذلك فى عهد ترددى على المدرسة فى الصبا. أما العنصر الأصيل الأسطورى الذى يفصح عن حالة توحد تام مع العالم فى ضحك لا صوت له، وانعتاق كامل من الزمن والأمل والخوف، وإحساس بالحاضر الكامل، فلا يمكن أن يكون قد دام طويلا. وربما لم يتعد بضع دقائق.

ففى صباح أحد الأيام نهضت من فراشى صبيا خفيف الروح والحركة، ربما فى العاشرة من عمرى، وفى نفسى إحساس عميق بالسعادة والبهجة راح ينتشر فى داخلى كشمس بين ضلوعى. وكأنه فى تلك اللحظة التى استيقظت فيها من نومى المستريح وأنا صبى قد حدث شيء جديد رائع، كأن عالم صباى برمته على كبره وصغره قد راح يدلف فى حالة أرفع أو فى ضوء ومناخ جديد وكما لو لم يسبغ القدر والمعنى الكامل على الحياة الجميلة إلا فى تلك اللحظة وفى ذلك الصباح الباكر. لم أع شيئا من أمسى أو غدى وإنما احتوانى إحساس سعيد بيومى، راح يغسلنى فى لطف. وأمتعنى ذلك بينما جعلت حواسى وروحى تلتهم هذه التجربة فى غير استطلاع أو حساب. وهكذا تدفق هذا الشعور فى جوانحى وأصبح رائع المذاق.

كانت الدنيا صبحا، ومن خلال النافذة العالية رأيت السماء صحوة ذات زرقة صافية من فوق سطح الدار المجاورة لنا. وكانت السماء هى الأخرى تبدو سعيدة وكأنها فى انتظار حدث غير عادى ارتدت له أبهى حلة. ولم يكن ليرى من مخدعى أكثر من هذه السماء الجميلة وسطح الجيران بطوله الممل وأحجاره الداكنة ذات اللون البنى المحمر، والذى بدا بالرغم من ذلك ضاحكا، فقد كان هناك لعبا خفيفا بالألوان على جداره المنحدر المظلل. أما قطعة السطح الزجاجية المطلية بلون أميل إلى الزرقة، والوحيدة بين المساحات الفخارية الحمراء، فلاحت جاهدة فى بشر أن تعكس شيئا من صورة السماء المبكرة الدائمة الاشعاع فى هدوء. وبدا كما لو كان هنالك اتفاق جميل مفرح بين السماء والحافة غير المنتظمة للسطح الخلفى من الدار، والجيش الموحد الزى بلونه البنى، والقطعة الوحيدة من الزجاج الذى يغطى سطح الدار، بسمكها الرفيع ولونها الأزرق وصلاحيتها للتهوية، على ألا يفعلوا شيئا فى تلك الساعة المتميزة من الصباح أكثر من أن يضحكوا لبعضهم البعض وأن يضمر كل منهم أحسن النوايا للآخر. وكان هنالك معنى يجمع بين السماء الزرقاء وفخار سطح الدار بلونه البنى والزجاج الأزرق، وهكذا جعلوا يلعبون مع بعضهم تغمرهم البهجة، وكان من المبهج التطلع إليهم وحضور لعبتهم، والاحساس مثلهم بتألق الصباح والصفاء..

هكذا رقدت فى بداية الصباح أستمتع بالشعور الهادىء الذى يخلف النوم، وإذ به أبدية جميلة فى مخدعى، ولإن كنت قد تذوقت سعادة شبيهة فى مرات أخرى أثناء حياتى إلا أنه لم يوجد منها ما هو أعمق ولا أكثر واقعية من هذه التجربة : فقد كان العالم على خير ما يرام. وسواء استمرت هذه السعادة مائة ثانية أو عشر دقائق فقد كانت هكذا خارج إطار الزمن، وبالتالى فهى تساوى أى حظ أصيل آخر مثلما تماثل فراشة أختها من نفس النوع. كانت لحظة فانية لم تلبث أن جرفت فى غمار حركة الزمن، وبرغم ذلك كانت عميقة وخالدة بالدرجة الكافية لتناديني

إليها اليوم بعد مضى ستين عاما عليها، وأن تحركنى حتى أناديها وابتسم لها بعينى المتعبتين وأصابعى التى تؤلمنى، بل وأحاول أن أعيد تجسيمها وتصويرها. وما نشأ هذا الحظ سوى من انسجام الأشياء المحيطة بى ووجودى الذاتى، ومن الاحساس بالرضى الكامل الذى لا يطلب تغييرا ولا مزيدا.

كان الهدوء يعم الدار من الداخل ويحيطها من الخارج. ولو لم يتوفر ذلك الهدوء لكان من الراجح أن يعكر على صفوى تذكر الواجبات اليومية من نهوض وذهاب للمدرسة. ولكنه لابد أن الدنيا لم تكن ليلا ولا نهار. فمن الصحيح أن كان هناك النور الجميل والأزرق الضاحك، إلا أنه لم يسمع وقع أقدام الخادمات على الأرضية الحجرية فى الطريق، ولا صوت باب يغلق أو يفتح، ولا خطو صبى خباز على الدرج. وهكذا كانت تلك اللحظة من الصباح خارجة على الزمن، لا تدعو لشىء ولا تشير لأمر قادم. كانت مكتفية بذاتها. ولما كانت حوتنى أنا الآخر ضمن وجودها فقد صرت كذلك لا أعرف النهار ولا التفكير فى النهوض ولا المدرسة ولا ما أدى من واجبات بصورة غير كاملة أو الحروف المتحركة التى لا تستقر فى ذهنى، ولا تناول طعام الفطور فى سرعة، هناك بغرفة الطعام الحديثة التهويـة.

على أن خلود السعادة قد انهار هذه المرة على يد الصعود بالتجربة الجمالية والاسراف فى البهجة. فبينما كنت راقدا على حالى لا أحرك طرفا وعالم الصباح الزاهى ينساب فى هدوء إلى داخلى ويستوعبنى فى جوفه، انطلق من بعيد شىء غير عادى، فيه تألق ذهبى وظفر يشق الهدوء، وبهجة فياضة وحلاوة جذابة موقظة: كانت نغمة بوق! ولم أكد أستيقظ تماما وأجلس فى مخدعى دافعا عنى الغطاء حتى صارت هذه النغمة مزدوجة ومتعددة: كانت الفرقة الموسيقية بالمدينة تعبر الأزقة لاعبة بالأنغام، وهو حدث نادر مثير بدرجة غير عادية ومفعم فوق ذلك بدوى الاحتفال حتى أن قلبى الطفل ضحك فى صدرى وشهق وكما لو كان الحظ كله وسحر ساعة الجذل مصبوبين عن آخرهما فى هذه النغمات الحادة الحلوة المهيجة للفؤاد، ثم إذ بهما يتدفقان عائدين بعد استيقاظ إلى الزمن والفناء. وفى لحظة واحدة كنت خارج الفراش أهتز جذلا للمهرجان، ورحت مندفعا تجاه الباب ثم نحو الغرفة الجانبية التى كان يمكن التطلع من نوافذها إلى الشارع. وفى غمرة من الانبهار والفرح والاستطلاع وحب المشاركة وضعت نفسى فى نافذة مفتوحة ورحت أستمع فى طرب إلى النغمات المتعالية للموسيقى القادمة، ورأيت وسمعت دور الجيران والطرق وهى تصحو وتدب فيها الحياة وتمتلىء بالوجوه والأشخاص والأصوات — وفى نفس اللحظة عرفت من جديد ذلك الذى كنت قد نسيته تماما فى غمرة الصفاء السعيد الذى حل بى فيما بين النوم والنهار. عرفت أنه لا ذهاب اليوم إلى المدرسة، فقد كان يوم عطلة فيما أعتقد، بمناسبة عيد ميلاد الملك، مما جعل هنالك مواكب وأعلام وموسيقى وطرب لا آخر له.

وقد كانت هذه المعرفة مفتاح عودتى، فقد رجعت لأخضع من جديد لربق القوانين التى تسود الحياة اليومية. وإن لم يكن يوما عاديا وإنما يوم احتفال ذلك الذى أيقظتنى فيه النغمات النحاسية، فقد اندثر كل ما هو أصيل وجميل وربانى فى ذلك الصباح الساحر. وخلف تلك المعجزة الرائعة الصغيرة جعلت ترتطم من جديد أمواج الزمن والدنيا وما هو عادى ومألوف..

ترجمة: مجدى يوسف

الزجاجة الفاطمية: "كأس هيدفج"

إن موضوع اهتمامنا، وهو ما يدعى بكأس هيدفيج فى مجموعة قسته كوبورغ للتحف الفنية، لا يفتن الناظر لأول وهلة. ولذا فعلينا أن نقربه من جوانب مختلفة لنعى أهميته. إنه قدح قوى سميك الجدار يبلغ ارتفاعه عشرة سنتيمترات من زجاج بلون الياقوت الأصفر المدخن، يتسع قطره من ثمانية سنتيمترات فى الأسفل إلى عشرة سنتيمترات فى الأعلى، ويروق للمشاهد العصرى بزخارفه السطحية الجريئة، المجردة، العميقة فى خطوطها المحفورة.

وتتأكد غرابة مظهره من بابين: فمما لاشك فيه أن له صلة بالألف والثمانمائة وعاء بلورى جبلى فاطمى التى كانت تشكل لتسعمائة عام خلت الكنز الثمين الاسطورى للخليفة المستنصر فى القاهرة، ذلك الكنز الذى تبعثر عام ١٠٦٢ ودمر القسم الاكبر منه. وفى ذلك العهد، عندما كان الامبراطور هاينرش الرابع جالساً على العرش، كانت اوروبا قد فقدت ثانية القدرة على قطع الزجاج والبلور قطعاً فنياً، تلك القدرة التى استحوذت عليها لفترة قصيرة تحت حكم الكارولينجيين. ولذا فليس من العجب فى شىء أن رحب الانسان الوسيطى بهذه الأوعية الزجاجية كرمز للطهارة المسيحية بسبب صفائها الشفاف. وفوق ذلك فقد اعتبرت، كتحف غريبة نادرة، على جانب عظيم من النفاسة بحيث لم يكن فى وسع أحد الحصول عليها سوى الامراء من عشاق الفن.

وهذا ما تخبرنا به التسمية «كأس هيدفيج» التى يحملها قدحنا وكذلك اثنا عشر قدحاً آخر من نوعه مازالت محفوظة للآن. وأغلب هذه، بخلاف كأسنا — كأس كوبورغ الزخرفى الخالص — مزينة حسب اصول فنية صارمة بالأسود والنسور والعقبان. وقد اعطى واحد من هذه الكئوس، تقول الأحاديث المتوارثة إنه كان يخص فى الأصل القديسة هيدفيج، دوقة سيليسيا، وحفظ اخيراً فى متحف بريسلاو للأثريات والحرف الفنية، لقد اعطى هذه التسمية للمجموعة كلها. ويتصل كأس هيدفيج البرسلاوى هذا اتصالا وثيقاً بأسطورة القديسة التى تقول انها كانت تعيش فى تنسك شديد، مما كان يبعث الكآبة فى نفس بعلها، إذ كانت تفضل الماء على الخمر. وعندما فحص الدوق ذات يوم وعلى غير انتظار محتوى الكأس، استحال الماء إلى خمر، مثيراً دهشة قصوى. ويتألف الحفر البارز لهذا الكأس ذى اللون الياقوتى الأصفر المدخن من أسدين غاضبين إلى جانب درع بشكل القدح تحت نجم وهلال. وفى القرن الخامس عشر اضيفت إليه قاعدة فضية فوق ملائكة ثلاثة ساجدين، بحيث أصبح معناه الدينى جلياً لأبسط الأذهان.

ومن كئوس هيدفيج الثلاثة عشر جاءت خمسة من ممتلكات أميرية، وستة، منها ما جاء من خزائن التحف الكنائسية، ومنها مالا يزال محفوظاً فيها. أما أغنى هذه الكئوس التجريدية الزخرفة جميعاً وأقواها أثراً فهو كأسنا المحفوظ فى كوبورغ. ففى قسمه السفلى نشاهد هياكل أفعوية صارمة فوق كل منها هيكل على هيئة قلب فى جناحه الأعلى عقد بارزة تستوقف النظر بشكلها الذى يشبه العيون المحملقة. وهناك جيوب قطرية داخلية، واخرى تشبه الأسهم خارجية تكسب هذه الهياكل حيوية وتشكل إطاراً لجدار الكأس، الذى يتميز فى الأعلى عن إطار الفم الأملس بنتوءات على شكل عقد ودعائم، ويتميز فى الأسفل بأخدود أملس عن ثمانية أوتاد خاصة بقرص القاعدة تبرز فى اتجاه افقى.

ويحق لنا كثيراً أن ندعو هذا الكأس الكوبورغى «بكأس اليزابت»، إذ هناك اسباب وجيهة تدعو إلى الاعتقاد بوجود علاقة له باليزابت، دوقة تورنجن وابنة أخ هيدفيج السيليسية، وقد ماتت عام ١٢٣١ عن أربعة وعشرين عاماً.

وحين كان الامراء والعظماء يعودون من الحملات الصليبية بتحف قيمة من الأراضى المقدسة أو إيطاليا وكانوا يقدمونها عاجلا أو آجلا لخزائن التحف الكنائسية، حيث نجا أغلب كئوس مجموعتنا من التلف، فكم كان بالحرى أن ينتقل كأس اليزابت التى اعلنت قديسة على إثر وفاتها إلى مثل هذه الخزائن مع مخلفاتها التذكارية. وكان الزجاج فوق ذلك مادة مثالية لهذا الغرض. وحتى

كأس هيدفج، ارتفاعها ١٠٫٣ سم
مجموعة فسته كوبورج للتحف الفنية

حين كان يقفل عليه ويختم لضمان حفظه وسلامته، فقد كان بوسع كل شخص أن يقتنع بنوعية وشكل محتواه. ولذا فلا عجب إذن أن يوجد هذا الكأس فى اوائل القرن السادس عشر مع مخلفات القديسة اليزابت الأثرية فى كنز الأثريات المقدسة للأمير الناخب السكسونى فريدريش الحكيم فى ڤتنبرغ، كما يؤيد ذلك رسم مخطوط فى أرشيف ڤايمار. ورغم أنه لم تثبت صحة الافتراض بأنه كان لفترة طويلة قبل ذلك محفوظاً فى دير اليزابت الفرنسسكانى تحت حصن ڤارتبورغ، المقر الاميرى للدوقة اليزابت التورينجنية، غير أنه كان كثيراً ما يعار لأميرات قريبات أو صديقات كمصدر للبركة ولتخفيف عمليات الولادة.

وبتأثير الإصلاح الدينى تزعزع الايمان الساذج بالقوة المعجزة للقديسة وكأسها. وبعد ذلك بعشرات السنين، فى عام ١٥٤١، شاهده القس يوهان ماتيسيوس عندما كان مع غيره ضيفاً على لوثر فى ڤتنبرغ. وفى مواعظه التى نشرت فيما بعد وصف بدقة كيف «كان لوثر مبتهجاً حين وضع على المائدة كأساً كانت القديسة اليزابت تريه لأهل ڤتنبرغ للشفاء فى قصرها». ولعل

الأمير الناخب أو خليفته من بعده قدم للوثر هذا الكأس، كما كانا وغيرهما من السادة يهدونه كئوساً ثمينة من الفضة أو الزجاج أو الخشب المعرق، التي لا يزال يرى كثير منها في مجموعات دريسدن ونورنبرغ وبازل.

يالها من طرق محفوفة بالمغامرات تلك التي مر بها هذا الكأس الزجاجي دون أن يمسه الأذى عبر مايقارب الألف عام. وكان قد نشأ في القرن الحادي عشر في العالم الإسلامي. وبالسحر المنبعث من الغرابة الاسطورية لمنبته الأصلي ومن كمال صناعته اليدوية تلقفه الغرب الذي كان قد اتصل بالشرق أثناء الحروب الصليبية بصلات متنوعة، واسبغ عليه بالتدريج سحر الرمزية المسيحية الجديدة وقوة الشفاء السحرية المعجزة. وكغيره من الأعمال الفنية الإسلامية التي وصلت بلادنا آنذاك فقد بث حوله بفضل دقة تشكيله المجردة قوة فنية مؤثرة مباشرة. وأفضل مثل لاقتفاء هذا الأثر النافذ تقدمه أواني الصب البرونزية الألمانية التي تحمل هياكل الأسود والتي لا يمكن تعليلها أو فهمها دون النماذج الفاطمية كالأسد الموجود في متحف كاسل. وقد ارادت الصدفة أن يحفظ في مجموعة تحف حصن ڤارتبورغ اسد ألماني جنوبي مصبوب من القرن الثاني عشر. ومن الخصائص المميزة لذروة العصر الوسيطي الألماني بالذات النصب التذكارية المماثلة لكاتدرائية هالبرشتات.

ففي مستودعة الكنائسي عثر عام ١٨٢٠ على كأس هيدڤيج حفرت فيه أسود تشبه أسود كأس بريسلاو. وفي خزانة تحف كاتدرائية هالبرشتات يوجد كأس هيدڤيج آخر محفور بصورة مجردة وكان قد رفع في القرن الرابع عشر ككأس العشاء الرباني على قاعدة فضية مذهبة وغطي لوقايته بغطاء برجي، كما يوجد أيضاً هيكل مصري من هياكل الشطرنج مقطوع من البلور الجبلي، مع زجاجة مكورة من المادة نفسها حفر فوقها سعف نخيل طلي بذهب محلي من فترة تسبق القرن الثاني عشر بقليل.
إن مدى تقدير هذه التحف الشرقية النادرة خلال العصر الوسيط كله، وكذلك مدى تأثيرها المبكر على صناعاتنا اليدوية الداخلية يتضح من هذه المجموعة التي حفظت برعاية خاصة.

وبعد عام ١٥٤١ دخل كأسنا لمدة ثلاثة قرون ونصف القرن عالم النسيان، ولم يخرج إلى النور من جديد إلا باكتشافه العلمي في مجموعة فسته كوبورغ عام ١٩١٢.

وسواء أتناول اعجابنا عند مشاهدة الكأس صرامته الشكلية المجردة الخالدة، والعناية والثقة في الصناعة اليدوية، والجرأة الواضحة في تشكيله، أم اعتبرناه ونحن نفكر بنفوذه السحري الوسيطي هيكلا ثميناً نادراً لماض بعيد، فاننا سنظل نتأثر بالمضمون التاريخي الذي ارتبط بهذا الكأس.

وكابداع كامل خلقته يد زجاج مسلم مجهول، ظل كأسنا يشغل عقول عدد لا يحصى من البشر طيلة قرون عديدة، لكي يسحر أخيراً — في كامل تكوينه المنوع — لب الناظر الحديث أيضاً.

مؤلف المقال: الدكتور هاينريش كولهاوسن

ترجمة: محمد على حشيشو

*

الراح قبل الراح كالمصباح في
فرط شعاع والتهاب وضياء
يحسبها الناظر لاتحادها
بكأسها قائمة بلا إناء

Der Morgenwein gleicht einer Lampe in
Leuchten und Glanz und Strahlens Übermaß:
Wer ihn erblickt, glaubt — weil er so geeint
Mit dem Gefäß —, er schwebe ohne Glas!

مشمولة كشعاع الشمس في قدح
مثل السراب يرى من رقه شبحا
اذا تعاطيتها لم تدر من لطف
راحا بلا قدح عاطاك ام قدحا

Gleich Sonnenlicht ein Wein, gekühlt, in einem Becher
So zart, als sei er nur Luftspieglung, trügend Schein:
Nimmst du ihn, weißt du nicht (denn allzufein ist es —):
Gab Wein man ohne Glas? Gab Glas man ohne Wein?

Erglänzen vom Wein die Pokale?
Sind's Wolken im Sonnenglanzstrahle?
So rein sind und zart Wein und Gläser,
daß eins scheinen Trank dir und Schale.
Ist alles denn Glas, ist der Wein nichts?
Ist's Wein, der das Glas überstrahle?
Wenn Sonne die Lüfte erfüllet,
verschmelzen der Glanz und das Fahle,
versöhnen der Tag und die Nacht sich,
daß Ordnung der Welt nun erstrahle.
Kannst Nacht nicht und Tag unterscheiden,
noch Wein oder Becher beim Mahle!
Begreife durch Wein und durch Becher
das Wasser des Lebens im Tale!
Enthüllung der Schleier des Wissens,
wie Nacht sich und Taglicht dir male!
Wird dies aus dem Wort dir nicht deutlich
vom Anfang zum anderen Male,
so suche das Welt-Glas — dann klärt sich
dem Geist dieses Rätsel im Strahle:
Daß Er alles ist, was besteht —
Freund, Herz, Seele, Glaube, Gebet!

اکئوس تلألأت بمدام
ام شموس تهللت بغمام
از صفای می ولطافت جام
درهم آمیخت رنگ جام ومدام
همه جام است ونیست گویی می
یا مدامست ونیست گویی جام
چون هوا رنگ آفتاب گرفت
هر دو یکسان شدند نور وظلام
روز وشب باهم آشتی کردند
کار عالم از آن گرفت نظام
گر ندانی که این چه روزوشبست
یا کدام است جام وباده کدام
سریان حیات در عالم
چون می وجام فهم کن تو مدام
انکشاف حجاب علم یقین
چون شب وروز فرض کن وسلام
ور نشد این بیان ترا روشن
جمله ز آغاز کار تا انجام
جام گیتی نمای را بکف آر
تا ببینی بچشم دوست مدام
که همه اوست هرچه هست یقین
جان وجانان ودلبر ودل ودین

كأس، يبلغ ارتفاعها ١١،٥ سم ،وهى من الزجاج الأشهب، مزخرفة برسوم ذهبية و ألوان الميناء. موطنها سوريا (حلب)، اواسط القرن الثالث عشر. وكان هذا النوع من الكؤوس معروفا فى اوروبا باسم Glück von Edenhall إذ أن أحدها مرتبط – على ما تقول الأساطير – بسعادة أحد العائلات العريقة فى إنجلترا، وهى أسرة «ادنهال» التى كانت قد استحضرت تلك الكأس من بلاد الشرق، فإذا ما تحطمت، تحطمت العائلة وسعادتها... وقد ألف الشاعر الألمانى «لودفيج أولاند» فى القرن الماضى قصيدة طويلة تدور حول هذا الموضوع.

هذه الكأس محفوظة فى متحف Kunstgewerbemuseum Köln بكولونيا، ونشكر ادارة المتحف لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

فن الإنسان في ابداع الزجاج

ذكر القرآن فى سورة النمل أن سليمان النبى كان له «صراح من قوارير» مشيرا الى ما لهذه المادة من قيمة وندرة، ثم عاد فبين فى آية النور نفاسة الزجاج بقوله: «الله نور السموات والارض، مثل نوره كمشكوة فيها مصباح، المصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درى ....»

إن هاتين الآيتين لدليل واضح على اهمية الزجاج فى حضارة الشرق منذ أقدم العصور. ولقد كانت صنعة الزجاج معروفة فى مصر فى دولة الأسرة السادسة، اى حوالى ٢٥٠٠ ق‌م. ويعتقد العلماء ان الانسان عثر فى زمن ما على الزجاج البركانى الذى يوجد فى حمم البراكين، فجلب اهتمامه، ولم يلبث ان جرب مختلف الطرق الفنية حتى ابدع زجاجا غليظا صنع منه الخرز والزخارف الدقيقة، ثم تطورت هذه الصنعة حى اننا نعثر فى القرن السادس عشر ق‌م، على أوان زجاجية فى مقابر قدماء المصريين. أما المركز الثانى للحضارات القديمة فهو العراق حيث أوجده أرباب الصناعات هناك، بعد المصريين بعصور عدة، حوالى عام ٢٠٠٠ ق‌م، وإن كان لهم الفضل فى ابتكار الزجاج الشفاف البراق لأول مرة. يأتى بعد ذلك اهل الشام، ومن المحتمل أن يكون الصناع قبيل الميلاد قد استخدموا طريقة نفخ الزجاج فى أشكال مختلفة، وبذا كانوا أول من استعان بالطرق الفنية التى تستعمل اليوم لصناعة زجاج خاص للأغراض العلمية او للأهداف الجمالية الخالصة كأنتاج زجاج ذى رقة خاصة قابل لأظرف الأشكال. وقد سبق ان صنع كذلك – خاصة فى الاسكندرية – صنف معين من الزجاج بالفسيفساء الذى تبدو فيه انواع الأزهار والزخارف المشكلة بتركيب قضبان رقيقة من الزجاج المصبوغ فوق بعضها البعض.

وكانت الامبراطورية الرومانية وقد ورثت صنعة الزجاج من الشرق القديم، وصار أحد مراكز هذه الصنعة خارج الشرق الأدنى فى مدينة كولونيا فى ألمانيا التى اشتهرت بزجاجها القيم، ومنه الزجاج الشبكى الذى تحيط بجسم الكأس الزجاجى شبكة من الزجاج مقطوعة من أصل الكأس وان بدا وكأنها أضيفت مستقلة فيما بعد.

اما فى القرون الوسطى فكان هناك ثلاثة مراكز لصناعة الزجاج، أحدها بلاد الصين حيث كان يصنع الزجاج الغليظ المنحوت فيه الزخارف والذى يشبه الأحجار او البلور المنحوت. أما المركز الثانى فكان اوروبا التى تفنن صناعها فى إعداد الزجاج الملون لنوافذ الكنائس التى لا تزال بهجة الأنظار حتى يومنا هذا. ثم يأتى المركز الثالث وهو الأكثر أهمية، الا وهو البلاد الاسلامية. وتحكى كتب التاريخ عن الآوانى البلورية والكؤوس الزجاجية المشابهة للبلور المسماة «بالمحكم» وقد صنع هذا النوع من الزجاج غير الملون فى بغداد على وجه الخصوص، كما سمى الزجاج الرقيق، المقطوعة فيه زخارف بواسطة عجلة معدنية صغيرة «بالبغدادى». وهنالك تجد ايضا الزجاج «المجرى بالذهب» و الزجاج المذهب، ثم المجرد المجرود البراق و «الأذرك» اى الياقوتى اللون المختلط بقليل من الذهب، وحتى صنف الزجاج المضاف الى خامته قليل من الرصاص. ويعجز اللسان عن وصف تلك الزهريات والصحون والقنينات و الأكواب ، والقماقم والأباريق بألوانها المتباينة من زرقاء وحمراء وصفراء وخضراء وسوداء و رمانية، و بزخارفها المنقوشة او المنحوتة او بطلائها المعدنى.

وقد بالغ شعراء الدولة العباسية فى وصف هذه الكؤوس البراقة الشفافة، ومن ذلك قول ابن المعتز:

ومدامة يكسو الزجاج شعاعها
كالخيط من ذهب إذا ما سُلت

وكانت هذه الآوانى مشهورة فى الدنيا بأجمعها حتى ان الباحثين قد عثروا على قطع منها فى قبور اسوج القديمة. ولاتقل صناعة الزجاج لدى الخلفاء الفاطميين فى مصر عنها لدى بنى العباس حتى انها تفوقها أحيانا كما وكيفا. و بعد تدمير خزينة الفاطميين انتقل قسم من تلك الآوانى القيمة الى الغرب ومازال بعضهم محفوظا فى خزائن الكنائس او فى المتاحف.

اما بعد تخريب بغداد فتمركزت صناعة الزجاج فى الشرق فى حلب ودمشق، ومن هنا جاءت هذه الصنعة الى البندقية التى صارت مركزا جديدا لصناعة الزجاج الرقيق

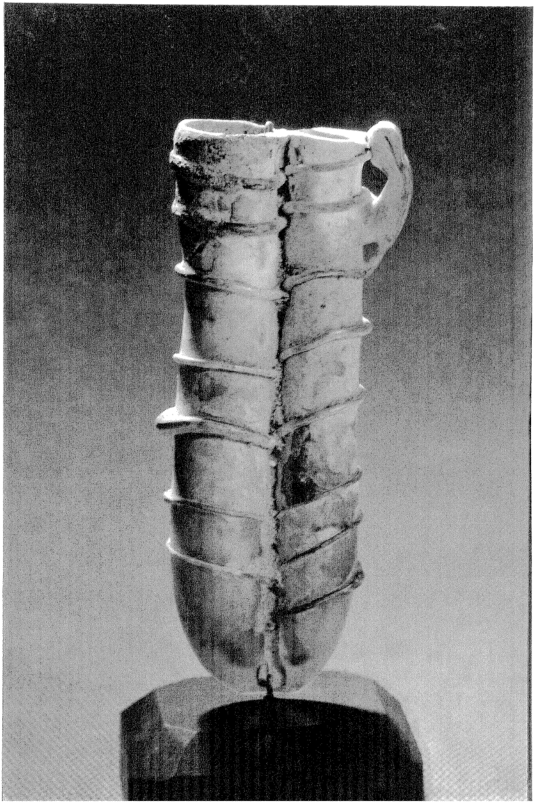

الكأس ذات الشكل التوأم تستخدم فى حفظ الزيت العطرى ،وهى منصوعة فى سوريا أثناء القرن الرابع. عن كتاب : Ullstein Gläserbuch

كئوس من الزجاج غير الشفاف عليها زخارف بخيطان زجاجية ملونة؛ صنعت فى مصر القديمة، و على احداها اسم فرعون «توت موسه» (١٥٠١ الى ١٤٤٧ ق م)
أوان لحفظ الزيت العطرى من الزجاج الملون، صنعت فى سوريا او الاسكندرية فى القرن الثانى للميلاد. و هى محفوظة الآن فى مجموعة خاصة.
عن كتاب: .Frederic Neuburg, Antikes Glas, Eduard Roether Verlag, Darmstadt 1962
نشكر دار نشر ادوارد روتر لاعارتها كنا كليشيهات هاتين اللوحتين.

قارورتان من الزجاج الغليظ غير الملون، عليهما صور بالذهب وألوان الميناء ، وهما مصنوعتان فى الهند (القرن الثامن عشر) وارتفاع الأولى ١٠ سم
والثانية ١٣٫٥ سم. عن كتاب : Ullstein Gläserbuch

المزخرف بالألوان الميناثية. ثم انتشرت هذه الصنعة فى الغرب كله، مع اختلاف التكنيك الفنى المستعمل فى مختلف المصانع، سواء كان «زجاج الغابات» الاخضر الغليظ المستخرج فى المصانع فى غابات ألمانيا، او كان زجاج المرآة الذى اختصت به فرنسا، كما ابدع صناع هولاندا صنعة نقش الزجاج بالماس على اظرف صورة، وفى بوهميا اضاف اهل الحرفة قليلا من الطباشير الى الزجاج الخام لكى يزداد بريقا، وقد ابتكر صانع آخر فى «بوتسدام» الزجاج الياقوتى الملون بالذهب ... وكانت لكل ناحية خصائص فى التكنيك وفى الأشكال، ولم تخل اى قطر فى المعمورة — ما بين الصين و امريكا — من مصانع الزجاج فى القرن الثامن عشر.

اما البحث العلمى عن ماهية الزجاج فلم يستهل الا منذ عهد قريب مع ان القدماء كانوا قد خلفوا الكثير من الملاحظات حول ماهية هذه المادة الشفافة المشابهة للبلور. ويقول الباحثون ان ليس للزجاج شبكة منتظمة الذرات كما هو الحال فى البلورات الحقيقية وانما هو غير منتظم الذرات وكأن المادة تجمدت بسرعة. ويمكن اليوم للباحث الذى يعلم مختلف المواد الخامة المستعملة فى إحضار نوع معين من الزجاج ان يتنبأ بصفات الزجاج قبل انتاجه، الأمر الذى يسهل إحضار الزجاج الصناعى.

اما صنعة الزجاج عند القدماء وانواع تكنيكهم فمجهولة حتى الآن وإن استطعنا ان نتصورها على وجه التقريب. ولكنه ليس فى امكاننا الوقوف على كل تفاصيل تلك الصنعة القديمة التى نشأت فى الشرق منذ اكثر من ٤٥٠٠ سنة، فلنكتف بالتعجب من قدرة الانسان على ابداع هذه الآثار البهيجة.

من اراد معرفة المزيد من المعلومات القيمة عن تاريخ الزجاج فى الشرق والغرب فليقرأ كتاب
Gustav Weiss, Ullstein Gläserbuch, 336 Seiten mit 300 Photos, 16 Farbtafeln, 29 Zeichnungen, Typen- und Signaturtafeln Berlin 1966.

نشكر دار نشر اولشتاين لإعارتها لنا كليشيهات ثلاث لوحات.

قال ابن الرومى فى كأس

BESCHREIBUNG EINES GLÄSERNEN BECHERS VON IBN AR-RŪMĪ

Ein Köstlicher, der alle Sinne fesselt
und jedes Auge unversehens bannt,
An Schönheit und an Anmut so bezaubernd,
kein Preisender gebührend Lob ihm fand,
So lauter und so licht gleich einem Lufthauch,
der frei von Staub sich mit dem Licht verband;
Mittleren Maßes: läßt nicht haltlos schütten,
noch läßt er nippen an zu schmalem Rand;
Nicht töricht die Vernunft zu früh bedrängend,
die er durch Langmut standhaft überwand.
Noch nie sah'n die Betrachter Wuchs und Rundung
reitend wie er im Rücken einer Hand.
Skorpionengleiches Ornament verziert ihn,
das weiser Schmiede Arm in Bögen wand,
In Bögen wie die Locken auf den Wangen
von einem Reh, durch Mund und Blick bekannt.

Deutsch von Christoph Bürgel

(عن كتاب التشبيهات، صححها معيد خان، لندن ١٩٥٠، ص ١٨٩)

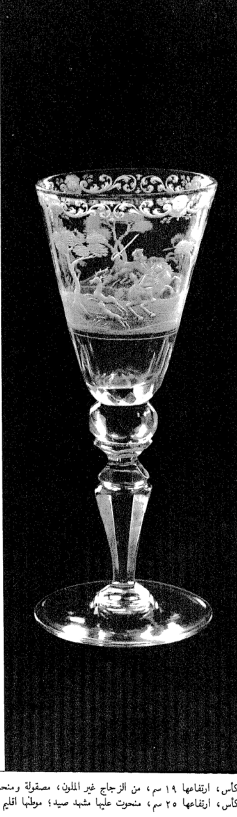

كأس، ارتفاعها ١٩ سم، من الزجاج غير الملون، مصقولة ومنحوتة، منقوش عليها منظر لصيد الأيل. موطنها اقليم ساكسونيا، حوالى عام ١٧٤٠.
كأس، ارتفاعها ٢٥ سم، منحوت عليها مشهد صيد؛ موطنها اقليم تورنجيا . حوالى سنة ١٧٣٥.

كأس ذات غطاء، ارتفاعها ٣٠،٢ سم، من الزجاج الأذرك (الملون بالذهب) ،منحوتة فيها اشكال اطفال حاملة الفواكه. من صنع جوتفريد شبيلر ببرلين، حوالى عام ١٧١٠.
عن كتاب : Ullstein Gläserbuch

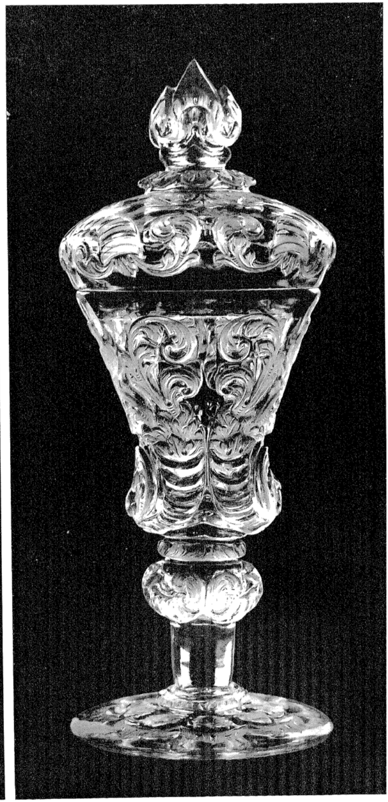

كأس ذات غطاء، ارتفاعها ٢٨ سم، من الزجاج الغليظ غير الملون، منحوتة عليها زخارف كلاسيكية. موطنها مدينة هرمسدورف باقليم سيلسيا، من صنع فريدريش ڤينتر، اواخر القرن السابع عشر.

كأس، ارتفاعها ٢٠,٥ سم، من الزجاج الغليظ غير الملون، عليها زخارف نحتت بطرق فنية مختلفة. موطنها سيلسيا، من صنع فريدريش ڤينتر، حوالى عام ١٧٠٠.

الصور على ص ٣٠ و ٣٢ مأخوذة. عن كتاب : Glassammlung Helfried Krug. Beschreibender Katalog mit kunstgeschichtlicher Einführung von Brigitte Klesse. Verlag Lambert Müller GmbH, München 1966.

ورقة من تاريخ الاستشراق فى ألمانيا:

تيودور نولدكه

عن اينو ليتمان

ولد المستشرق إينو ليتمان فى أولدنبورج فى ١٨٧٥/٩/١٦ ودرس فى جامعات برلين وهاله وجرايفزفالد وستراسبورغ. بدأ حياته التدريسية كمحاضر للغات الشرقية فى جامعة برنستون فى الولايات المتحدة؛ ثم اشتغل كأستاذ للغات الشرقية فى جامعة ستراسبورغ عام ١٩٠٦، وفى جامعة جوتنجن عام ١٩١٤، وبون عام ١٩١٦، وأخيراً فى توبنجن من ١٩٢١ إلى ١٩٥١. وقد كان عضواً فى بعثات الآثار الامريكية إلى سوريا والحبشة وآسيا الصغرى؛ كما ترأس البعثة الأثرية الألمانية إلى الحبشة. ومن أهم مؤلفاته: «حول تفسير النقوش الثمودية (١٩٠٤)». و«تاريخ الأدب الاثيوبى (١٩٠٧)»؛ «مطبوعات حملة برنستون الاستكشافية إلى الحبشة» فى اربعة أجزاء (١٩١٠ — ١٩١٥)؛ «الكلمات الشرقية فى اللغة الألمانية» (١٩٢٠ و١٩٢٤)؛ «أول ترجمة كاملة لألف ليلة وليلة بالألمانية» فى ستة أجزاء (١٩٢١ — ١٩٢٨ و١٩٥٢/١٩٥٤).

رغم الهدوء الذى كان يسود بوجه عام مجرى حياة المستشرق العظيم تيودور نولدكه، إلا أن مكاسبه العلمية وقوة نفوذه طبعت حقل الاستشراق بكامله خلال السبعين عاماً الأخيرة(١) بطابع شخصيته المؤثرة، ولولاه لما أمكن تصور أى تطور لهذا العلم.

ولد نولدكه فى الثانى من آذار (مارس) عام ١٨٣٦ فى مدينة هامبورج، حيث كان والده آنذاك عميداً للمعهد الثانوى المتوسط. وقد خلدت المدينة ذكره بتنصيبه مواطناً فخرياً وبتسمية شارع باسمه يوم عيد ميلاده التسعين.

وأسرة نولدكه واسعة الانتشار فى شمالى غربى ألمانيا، ويعود أصلها عبر عدة قرون إلى أحد وجهاء مدينة هلدسهايم، كان يعيش فى بداية القرن السادس عشر. وقد برز من عائلة نولدكه هذه عدد كبير من رجال الدين والمعلمين والموظفين. وقد كان العميد نولدكه فى هاربورج موظفاً أميناً كذلك، وكان بالنسبة لابنه مثالا للتفانى فى أداء الواجب، كما أيقظ فيه، كعالم للغات القديمة، حب علوم الأوائل، ذلك الحب الذى لازم الابن طيلة حياته. وكان نولدكه فى مطلع حياته صبياً ضعيفاً؛ ورغم أنه كان يشترك فى الألعاب الرياضية لفتية هاربورج، ويتحدث بلهجتهم، غير أن اشتراكه فى ذلك لم يتسم بالحيوية والقوة الكافية. وقد عوض عما كان يفتقر إليه من حرارة الاختلاط وعمق الاحتكاك الشخصى بالبيئة المحيطة به بقوة الملاحظة والانتباه. وكانت النظرية منذ حداثة سنه تحتل مكان العمل إلى حد بعيد. ولكن هذه النظرية لم تكن وهمية غريبة عن العالم، ولم تكن محدودة الافق. وبقراءة كتب الرحلات عن الشرق ودراسة الآداب الشرقية، تعرف نولدكه فى سن مبكرة على شعوب الشرق الأدنى أفضل من كثيرين ممن عاشوا الأعوام الطوال هناك. وكان يفتقر إلى الجانب العملى فى اللغات أيضاً؛ فلم يتح له إلا تعلم التكلم قليلا بالتركية فى ڤينا، كما كان فى لايدن يجيد التكلم بالهولندية. غير أن اللغات التى كان يتناولها بأبحاثه العلمية كانت أقرب إليه منها إلى أى شخص آخر من زملائه المختصين. وفى الخامسة عشرة من عمره اضطر الى التوقف عن الدراسة مدة ربع عام لاصابته بفقر فى الدم. وعندها انكب على دراسة العبرية بمفرده حتى توصل بعدها إلى اعفائه من مادة اللغة العبرية المدرسية. وكانت دراسته الرئيسية فى المدرسة تشتمل على اللغات القديمة التى راح يدرسها باجتهاد تحت اشراف والده فى هاربورج، وكذلك فى لنكن، حيث نقل هذا عام ١٨٤٩. وفى خريف عام ١٨٥٣ التحق بجامعة جوتنجن ليصبح مستشرقاً، على حد قول أبيه. أما هو فقد كان ينوى دراسة اللغات القديمة والشرقية. غير أن شخصية الاستاذ إيڤالد(٢) الجبارة، وقد كان صديقاً لوالده، استحوذت عليه كلياً لدراسة الاستشراق وحده. وقد ظل مديناً لأستاذه طيلة

حياته، رغم أنه اضطر فيمابعد إلى الانفصال عنه شخصياً؛ وقد أدرك أن تأثير ايفالد الرئيسى كان يكمن فى أنه كان كأستاذ يطلب من تلاميذه اكثر بكثير مما يقدرون عليه، بحيث كان بذلك يجبرهم على العمل الشديد والتفكير الحاد. وبالإضافة إلى اللغات السامية فقد انكب على دراسة الفارسية والتركية، ثم تعلم السنسكريتية باشراف الاستاذ بنفاي[٣].

وفى عام ١٨٥٦ ظهر أول مؤلف لنولدكه. فقد تمكن من الفوز بالمسابقة العلمية للكلية، فطبع مؤلفه واعتبر فى الوقت نفسه اطروحة الدكتوراه بحيث نال فى اغسطس من العام نفسه هذه الدرجة العلمية. أما عنوان المؤلف باللاتينية فهو: "De origine et compositione Surarum qoranicarum ipsiusque Qorani" وترجمة ذلك بالعربية: «حول نشوء وتركيب السور القرآنية». أما نولدكه نفسه فقد دعا مؤلفه نتاج فتوة لا يتسم بالنضوج، وسر أنه تمكن من تخطيه بامتياز فى كتابه «تاريخ القرآن» الذى نشر عام ١٨٦٠. وقد كانت الفترة الواقعة بين ١٨٥٦ و١٨٦٠ أعوام «تجواله وترحاله». فقد اتجه اولا إلى فيينا للتعرف على مخطوطات المكتبة الملكية هناك، ماراً بمدينة لايبزج، حيث زار استاذ علوم اللغة العربية الشهير فلايشر[٤]. وكانت تساوره سراً فكرة الانتقال من هناك إلى الشرق؛ غير أن هذه الرغبة لم تتحقق، وطالما اعتراه الندم على عدم تمكنه من التعرف إلى الشرق بنفسه وبأم عينيه. وفى خريف ١٨٥٧ انتقل إلى لايدن حيث قضى شهوراً بهيجة فى العمل المجد على المخطوطات العربية الموجودة هناك فى حلقة من الزملاء المختصين الشباب. وعقد آنذاك اواصر صداقة عميقة مع ميشائيل يان دى خويه[٥]، المستشرق الهولندى العظيم. وفى تلك الأثناء أقامت اكاديمية المخطوطات الباريسية مسابقة موضوعها تاريخ القرآن. وكان نولدكه المرشح المناسب للفوز بهذه المهمة، وبالفعل فانه لم يفوت الفرصة، بل غادر لايدن قبل الموعد الذى كان مقرراً، ليدرس فى غوتا وبرلين مخطوطات كانت مهمة بالنسبة لعمله. وفى ربيع ١٨٥٨ جاء برلين وأتم فيها كتابة بحث المسابقة. ثم أرسل المخطوط باللغة اللاتينية إلى باريس، حيث كان قد وصل مخطوطان آخران كتبهما عالمان معروفان هما: الألمانى شپرنجر[٦] والايطالى أمارى[٧]. وما كان من الأكاديمية إلا أن ضاعفت الجائزة ووزعت المبلغ بالتساوى على الفائزين الثلاثة. وهكذا كان الشاب الذى لم يتجاوز سنه الاثنين والعشرين عاماً قد حل مسابقتين علميتين، كما فاز فى الثانية على صعيد واحد مع اثنين من رجال العلم البارزين كانا اكبر منه سناً. وبعد ذلك عمل على اتمام ترجمة ألمانية لكتابه الفائز أصدرها عام ١٨٦٠، وهى الكتاب الشهير الذى اشرنا إليه سابقاً: «تاريخ القرآن»، وهو أول مؤلفاته العظيمة الكثيرة. وبه دل على طريق البحث العلمى الصحيح فى الدراسات القرآنية. وقد أظهر هذا الكتاب مبكراً جميع خصائص طريقة نولدكه فى البحث؛ معرفة شاملة على أساس بحث أمين فى جميع التفاصيل، وحكم واضح دقيق يرد كل ما هو مشكوك فيه ويرفض مالا يقبل الاحتمال. وبطبيعة الحال فكان مما لابد منه أن تسبب طريقته هذه تنافراً بينه وبين استاذه إيفالد، الذى كان رغم علمه وعبقريته، عاتياً متسلطاً شديد التعصب والايمان بنفسه، وهو استاذه الذى كرس له هذا الكتاب بالذات فى كلمة الاهداء. ثم مكث نولدكه عاماً ونصف العام فى برلين كمساعد فى المكتبة. وفى هذه الفترة تصادق مع عدد من العلماء والباحثين المسنين، كان لهم أثر طيب فى تعريفه بحقول جديدة من العلم والمعرفة. ولكن عندما وجه إليه مدير المكتبة عام ١٨٦٠ طلباً جائراً مس كرامته وحريته الشخصية، عزم بسرعة على الاستقالة وغادر عمله بعد أن وجه رسالة تنبض بالرجولة إلى رئيسه. وعلى أثر ذلك مضى إلى إيطاليا لمدة ربع عام، وساعده على تحقيق هذه الرحلة عم طيب غنى.

وقد كتب عن أعماله وتجاربه وانطباعاته أثناء «أعوام ترحاله» بالتفصيل فى رسائله إلى استاذه إيفالد. وفى هذه الرسائل يحتل العلم المكان الأول، ولكنها لا تخلو كذلك من اهتمامه الحيوى بالأحداث العالمية. وفى بداية كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٨٦٠ عاد نولدكه إلى جوتنجن وأصبح فوراً مساعداً فى المكتبة. وفى ربيع ١٨٦١ قدم اطروحة الكفاءة التدريسية الجامعية وأصبح محاضراً خاصاً للغات السامية. وتخلى عن منصبه فى المكتبة بعد عام ونصف العام من جديد، إذ كان عمله فيها يعيقه كثيراً عن ابحاثه ودراساته العلمية. واهتم خلال تلك الفترة بالدرجة الأولى بالشعر العربى وباللغة التركية التى تعمق فى دراسة لهجاتها وبرع فيها.

وفى ربيع ١٨٦٤ استدعى إلى جامعة كيل ليخلف الاستاذ ديلمان[٨]. وظل هناك أربعة أعوام كأستاذ غير نظامى، ثم أربعة أعوام ونصف العام كأستاذ نظامى عام. وقد كان الاستدعاء إلى كيل، كما اعتقد نولدكه نفسه، الداعى الاول إلى خصومة لاگارد[٩]، الذى كان يعيش كأستاذ آنذاك فى ظروف بائسة جداً، والذى كان يأمل فى الحصول

على كرسي الاستاذية في كيل. ولكن نولدكه لم يدعه يعاني طويلا من أجل ذلك، فحين أصبح منصب الاستاذ إيڤالد شاغراً عام ١٨٦٩، ورغم أنه كان يود أن يكون خليفة استاذه في منصبه العلمي، إلا أنه كتب إلى جوتنجن قائلا: إنه لا يعرف أحداً يرغب في التخلي من أجله عن منصب إيڤالد الشاغر أفضل من لاگارد، الذي يعتبره واحداً من أنبغ المستشرقين وأمتن العاملين خلقاً. حقاً، لقد كان محزناً ذلك القدر الذي كان يبعد شخصياً أولئك العظماء الثلاثة: إيڤالد ولاگارد ونولدكه، الواحد منهم عن الآخر. ومن المسلم به أن طبائعهم كانت متباينة جداً. إذ لم يكن إيڤالد ليحتمل أية معارضة، وكان يعتبر الآراء التي تختلف عن آرائه وكأنها أخطاء خلقية؛ أما نولدكه فكان يؤمن بحق الرأي الحر لكل إنسان، وكان يناقش الجميع بتجرد وموضوعية. وبينما كان لاگارد رومانتيكياً، كان نولدكه، كما كان يقول بنفسه، عقلانياً. وكثيراً ما كان ايڤالد ولاگارد ينساقان بطريقتهما العاطفية إلى إصدار أحكام جائرة. أما نولدكه فقد كان في القضايا العلمية مفعماً بروح العدل المجردة من العاطفة. وفي الرابع من تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٦٩ بعث برسالة وداعية إلى إيڤالد، بعد أن سبق لهذا أن تعدى عليه عدة مرات بالكلام القاسي. وقد كانت رسالة قصيرة، وجيهة، حازمة، وقد أعرب فيها عن امتنانه واحترامه الدائم لاستاذه بأسلوب يملك الحواس. وكان نولدكه قبل ذلك قد تعرض بالتفصيل إلى وضعه مع إيڤالد في رسائل إلى صديقه الأبوي ڤيزلر(١٠)، دون أن يفقد في أي منها اسلوبه الواضح وروحه الموضوعية. وكان لاگارد يهاجم نولدكه كثيراً في مؤلفاته، هجوماً علمياً وشخصياً. ويختتم نولدكه دفاعه في وجه هذه الهجمات بالكلمات التالية:

«أما أن أجيب على اتهامي بالتجني المقصود على الحق، فهذا ما لا تقبل به كبريائي».

وفي الفترة التي قضاها في كيل اهتم نولدكه بالعهد القديم، الذي كان عليه شرحه في محاضراته، كما اهتم باللغة الآرامية بالدرجة الأولى. وأصدر آنذاك كتابي: «المؤلفات المختصة بالعهد القديم» و«أبحاث في نقد العهد القديم». وكان الأول عرضاً شعبياً، والثاني يشكل الأساس العلمي لذلك. ومع أن هذين الكتابين قد أصبحا قديمين في معلوماتهما إلى حد ما، وخاصة بفضل مؤلفات ڤلهاوزن(١١) الطليعية في هذا الحقل، فقد كانا عملين ممتازين في عصرهما كافيين لإسباغ آيات الفخار على أي عالم مختص بشئون العهد القديم. ولم يكن نولدكه يعرف حلا وسطاً بين

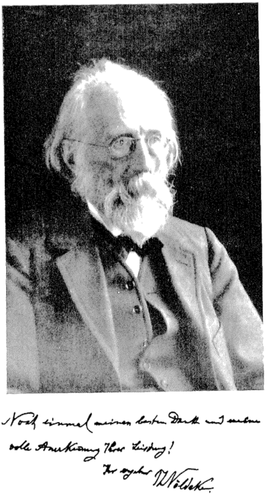

الاستاذ تيودور نولدكه قبيل وفاته.

الايمان والمعرفة. ولذا فقد هاجم كذلك «العقلانية الضعيفة، التي يلجأ إليها حتى مؤمنونا الراشدون اكثر فأكثر.» إذ أن «عقلانيته» كانت من عود قوي، كروحه، التي كانت تعمر في جسد ضعيف كجسده.

وأما قيامه بالدراسات الآرامية فقد كان بمحض الصدفة. إذ أن مكتبة جامعة كيل، التي كانت لا تملك من الكتب الخاصة باللغات والشعوب السامية إلا النزر القليل، حصلت من مخلفات آدلر(١٢)، الذي توفي عام ١٨٣٤، وهو في منصب المشرف الأعلى العام لمقاطعة شليزفيج ـ هولشتاين، على عدد كبير من المؤلفات الخاصة بالأدب السرياني. وكانت هذه الكتب هي الدافع إلى اهتمام نولدكه الآن بصورة أعمق وأدق باللغة الآرامية. وكما وضع الأبحاث القرآنية على قواعد متينة ثابتة في كتابة «تاريخ القرآن»، فقد وضع الآن الاسس العلمية لدراسة اللغات السريانية، والسريانية الحديثة والمندعية. وظهر

كتاب قواعد السريانية الحديثة وهو لايزال فى كيل، بينما ظهركتابا قواعد السريانية والمندعية اثناء وجوده فى ستراسبورج. وتعتبر كتب القواعد الثلاثة مؤلفات طليعية من الدرجة الأولى إطلاقاً. ولتأليف الثلاثة فقد كان عليه أن يعمل منقباً فى مواد اللغة كلها بمنتهى الدقة والعناية. وأدت قواعد السريانية الحديثة بعد فترة جديدة إلى بحث اللغات السامية الحية، التى تحمل أهمية كبيرة للحكم على اللغات القديمة. أما قواعد الآرامية الشرقية فقد كونت الأساس لا لفهم الأدب الآرامى الشرقى فحسب، بل وكذلك لتفهم كثير من مشاكل المقارنات اللغوية السامية؛ وكان كتاب قواعد السريانية، الذى صدر فيما بعد فى طبعة ثانية، وترجم كذلك إلى الانجليزية، عرضاً ممتازاً لهذه اللغة العظيمة الأهمية بالنسبة للشرق المسيحى. وفى ربيع ١٨٧٢ استدعى نولدكه إلى الجامعة الألمانية التى انشئت آنذاك حديثاً فى ستراسبورج؛ وفى خريف العام نفسه انتقل هناك وظل فيها حتى عام ١٩٢٠. وكان من المفروض أن يستدعى فى عام ١٨٧٦ إلى جامعة برلين، ولكن أحد تلاميذه تسبب فى عرقلة الاستدعاء وحصل على المنصب لنفسه. ثم رفض طلبات استدعاء إلى جامعات فيينا ولايبزج وجوتنجن، حيث كان مركزه فى ستراسبورج ثابت الجذور. ومع ذلك فقد ابتهج بوجه خاص لاستدعائه إلى جوتنجن، حيث كان المفروض أن يخلف لاكارد. ومنذ عام ١٩٠٦ أحيل نولدكه على المعاش. وعندما دخل الفرنسيون، بعد انكسار ألمانيا، أراضى الألزاس وأبعدوا جميع الألمان من ستراسبورج، لم يجرأوا أن يفعلوا ذلك مع هذا العالم الجليل، الذى اشتهر اسمه فى جميع أنحاء العالم. فغادر فى ربيع ١٩٢٠ المدينة بمحض اختياره واتجه إلى كارلزروهه ليقيم مع ابنه هناك. وظل هنا مدة أحد عشر عاماً قضاها فى يقظة فكرية تامة، إلى أن فارق الحياة فى صبيحة يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٠ وهو متكئ على كرسى الشيخوخة، بعد أن كان فى اليوم السابق قد أتم قراءة رواية للأديب كونراد فرديناند ماير(١٣).

وفى ستراسبورج صدرت كتب نولدكه الرئيسية. وبفضله أصبحت ستراسبورج مركز الدراسات الشرقية ليس بالنسبة لألمانيا وحدها فحسب، بل وكذلك بالنسبة للعالم أجمع. وقد تعمد ألا يؤسس لنفسه «مدرسة» خاصة؛ ولكن جميع علماء اللغات السامية المعاصرين أصبحوا تلاميذه، سواء أدرسوا على يديه، أم استمدوا من كتبه عدتهم العلمية وسلاحهم للبحث والدراسة. وكانت حلقاته التدريسية التى كان يعقدها فى غرفة عمله تتناول مجموع حقل اللغات السامية باستثناء اللغة البابلية — الأشورية والنقوش العربية الجنوبية، كما كانت تشتمل كذلك على الفارسية الحديثة والتركية. وكان التلاميذ يترجمون، بينما كان يصحح ويقوم بالتعليق والشرح، لغة ومحتوى. وكان، كأستاذه إيفالد، يفرض على تلامذته مطالب عالية؛ فتعلموا منه أن يكونوا أمناء فى أصغر التفاصيل، والا يفقدوا نظرتهم الى الكل عموماً، وأن يجتنبوا النظريات القلقة التى لا تصمد أمام النقد ولا تستند إلى الحجة والبرهان. وحين كان أحد التلاميذ يلحن فى القراءة أو يخطئ فى أحد بحور الشعر أو فى الترجمة، كان جسم الاستاذ الصغير الشديد الحركة يهتز بقلق يمنة ويسرة، كما كان، فى الحالات الشديدة، يتعالى فجأة من مكانه المعتاد فى زاوية المقعد الطويل احتجاجاً واستنكاراً للخطأ الفادح. وبعد إحالته على التقاعد ظل يعقد حلقاته التدريسية مرات عديدة، ويبحث فيها نصوصاً عربية وفارسية صعبة، وكان أفضل تلامذتى الخاصين يشتركون فى ساعاته التدريسية أيضاً. وقلما كان يقوم بالقاء المحاضرات المنتظمة. ورغم السهولة والسلاسة التى كانت بهما تنصاع له الكلمة المكتوبة، ورغم الحيوية وعمق الأثر والثروة الفكرية التى كانت تتصف بها أحاديثه — إلا أنه لم يكن يحب إلقاء الخطب العامة. وقد تخلى عن المحاضرات المتعلقة بالعهد القديم فى ستراسبورج عن قصد، إذ كان الاستاذ القدير ادوارد رويس(١٤) يمثل هذه المادة التعليمية خير تمثيل.

وبالإضافة إلى قواعد الآرامية الشرقية والسريانية، فقد ألف نولدكه فى ستراسبورج سلسلة كبيرة من الكتب، وخاصة فى حقول الدراسات العربية واللغات السامية المقارنة، والحكايات الخرافية الشرقية، والدراسات الإيرانية. وكان فى جوتنجن قد اشتغل على دراسة الشعر العربى القديم. وفى ستراسبورج ألف ترجمات وشروح خمس معلقات واعطى بذلك مثلا فريداً من نوعه فى وضوح التفسير، لغة ومتناً. ولغرض الدقة فى تحديد الحيوانات والنباتات التى وردت فى النصوص، كان يستشير علماء الحيوان والنبات. وببحثه حول «قواعد اللغة العربية الكلاسيكية» كان اول من عالج العربية معالجة جادة من حيث الاعتبار والعرض التاريخى. وتناولت أبحاث أخرى دين وتاريخ عرب الجاهلية حيث ظهرت بوجه خاص أهمية معرفته التامة للمصادر اللاتينية والإغريقية. فقد كانت هذه عوناً شديداً له فى جميع أبحاثه التاريخية، وكذلك فى ترجمته لكتاب تأريخى سريانى، وبوجه خاص فى كتابه «تاريخ الفرس والعرب فى عصر الساسانيين. مترجم من

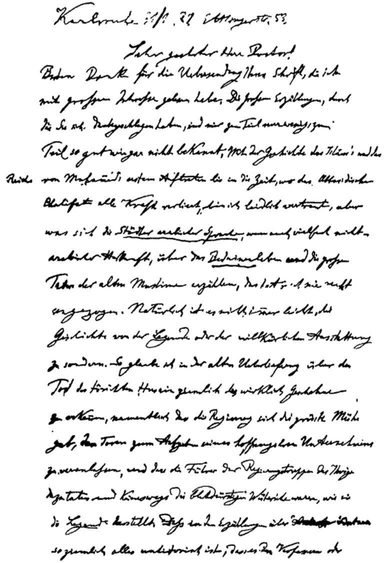
Karlsruhe [illegible] 27 [illegible] 53

Sehr geehrter Herr Doktor!
Besten Dank für die Uebersendung Ihrer Schrift, die ich mit grossem Interesse gelesen habe. Die grossen Erzählungen, durch die Sie mich [illegible] haben, sind mir zum Teil [illegible], zum Teil so gut wie gar nicht bekannt. [illegible] die Geschichte des [illegible] und der Reiche von [illegible] ersten Auftreten bis in die Zeit, wo das Abbasidische Chalifat alle Kraft verliert, bin ich leidlich vertraut, aber was sich die Stifter arabischer Sprache, wenn auch vielfach nicht arabischer Herkunft, über das Beduinenleben und die grossen Taten der alten Muslime erzählen, das hat sich mir meist entzogen. Natürlich ist es nicht immer leicht, die Geschichte von der Legende oder der willkürlichen Ausschmückung zu sondern. So glaube ich in der alten Ueberlieferung über den Tod des [illegible] Husain ziemlich das wirklich Geschehene zu erkennen, namentlich dass die Regierung sich die grösste Mühe gab, den Toren zum Aufgeben seines hoffnungslosen Unternehmens zu veranlassen, und dass die Führer der Regierungstruppen [illegible] die blutdürstigen Wüteriche waren, wie sie die Legende darstellt. Dass in den Erzählungen über [illegible] so ziemlich alles unhistorisch ist, dass es den Verfassern [illegible]

من رسالة الأستاذ نولدكه الى الدكتور رودى پارت. (يوجد امضاء نولدكه لهذا المكتوب على ص ٣٥).
نشكر الأستاذ پارت فى جامعة توبنجن لتصريحهلنا بنشر هذه الرسالة، ولما افادنا به من معلومات قيمة عن تيودور نولدكه.

تاريخ الطبرى ومرفق بايضاحات وتتمات تفصيلية». وقد أدت دراسته للمصادر الفارسية إلى قيامه بدراسة الحماسيات القومية الإيرانية، التى قرأ من أجلها اسطورة الفردوسى المنظومة «شاهنامه» الضخم مرات عديدة، كما أدت أيضاً إلى أبحاثه حول اللغة الفارسية الوسطى (البهلوية) وأدبها، وهى تمتاز بالصعوبة الشديدة، وفى هذه الدراسات حدد نهائياً وبصورة قاطعة الطابع الحقيقى لهذه اللغة، تماماً كما فعل صديقه أندرياز(١٥). وقد اهتم كذلك بدراسة النقوش الفارسية القديمة بينما ترك الشعر الوجدانى الفارسى الحديث جانباً بسبب ازدواج معناه.

وقد كرس نولدكه لأبحاثه فى اللغات السامية المقارنة مؤلفين هما : «أبحاث فى علم اللغات السامية» و«أبحاث جديدة فى علم اللغات السامية». وبتمكن كامل من المادة، وبمعرفة للغات، لم يحصلها من كتب القواعد والقواميس، وانما من المصادر الأولية، عالج عدداً من المسائل اللغوية الهامة، متمسكاً فى ذلك دوماً بما هو قائم فعلا، ومجتنباً

So auch وَمَا جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ هَاجَرْتَ تَبْتَغِي ‚und nicht hast du dich entfernt, den Paradiesgarten zu suchen' Ham. 792 v. 3 und وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِالصَّمَّانِ مَا جَشِمُوا ‚und Gott weiss am besten, welche Mühe sie in S. auf sich nahmen' Ham. 284 v. 6. Aehnlich die Voransetzung eines zu einem Particip oder Verbaladjectiv mit Artikel gehörigen Ausdrucks: وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ ‚und nicht ist es eine Geschichte, die man nur so über sie erzählt' Zuhair, Mo. 29;

فَتًى لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ   وَلَا فِي بُيُوتِ الْحَيِّ بِالْمُتَوَلِّجِ

‚ein Mann, der nicht mit dem elendesten Leben zufrieden ist und sich nicht in die Häuser des Stammes eindrängt' Ham. 764 v. 3;

وَالْحَرْبُ صَاحِبُهَا الصَّلِيبُ عَلَى تَلَاتِلِهَا الْعَزُومُ

‚und der Mann des Kampfes ist der Feste, der bei dessen Schwankungen energisch bleibt' Ham. 532 v. 1;

وَالْخَيْلُ أَجْوَدُهَا الْمَنَاهِبُ عِنْدَ كَبَّتِهَا الْأَزُومُ

‚und das beste Rennpferd ist das wettlaufende, das beim Ueberstürzen der Rosse bissig ist' Ham. 532 v. 5. Ein weiteres Beispiel Chiz. 3, 563.

Eine ungewöhnliche, aber auch den obigen Fällen ähnliche, Trennung des Zusammengehörigen ist in سَاقًا ذَاتَ فَقْدٍ عَلَى الْأَصْحَابِ = عَلَى الْأَصْحَابِ سَاقًا ذَاتَ فَقْدٍ ‚ein Bein, das von den Genossen schmerzlich vermisst wird' Agh. 21, 69, 21 = Jaq. 1, 665, 12 und ebenso mit فَضْل für فَقْد, das den Genossen sehr werth ist' Agh. 21, 70, 1 = Jaq. 1, 665, 13.

Ganz ungewöhnlich hart ist die Wortstellung aber in folgenden Stellen: لَوْ أَنَّ كَرِيمِي صِيدَ هٰذَا أَعَاشَهُ = كَرِيمِي لَوْ أَنَّ هٰذَا صِيدَ أَعَاشَهُ ‚würde dieser erjagt, so erhielte er meinen Werthen (= Vater) am Leben' Hudh. 2, 14;

فَمَا مِنْ فَتًى كُنَّا مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا   بِهِ نَبْتَغِي مِنْهُمْ عَمِيدًا نُبَادِلُهْ

= فَمَا مِنْ فَتًى مِنَ النَّاسِ كُنَّا نَبْتَغِي بِهِ وَاحِدًا عَمِيدًا نُبَادِلُهُ ‚und es giebt unter den Menschen keinen Mann, den wir als einzigen für ihn zum Führer, der ihn ersetzen sollte, suchen möchten' Ham. 465 v. 3. Ferner der berüchtigte Vers Farazdaq's

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

‚und nicht giebt es unter den Menschen einen Lebenden, ihm nahekommend, ausser einem Fürsten, dessen Muttervater sein eigner Vater ist'[1] Wright, Op. ar. 67 und sonst citiert.

[1] Der Angeredete ist ein mütterlicher Oheim des Chalifen Hišâm (des ‚Fürsten').

الفرضيات القلقة. وقد ساعد بعدة أبحاث نقدية ومقالات ومنشورات صغيرة على تطوير المعرفة باللهجات العربية والحبشية، وكذلك بالنقوش السامية إلى حد بعيد.

وفى حقل القصص الخرافية الشرقية ألف عدداً كبيراً من المقالات والرسائل الكبيرة والصغيرة، أهمها : «بحث حول تاريخ رواية الأسكندر» و«دراسة حول رواية أحيقار». وساهم كذلك فى إلقاء الضوء على تاريخ قصص ألف ليلة وليلة، أو بعض حكايات هذه المجموعة، كما خاض البحث فى مجموعة قصص «كليلة ودمنة»، مقتفياً طريق انتقالها من الهند عبر إيران والشرق الأدنى إلى الغرب.

لقد كان نولدكه سيد الاسلوب العلمى والاسلوب الشعبى معاً. وإن خمسة من كتبه، وهى «المؤلفات المختصة بالعهد القديم» الذى ذكرناه سابقاً، و«حياة محمد»، و«مقالات فى التاريخ الفارسى»، و«أبحاث شرقية» ثم بحث «اللغات السامية»، قد جعلت نتائج دراساته العلمية تراثاً عامـاً للعالم المثقف.

وفى عيد ميلاده السبعين كُرس له مؤلف تذكارى بمجلدين، اشترك فى تأليف صفحـاته الألف والمـائتين مستشرقون عن الحقول العلمية ذات العلاقة بالاستشراق من جميع الدول وأجمعوا فى ذلك على مبايعته وتقديره.

وفى عيد ميلاده الثمانين سرنى أن احمل إليه فى ستراسبورج كتاباً تذكاريا من جمعيتنا(١٦) مع كلمة إهداء من السيد إيلزر(١٧) ومنى. وطبع على الكتاب باللغة العربية البيت التالى :

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا من بعدنا إلى الآثار

ولكننا نحن الذين كنا مقربين إليه لا يمكن أن نفكر بمؤلفاته وأعماله دون الرجل نفسه. فقد كان جميع الذين تعرفوا إليه عن كثب يقدرونه ويولونه أبلغ آيات الاحترام. فنى كيل هناك عالم اللاهوت ليپسيوس(١٨)، واستاذ التاريخ القديم فون گوتشمت(١٩). أما بين تلاميذه فى ستراسبورج فهناك خصوصاً ى. بارت(٢٠)، الاستاذ السابق فى برلين، وبيفان(٢١) الاستاذ الحالى فى كامبردج، وبيتزولد(٢٢) وبرونو(٢٣)، الاستاذان السابقان فى هايدلبرج، وفرينكل(٢٤) الاستاذ السابق فى برسلاو، وجيورج ياكوب(٢٥)، الاستاذ الحالى فى كيل، ورودوكاناكيس(٢٦)، الاستاذ الحالى فى غراتز، وسنوك هرگرونيه(٢٧)، الاستاذ الحالى فى لايدن، وتورى(٢٨)، الاستاذ الحالى فى نيوهيڤن، كونكتيكت بالولايات المتحدة الامريكية. وكانت تربطه بالعلماء دى خويه فى لايدن، وجويدى(٢٩) فى روما، وجولد- تسيهر(٣٠) فى بودابست، ورواينش(٣١) فى ڤيينا، وج هوفمان(٣٢) فى كيل صداقة متينة. وكان كل من نولدكه وڤلهاوزن يقول عن الآخر إن الآخر أهم منه نفسه بكثير. وكان يتبادل الرأى بنشاط مع إدوارد ماير(٣٣) وإدوارد شڤارتز(٣٤). وكان يكرس وقتاً طويلا لـلاتصال الخطى مع أصدقائه وزملائه. وكان فى مراسلاته أميناً منتظماً.

وإنه ليشبه الاسطورة الخيالية أن هذا الرجل الهزيل الجسم، الذى بلغ عدد منشوراته العلمية ما يقارب السبعمائة بحث، والذى كان يساهم بنصيب فعال فى أعمال كليته وجامعته ومصير وطنه، والذى كان قارئ صحف نشيط، والذى كان يحضر كل محاضرة وكل تقريظ علمى للكتب الجديدة تحضيراً فى غاية الدقة والتمحيص والتفصيل كان يجد رغم كل ذلك متسعاً من الوقت لكتابة عدة آلاف من الرسائل. وفى الأعوام الأخيرة من حياته كانت رسائله تبدأ غالباً بالشكوى من ضعفه الجسدى، ولكن سرعان ما كانت تتلو ذلك تعليقات علمية وسياسية فعالة. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بأرادته الحديدية فى رفض كل ما كان يعوقه عن العمل. وكانت تساعده فى ذلك بكل حرص وعناية زوجه المخلصة التى اختطفتها يد المنية منه عام ١٩١٦.

وكثيراً ما كان نولدكه يدعو نفسه بالعقلانى؛ ولكنه لم يكن كذلك بالمعنى المألوف لهذه الكلمة. ويمكن أن ندعوه بدلا من ذلك ممثلا للعقل الإنسانى السليم فى الشئون العلمية؛ أما فى المسائل الشخصية فكثيراً ما كان يصبح عاطفياً تماماً. وكان ينفر من كل ما هو رومانتيكى وصوفى. ولذا فانه لم يهتم كذلك بدراسة التصوف الشرقى، الذى لعب من دون شك دوراً هاماً جداً فى الإسلام. وقد رافقته روح الفكاهة حتى آخر أيامه وساعدته على التغلب على كثير من المصاعب والمزعجات. وقد كان بوده أن يصبح مؤرخاً للأحداث العالمية، ولذا فقد غمرته السعادة الكبرى حين أظهر له تيودور مومسن(٣٥) اعترافه بعلمه، عندما اعترض نولدكه على بعض ما جاء فى بحث لمومسن حول السياسة الرومانية فى الشرق الأدنى.

لقد كان تيودور نولدكه يمثل العالم الألمانى من الطرز القديم فى ذرى كماله. ومن صفاته أيضاً أنه كان، رغم معرفته التامة الحقة بنفسه، متواضعاً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى؛ فقـد كان ينفر من كل جعجعة فارغة وغرور وحب للظهور.

لقد ولى بفقده عهد عظيم من عهود العلم البشرى.

ترجمة : محمد على حشيشو

▶ صحيفة عن كتاب نولدكه حول النحو العربى بحواشى المؤلف.
مأخوذة عن الطبعة الجديدة لهذا الكتاب الذى اصدره الاستاذ انتون شپيتالر فى جامعة ميونخ، دارمشتاد ١٩٦٣.

تعليقات ......

محمد علي حشيشو

١) اقتبس المقال عن خطاب تأبيني ألقاه العلامة ليتمان عام ١٩٣٠.

٢) هاينرش إيفالد (H. Ewald)، مستشرق وعالم مختص بالعهد القديم، ولد في جوتنجن في ١٨٠٣/١١/١٦ وتوفى فيها في ١٨٧٥/٥/٤. ظل استاذاً في جامعة جوتنجن من عام ١٨٣١ الى ١٨٣٧، ثم انتقل إلى جامعة توبنجن، وعاد إلى جوتنجن ليحال على التقاعد عام ١٨٦٧ بسبب معارضته لإقسام يمين الولاء لملك بروسيا. وكان لمؤلفاته حول اللغة العبرية وتفسير العهد القديم وتاريخ بنى اسرائيل أثر بارز عظيم في الدوائر العلمية المختصة بهذه الحقول.

٣) تيودور بنفاى (T. Benfey) عالم باللغة السنسكريتية وباحث في اللغات والأساطير الشرقية، ولد في نورتن في ١٨٠٩/١/٢٨ وتوفى في جوتنجن في ١٨٨١/٦/٢٦. كان استاذاً في جامعة جوتنجن وأسس بأبحاثه علم القصص الخرافية المقارنة.

٤) هاينرش ليبرشت فلايشر (H. L. Fleischer) مستشرق شهير ولد في شانداو في ١٨٠١/٢/٢١ وتوفى في لايبزج في ١٨٨٨/٢/١٠ حيث عين منذ ١٨٣٥ استاذاً للغات الشرقية، وبرز كأحد رواد البحث في اللغة العربية في ألمانيا. ومن أشهر أعماله إصداره تفسير البيضاوى في مجلدين، بالإضافة إلى أبحاث كثيرة في اللغة العربية.

٥) ميشائيل يان دى خويه (M. J. de Goeje) من أشهر المستشرقين وعلماء العربية في هولندا. ولد في دورنرب (في فريسلند) في ١٨٣٦/٨/١٣ وتوفى في لايدن في ١٩٠٩/٥/١٧ حيث كان استاذاً للغات الشرقية منذ ١٨٦٦. ومن مؤلفاته الأولى: «مذكرات في تاريخ وجغرافية الشرق». أما أهم أعماله فإصداره للمؤلفات الجغرافية العربية تحت عنوان: «المكتبة الجغرافية العربية» في سبع مجلدات، ويعتبر مرجعاً هاماً للجغرافيين العرب ومؤلفاتهم.

٦) ألويس شبرنگر (Aloys Sprenger) مستشرق ولد في التيرول في ١٨١٣/٩/٣ وتوفى في هايدلبرج في ١٨٩٣/١٢/١٩. أقام منذ ١٨٤٣ في الهند وترأس من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٧ المعاهد الإسلامية العليا في كالكوتا ثم عين استاذاً للغات الشرقية في برن بسويسرا من ١٨٥٨ حتى ١٨٨١. من أشهر كتبه «حياة محمد وتعاليمه» و«طرق البريد والسفر في الشرق» و«جغرافية الجزيرة العربية القديمة».

٧) ميشيلي آمارى (M. Amari) مؤرخ ومستشرق ايطالى ولد في پالرمو في ١٨٠٦/٧/٧ وتوفى في روما ١٨٨٩/٧/١٦. قضى وقتاً طويلا من حياته في المنفى ثم عاد عام ١٨٥٩ إلى ايطاليا وأصبح وزيراً للتعليم من ١٨٦٢ حتى ١٨٦٤. اشتهر لأبحاثه القيمة حول جزيرة صقلية اثناء الحكم العربي.

٨) آوغوست ديلمان (A. Dillmann) مستشرق وعالم لاهوتى بروتستنتى. ولد في ولاية ڤورتنبرج بألمانيا في ١٨٢٣/٤/٢٥ وتوفى في برلين في ١٨٩٤/٧/٤. عين عام ١٨٥٤ استاذاً في كيل، وعام ١٨٦٤ في غيسن، وعام ١٨٦٩ في برلين. برز في أبحاثه في اللغة الاثيوبية، كما ألف عدة شروح لكتب العهد القديم.

٩) پاول أنتون دى لاگارد (P. A. de Lagarde) مستشرق وفيلسوف حضارى ولد في برلين في ١٨٢٧/١١/٢ وتوفى في جوتنجن في ١٢/٢٢/ ١٨٩١. عين منذ عام ١٨٦٩ استاذاً للغات الشرقية في جوتنجن ومازال أثره حياً حتى اليوم بفضل شروحه وتحاليله لنصوص العهد القديم. اشتهر كذلك بمقالاته السياسية التى تتناول النقد الحضارى والمشبعة بالروح القومية الرومانتكية.

١٠) فريدرش يوليوس آوغست ڤيزلر (F. J. A. Wieseler) عالم آثار ولغات قديمة. ولد في ألتنتزله في شمالى ألمانيا في ١٨١١/١٠/١٩ وتوفى في جوتنجن في ١٨٩٢/١٢/٣. كان من تلامذة الاستاذ إيفالد، ثم مال إلى دراسة اللغات الكلاسيكية والآثار. أصبح منذ عام ١٨٥٤ استاذاً للآثار واللغات القديمة، وقام برحلات علمية كثيرة ونشر عدة أبحاث تظهر اهتمامه بالجمع بين الآثار القديمة وعلم اللغات الكلاسيكية.

١١) يوليوس ڤلهاوزن (J. Wellhausen) مستشرق وعالم لاهوت بروتستنتى، ولد في هاملن في ١٨٤٤/٥/١٧ وتوفى في جوتنجن في ١٩١٨/١/٧، ويعتبر أهم عالم مختص بالعهد القديم في القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً للاهوت في غرايفزڤالد في ١٨٧٢ واستاذ اللغات الشرقية في هاله عام ١٨٨٢، ثم في ماربورغ عام ١٨٨٥، وفي جوتنجن عام ١٨٩٢. له مؤلفات وابحاث عظيمة في اللاهوت وتاريخ العهد القديم. وكمستشرق بارز اكتشف في الأناجيل آثاراً ذات اصول آرامية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الاسلام فقد شرح ڤلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدى للفترة الإسلامية الأولى في كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها» كما ألف أيضا كتاب «الأحزاب الدينية السياسية المعارضة في بواكر عهد الاسلام».

١٢) يعقوب جيورج كريستيان آدلر (J. G. C. Adler) عاش بين ١٧٥٦ و١٨٣٤، واهتم بدراسة القرآن والكتاب المقدس.

١٣) كونراد فرديناند ماير (Conrad Ferdinand Meyer) من أكبر شعراء سويسرا، ولد عام ١٨٢٥ وتوفى في زيوريخ عام ١٨٩٨.

١٤) ادوارد رويس (Eduard Reuss) عالم لاهوتى انجيلى ولد في ستراسبورج عام ١٨٠٤ وتوفى فيها عام ١٨٩١. أصبح استاذاً منذ ١٨٣٤ وكان من ابرز ممثلى طريقة البحث التاريخى النقدى في علم اللاهوت.

١٥) فريدريش كارل أندرياز (Friedrich Carl Andreas) مستشرق مختص بالدراسات الايرانية ولد عام ١٨٤٦ في باتاڤيا وتوفى عام ١٩٣٠ في جوتنجن. ألف عدة أبحاث حول النقوش الفارسية الوسطى وحول اللهجات الايرانية الحديثة.

١٦) جمعية العلوم في جوتنجن.

١٧) لا تعرف هويته.

١٨) ريشارد آدلبرت ليپسيوس (R. A. Lipsius) عالم لاهوت انجيلى ولد في جبرا عام ١٨٣٠ وتوفى في يينا عام ١٨٩٢. كان استاذاً في ڤيينا وكيل وويينا وساهم بأبحاث هامة في تاريخ العقائد الدينية وفلسفة الدين وكذلك في تفسير العهد الجديد.

١٩) ألفرد فون گوتشمت (Alfred von Gutschmid) باحث تاريخى ولد بالقرب من دريسدن في ١٨٣١ وتوفى في توبنجن عام ١٨٨٧. كان استاذاً منذ ١٨٦٣ في كيل وكونكسبرج ويينا وتوبنجن. اختص بدراسة تاريخ الشرق القديم وخاصة إيران.

٢٠) يعقوب بارت (Jakob Barth) عالم باللغات السامية من الطائفة الإسرائيلية ولد في اقليم بادن عام ١٨٥١ وتوفى في برلين عام ١٩١٤.

٢١) أنتونى آشلى بيڤان (Anthony Ashley Bevan) مستشرق وعالم لاهوتى بريطانى مختص بدراسة الكتاب المقدس واللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفى عام ١٩٣٣. (ان كلمة «الحالى» في مقالة الاستاد ليتمان تشير الى ان دونت المقالة بعد وفاة نولدكه بقليل، اى في عام ١٩٣١).

٢٢) كارل كريستيان إيرنست بتزولد (C. C. E. Bezold) مستشرق وعالم باللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفى في هايدلبرج عام ١٩٢٢. اهتم خاصة بدراسة اللغة والحضارة الاشورية.

٢٣) رودلف برونو (R. Brünnow) ولد فى الولايات المتحدة من عائلة ألمانية سنة ١٨٥٨؛ ثم اتم تحصيل اللغات السامية وبالخاصة العربية فى ألمانيا؛ عين استاذا فى جامعة برنستون فى الولايات المتحدة عام ١٩١٠، وتوفى هنالك سنة ١٩١٧.

٢٤) زيجموند فرينكل (Siegmund Fraenkel) مستشرق اختص باللغات السامية ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٠٩. اشتغل بدراسة اللغة الآرامية وساهم فى العمل على تاريخ الطبرى.

٢٥) جيورج ياكوب (Georg Jacob) مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الإسلام ولد عام ١٨٦٢ فى كونگزبيرغ وتوفى عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية فى جامعة كيل وأهتم خاصة بدراسة التصوف وأصحاب الطرق كالبكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول تاريخ مسرح العرائس وخيال الظل فى الشرق والغرب.

٢٦) نيكولاوس رودوكاناكيس (N.Rhodokanakis) مستشرق نمسوى ولد عام ١٨٧٦ وتوفى عام ١٩٤٥. اهتم بدراسة اللغة العربية وآدابها وأصدر ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات مع ترجمة له. وساهم كذلك فى دراسة حضارة جنوبى الجزيرة العربية.

٢٧) كريستيان سنوك هرگرونيه (Ch. Snouck Hurgronje) مستشرق هولندى ولد عام ١٨٥٧ وتوفى عام ١٩٣٦ واهتم بالدرجة الأولى بدراسة الفقه الإسلامى. يعتبر بالنسبة لهولنده كنولدكه بالنسبة لألمانيا. أصبحت أبحاثه وأعماله أسساً للدراسات الاسلامية الحديثة حيث أنها قدمت نظرة تاريخية لحقول الدين والتشريع والحضارة الاسلامية. ظل استاذاً فى لايدن، مركز الاستشراق الهولندى الشهير، من ١٩٠٦ حتى ١٩٢٧.

٢٨) تشارلز كتلر تورى (Charles Cutler Torrey) مستشرق امريكى اختص باللغات السامية ولد عام ١٨٦٣ وعمل استاذاً فى جامعة ييل من ١٩٠٠ حتى ١٩٣٢، وتوفى عام ١٩٥٦.

٢٩) اجنازيو جويدى (Ignazio Guidi) مستشرق ايطالى بمستوى تيودور نولدكه ولد عام ١٨٤٤ وتوفى عام ١٩٣٥. قدم ابحاثاً هامة فى علم اللغة العربية وساهم فى نشر مخطوطات فى التاريخ الاسلامى وعلم اللغة.

٣٠) اجناتز جولدتزيهر (I. Goldziher) مستشرق مجرى من الطائفة الاسرائيلية ولد عام ١٨٥٠ وتوفى فى بودابست عام ١٩٢١. بعد أن أتم دراسته فى بودابست أقام مدة عام فى مصر حيث كان اول اوروبى درس فى الأزهر فى القاهرة، مركز دراسة الفقه الاسلامى. أصبح عام ١٨٩٤ استاذاً فى بودابست. واهتم فى بادئ الأمر بالأبحاث المتعلقة باليهودية، إلا أنه عاد فتفرغ كلياً للدراسات الاسلامية. وأهم كتبه «دراسات محمدية» بجزئين و«رسائل فى علم اللغة العربية» و«محاضرات فى الإسلام» و«اتجاهات تفسير القرآن».

٣١) ليو راينش (Leo Reinisch) باحث لغوى وعالم باللغة والحضارة المصرية القديمة ولد فى النمسا عام ١٨٣٢ وتوفى فى ١٩١٩.

٣٢) جيورج هوفان (G. Hoffmann) ولد عام ١٨٤٥ وتوفى عام ١٩٣٣. خلف نولدكه فى منصبه كأستاذ ومستشرق فى جامعة كيل.

٣٣) ادوارد ماير (E. Meyer) مؤرخ عاش بين ١٨٥٥ و١٩٣٠.

٣٤) ادوارد شفارتز (E. Schwartz) عالم باللغات الكلاسيكية ولد فى كيل عام ١٨٥٨ وتوفى فى ميونيخ عام ١٩٤٠. كان استاذاً فى جوتنجن وفرايبورج وستراسبورج وميونيخ. اهتم خاصة بالآدب الاغريقى.

٣٥) تيودور مومسن (Th. Mommsen) مؤرخ وحقوقى كبير ولد فى ١٨١٧ فى شمالى ألمانيا وتوفى عام ١٩٠٣ فى شارلوتنبورج. اشترك عام ١٨٤٨ حين كان استاذاً فى لايبزج فى الحركة الديمقراطية آنذاك ففصل بسبب ذلك. ثم أصبح استاذاً فى زيوريخ وبرسلاو وبرلين حيث درس التاريخ القديم. أصبح من ١٨٧٣ حتى ١٨٧٩ نائباً ليبرالياً فى البرلمان البروسى، ومن ١٨٨١ حتى ١٨٨٤ عضواً فى الرايخشتاغ. كان من خصوم بسمارك وله عدة مؤلفات تاريخية هامة. وحصل عام ١٩٠٢ على جائزة نوبل للأدب.

بعد اتمام هذا المقال تسلمنا نص بعض الذكريات للاستاذ الدكتور فؤاد حسنين على عن العلامة نولدكه، ويسرنا ان نضيف قسما منها الى مقال الاستاذ ليتمان.

تيودور نولدكه (٢ مارس ١٨٣٦ — ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠)

لن انسى ذكريات يوم وفاته فقد كنت طالبا بجامعة ميونخ وكنت حديث عهد بالمانيا وجامعاتها، وشاء الله ان ارى واسمع نعى هذا المستشرق العظيم فى معهد من اكبر معاهد تلك البلاد، ومن عالم من اشهر رجالات المانيا الذين كرسوا حياتهم لخدمة الشرق والشرقيين، ونولدكه لم يكن غريبا على، وانا الذى شغفت بدراسة الشرق العربى، لغاته وآدابه، حضاراته ودياناته، قديما وحديها، فكان لزاما على ان اتعرف على آثار هذا العلامة كلما اتيحت لى فرصة. وقد عرفته فى مصر لا عن طريق المصادر الالمانية، فقد كنت اجهل حينذاك تلك اللغة، بل عن طريق مصدرين انجليزيين عالميين، وهما دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف الكتاب المقدس، وذلك لان المستشرقين الانجليز اسندوا اليه تحرير معظم المواد المتصلة بالشرق والشرقيين فى المرجعين السابقين.

فى ذلك اليوم دخل (فريتز هومل) العالم المتواضع والشيخ الذى نيف على السبعين قاعة البحث عابسا مضطربا، لقد كان اليوم عبوسا قمطريرا، وما كاد يصل الى مقعده حتى صاح صيحة الحزين الكئيب «مات نولدكه» واستطرد فى الحديث عنه ورثائه.

مات زعيم المستشرقين الذى وان كان فى العالم القديم يذكر فى الجديد لا ينكر. مات نولدكه الذى رفع لواء الاستشراق عاليا وظل رافعه زهاء نصف قرن، مات ذلك العالم الذى كان اما فى فرد واجيالا فى شخص. نولدكه هو المستشرق الذى خلق علوما لم تكن معروفة من قبل، وهجم على اعوص المشكلات فحلها لنا ووضع ايدينا على حقيقتها، فهو لم يمت الا بعد ان ترك للعالم اربعة وعشرين سفرا، واكثر من سبعمائة بحث فى الشرق، لغاته وآدابه، تاريخه ودياناته.

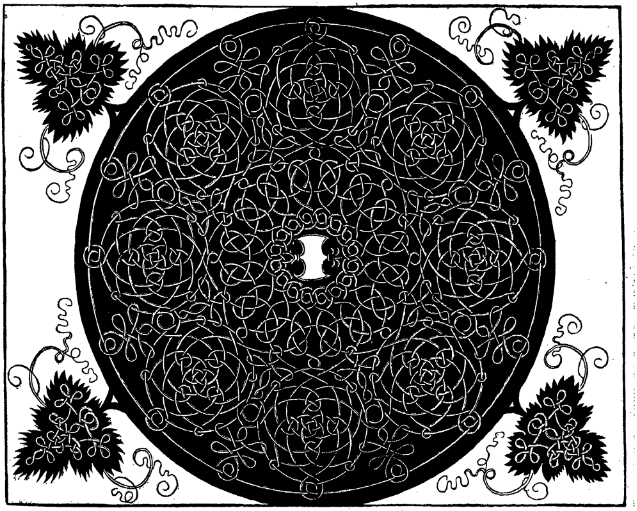

البرشت دورر: عقدة ثمانية.

.... والآن احب ان اضع بين يدى القارئ صورة تبين سر عظمة هذا العالم وقوته، وهذه الصورة ليست من عمل ريشتى او من وحى خيالى بل هى حقيقة مسجلة فى مقدمة الطبعة الثانية من الجزء الاول من كتابه فى (تاريخ القرآن) الذى نشره (فريدريش شواللى). فقد ارسل ناشر هذا الكتاب الى (نولدكه) عام ١٨٩٨ بخطاب يرغب فيه اليه ان يعيد نشر هذا الكتاب او يقترح عليه عالما آخر يراه اهلا للقيام بهذه المهمة، فاجابه (نولدكه) «.... فرفضت انا لاسباب عديدة وذلك لانه لم يكن فى استطاعتى ان اعيد نشر هذا الكتاب فى ثوبه الجديد الذى قد يرضينى ، لذلك اقترحت على الناشر بعد تفكير لم يستغرق زمنا طويلا تلميذى وصديقى الاستاذ (شواللى) الذى اظهر ارتياحه واستعداده لتادية هذه الرسالة. فقد جعل من هذا الكتاب الذى الفته منذ نصف قرن سفرا يتفق الى حد ما مع المقتضيات العلمية الحديثة، اقول الى حد ما وذلك لان آثار تهور الشباب لا يمكن محوها جميعها الا باعادة تاليف كتاب جديد، وكثير من المسائل التى كنت اعتقد قليلا اوكثيرا بصحتها، تبينت لى فيمابعد انها غير مؤكدة ...»

فؤاد حسنين على

قبة جامع محمد على بالقلعة فى القاهرة. — تصوير : جيورج جرستر ، زيوريخ. ◀

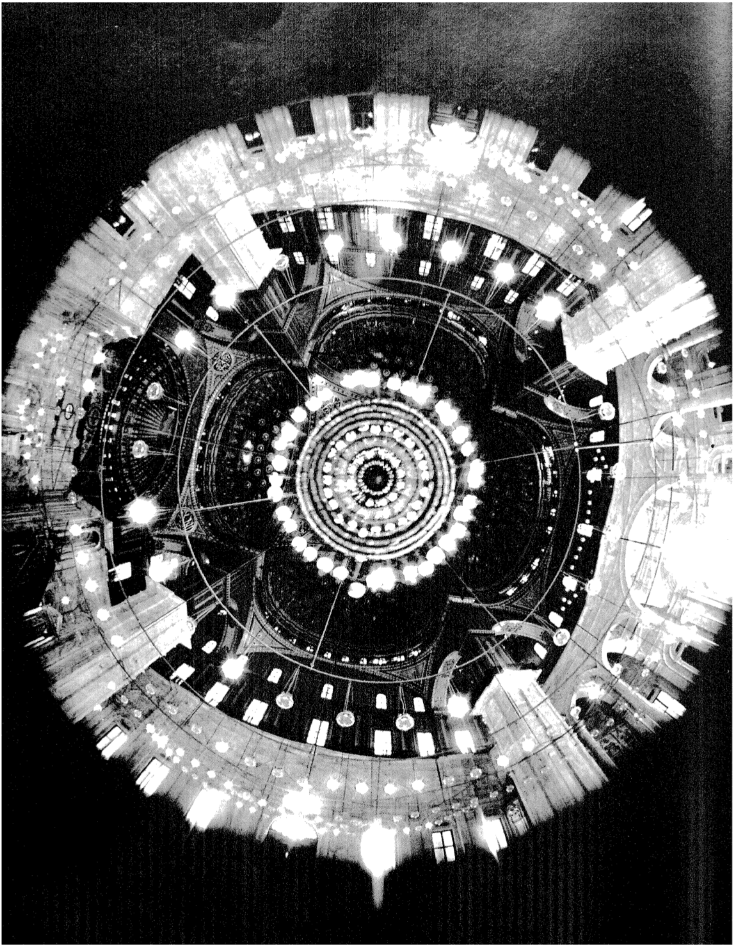

بعض النقاط البراقة من علم حياة الجزئيات

بقلم روبرت شويتزر

١) ماهى الحياة ؟ : سؤال لم يتمكن أحد من الأجابة عليه، بعد، أجابة مختصرة واضحة ! وليت الأمر أقتصر على ذلك فقط، إذ يظهر إن الأجابة على هذا السؤال سوف تزداد صعوبة، كلما أزددنا علما بكنه العمليات الحيوية، التى تحدث، بصفة مستمرة على هذا الكوكب، الذى نعيش عليه. ونظرا لهذا العجز، يحاول العلماء تعريف الحياة، الى حد ما، بذكر الصفات والظواهر الحيوية، وكذا بتعداد المنجزات، التى يقوم الأحياء بها، مثل التكاثر والنمو، والولادة والموت، والقدرة على الحركة، وعلى الإدراك، وعلى الفهم، وعلى الاحساس، وكذا ما أصطلح الناس على تسميته روحا ونفسا، وغير ذلك. ويهمنا أن نحدد، فيمايلى، تلك الصفات والظواهر والمنجزات، التى يمكن أن تعتبر معيارا للتفريق بين الجماد وبين الاحياء، سواء فى ذلك ما أرتقى منها، وما كان منها فى أبسط تكوين.

وليس من شك، أن التكاثر (وهو مرتبط بالنمو أرتباطا وثيقا)، وكذا توريث الصفات والمنجزات للخلف، هما أهم خاصتين تتميز الأحياء بهما. غير أنه يتبين لنا، إذا ما دققنا النظر فيما حولنا، أن هاتين الخاصتين بالذات، ليستا بغريبتين على بعض الجماد، وذلك أن للبلورات، مثلا، القدرة، على أختيار الذرات، والجزيئات، التى تكون بنانها، مما يحيط بها من مواد غير متجانسة، كما أن لها القدرة أيضا، على ترتيب هذه الذرات والجزيئات، وعلى تجميعها، تجميعا فيزيقيا، يتفق مع بنانها، وبذلك تصبح صالحة لكى تستخدمها فى نموها. زد على ذلك أن للبلورات الصغيرة، وكذا لشظايا البلورات الكبيرة، نفس هذه الخواص، أى أن للبلورات خواصا، تشبه، الى حد ما، خواص التوريث للخلف، فى عالم الأحياء.

ولعله من المفيد، أن نقارن، فيمايلى، بين نمو البلورات وتكاثرها فى صور متطابقة، من جهة، وبين نمو الأحياء وتكاثرها، مع إمكان الارتقاء، من جهة أخرى، مقارنة تظهر بوضوح، ما بينهما من فروق، فى كلتا الحالتين :

أولا : بينما لا تقوى البلورات على تغيير المواد، التى تحيط بها، تغييرا كيميائيا، لكيما يصبح بعض هذه المواد صالحا لأن تستخدمها فى نموها، نرى أن الكائن الحى قادر على ذلك، فهو يغير بعض ما يحيط به من هواء، وكذا بعض ما يصل الى باطنه من غذاء، يتركب من مواد غير متجانسة، تغييرا كيميائيا، وذلك بتحويلها الى تركيبات كيميائية بذاتها، تصلح لان يستخدمها فى نموه، وفى غير ذلك من ظواهره الحيوية، وصفاته ومنجزاته. وتسمى هذه التفاعلات الكيميائية الهامة، التى تتميز الأحياء بها عن الجماد، عمليات التحول الغذائى (Stoffwechsel — Metabolismus)

ثانيا : هناك فرق هام بين الأحياء وبين البلورات فى عملية التوريث أيضا، أى من حيث الصفات والخواص والمنجزات، التى يرثها الخلف عن السلف. فبينما تتكاثر البلورات فى بنان متطابقة التكوين، ذات خواص متطابقة، تمام التطابق، نرى الأحياء تخضع، فى تكاثرها، لما يسمى «فاعلية الطفرة»، وهى تلك الفاعلية، التى تسبب حدوث تغيارات فجائية طفيفة (Mutationen)، فى المعلومات الوراثية، الخاصة بنوع ما من الكائنات الحية، وذلك بحيث تؤدى هذه التغيارات، بفرض توافر الظروف المؤاتية لذلك، الى أن يرث الخلف، من هذا النوع، خواصا وصفات مكتسبة، لم تتوارثها أجيال هذا النوع، من قبل. وعلى الطفرة، وفاعليتها، بنيت نظرية داروين المعروفة عن الارتقاء (Darwinsche Evolution).

ومجمل القول، هو أن التحول الغذائى والوراثة، وما ينتج عنهما من نمو وتكاثر وأرتقاء، تعد خواصا، يمكن التفريق بها، بين الأحياء وبين الجماد. والأحياء جميعا سيان، فيما أسلفنا من صفات، وخواص، ومنجزات حيوية بدائية، بما فى ذلك أبسط الكائنات الحية تكوينا، أى تلك الكائنات

المجهرية (الميكروسكوبية)، ذات الخلية الفردية. ويهمنا أن نتساءل، الآن، عن حكم الفيروسات (Viren)، فى هذا الصدد؟

٢) هل يصح، على أساس ما تقدم، اعتبار الفيروس كائنا حيا أيضا؟: لا تقوى الفيروسات، وحدها، على انجاز عمليات التحول الغذائى، اللازمة لحياتها، وهى قادرة، بالرغم عن ذلك، على التكاثر وعلى النمو، ولكن بشرط هام، وهو أن يكون ذلك فى باطن خلية حية. وبيان ذلك أنه اذا ما اقتحمت الفيروسات خلية كهذه، تنتج عمليات التحول الغذائى، التى تحدث فى باطن الخلية الحية، المصابة، جزيئات بنية الفيروس، وذلك عوضا عن جزيئات بنية الخلية نفسها، وبذا تنمو الفيروسات وتتكاثر. ونظرا للتشابه بين البلورات، من جهة، وبين الفيروسات، من جهة أخرى، من حيث التكاثر والنمو، يرى البعض أن الفيروسات نوع من أنواع الجماد.

ولا يوافق كاتب هذا المقال على هذا الرأى، اذ أن الخلايا الحية السليمة لا تنتج عادة جزيئات بنان الفيروسات، وانما تجبرها الفيروسات على ذلك. وبذا، فمع التسليم بعدم قدرة الفيروسات على إنجاز عمليات التحول الغذائى، اللازمة لها، بنفسها، إلا أنها قادرة على التحكم فى تكييف هذه العمليات، كما أنها قادرة أيضا، على تنظيمها، فى باطن تلك الخلايا الحية، التى تقتحمها، وذلك بتعديل هذه العمليات تعديلا مناسبا لتركيب بنانها. زد على ذلك أن معلومات الفيروسات الوراثية، تخضع لفاعلية الطفرة أيضا، وبذلك يكتسب الجيل من الفيروسات خواصا وصفات جديدة، يورثها، بفرض توافر الظروف المؤاتية لذلك، الى الخلف، وهى خواص وصفات مكتسبة لم تتوارثها أجيال الفيروسات، من قبل، وبذا تشبه الفيروسات فى ذلك، تمام الشبه، تلك الكائنات، التى تتمتع بالحياة تمتعا تامـا.

فهل يكفى ما أسلفناه، لكيما نعتبر الفيروسات أحياء تتمتع بالحياة تمتعا تاما؟ أم أنه من الجائز، فقط، أن نعتبر الفيروسات كائنات انتقال من عالم الجماد الى عالم الأحياء؟ ويميل العلماء، اليوم، إلى التساؤل عن حكم الفيروسات، فى هذا الصدد، بالصيغة التالية:

«هل مازالت الفيروسات تتمتع بالحياة تمتعا تاما؟» ويرجع ذلك الى أنه يصح أن تعتبر الفيروسات كائنات حية، قد فقدت، على مر الزمن، القدرة على انجاز عمليات التحول الغذائى، ذاتيا، غير أنها احتفظت، فى نفس الوقت، بقدرتين تتعلقان بهذه العمليات، نود أن ننبه اليهما بصفة خاصة، وهما:

الأولى: القدرة على التحكم فى تكييف عمليات التحول الغذائى، وكذا على تنظيمها بحيث تنجز بطرق بذاتها.

الثانية: أن الفيروسات قادرة على توريث هذه القدرة على التحكم فى تكييف التحول الغذائى وتنظيمه، الى أجيالها المتعاقبة.

أما أهمية هاتين القدرتين بالذات، فمرجعها الى أننا نعتبر أن القدرة على توريث الصفات والمنجزات للخلف، وعلى القيام بعمليات التحول الغذائى ذاتيا، وكذا القدرة على التحكم فى تكييف هذه العمليات وتنظيمها، بطرق معينة، تعد خواصا حيوية أساسية. وطالما اقتصرت بحوثنا على تعريف الحياة فى المنطقة، التى تقع بين الأحياء، وبين الجماد، فليس هناك، أن شئنا ذلك، ما يمنع من اهمال أحدى هذه الخواص الحيوية الثلاث، مؤقتا. أما اذا ما بدأنا فى التفكير فى بداية الحياة الأولى، أو فى أجراء تجارب عملية فى هذا الشأن، فأن كل خاصة من هذه الخواص، تصبح، فى حد ذاتها، فى غايـة الأهمية، وبذا لا يمكن أن تهمل قطعا. فهل كان توافر خاصة واحدة، من هذه الخواص الثلاث، كافيا لانطلاق الحياة، عند بدايتها الأولى، وكذا لاستمرارها، حتى أصبحت فى صورتها الحالية؟ أم كان توافر هذه الخواص الثلاث، مجتمعة، ضروريا لانطلاق الحياة، بعد انعدامها، ولاستمرارها، حتى أصبحت على الصورة، التى نراها عليها، اليوم؟

٣) ما هى الأسباب، التى تبرر دراسة علم حياة الجزيئات؟: يحكى كاتب هذا المقال عن ذكرياته، التى ترجع الى عام ١٩٢٧ (وقد كان فى ذلك الوقت طفلا، فى السادسة من عمره)، عندما سمع، لأول مرة فى حياته، بخبر، يتعلق بعلم حياة الجزيئات(٢). ويشير الكاتب بذلك الى نجاح سومنر (Sumner)، عام ١٩٢٦، فى بلورة الأنزيمات البولينية (Enzym Urease)، أى اليورية، وهى أنزيمات ذات وظيفة هامة، فى انجاز التحول الغذائى، الخاص بالنبات، إذ أنها تعالج، كيميائيا، مركبا يحتوى على جزيئات مادة البولينا (Substrat Harnstoff)، وذلك بتحليله، تحليلا مائيا، (أى بواسطة الماء) الى نوشادر، والى حامض كربونيك. ومما يستلفت النظر، أن هذه الأنزيمات تميز بدقة بين جزيئات البولينا، وبين الجزيئات المشابهة لها، الموجودة معها بهذا المركب الكيميائى، وذلك

بحيث يقتصر التحلل المائى على جزيئات البولينا، دون غيرها. واذا ما أراد أحد الكيميائيين تحليل مركب مشابه، تحليلا مائيا كهذا، فى معمله، فلابد له من تسخين هذا المركب، من جهة، كما أنه يتعذر عليه، من جهة أخرى، أن يقصر تحليله على نوع بذاته من الجزيئات، دون المساس بالجزيئات المتنوعة الأخرى، الموجودة، مع هذا النوع المعين من الجزيئات، بذلك المركب. وما هذه الوظيفة الأنزيمية، التى لخصناها بعاليه، سوى واحدة من آلاف الوظائف الأنزيمية الأخرى، التى قد تفوقها تعقيدا، والتى يتطلبها أنجاز عمليات التحول الغذائى المختلفة، تلك العمليات، التى لا غنى لأى كائن حى عنها. ولكل عملية من هذه العمليات أنزيم، متخصص فى أنجازها، على نحو تخصص الأنزيم البولينى فى أنجاز عملية، بذاتها، من هذه العمليات الحيوية.

ولقد كانت بلورة الأنزيمات البولينية، هى بداية سلسلة من البحوث، استنبتت فيها، وربيت، أنواع مختلفة من الأنزيمات، تفوق المئة عددا، ثم بلورت جميعها، بعد ذلك، ودرست بعناية. ولقد انبثقت، عن هذه البحوث حقيقة أساسية هامة، وهى أن الأنزيمات، لا تعدو أن تكون، من الوجهة الكيميائية، بروتينات (Proteine)، خالصة نقية، أى أن الأنزيمات، ما هى ألا زلاليات، كما يروق لنا، أن نسمى البروتينات، فى كثير من الأحيان.

ومجمل القول، هو أن الأنزيم عبارة عن جزئ زلالى. وما أشبه هذه الجزيئات الزلالية المختلفة برهط من الكيميائيين، ذوى الحجم دون المجهرى (الميكروسكوبى)، وقد عكفوا، فى باطن الخلية الحية، على أنجاز كل ما يتطلبه التحول الغذائى، من عمليات كيميائية حيوية.

ثم مضى على هذا الكشف الهام، تسع سنين، تمكن بعدها ستانلى (Stanley)، فى سنة ١٩٣٥، من بلورة فيروسات التبغ، التى تسمى فيروس التبغ الفسيفسائى (Tabak-Mosaik-Virus)، وبذلك أمكن تغيير خواص «كائن حى»، بحيث تتطابق مع خواص مركب عضوى، نقى، تمام التطابق. ثم تبين، بعد ذلك، أن بنية هذا الفيروس تشبه أنبوبة دقيقة، تتركب من جزيئات من البروتينات النووية، و من جزيئات أحماض نووية، فى هيئة خيط، ملفوف لفا لولبيا، قد نظم فيه ما يقرب من (١٢٠٠) جزئ زلالى، لا فرق بينها أطلاقا، وقد نظمت هذه الجزيئات الزلالية فى ذلك الخيط اللولبى، كما تنظم اللآلىء فى خيط العقد.

ومنذ ذلك الوقت ثبتت حقائق، أشد طرافة، مما أسلفنا، منها أمكان استبعاد جميع الجزيئات الزلالية من الفيروس بالطرق الكيميائية، ومع ذلك، تحتفظ جزيئات الأحماض النووية، الباقية، بالقدرة على العدوى، وكذا بالقدرة على أنتاج ملايين من الفيروسات، فى أوراق شجرة تبغ مصابة بها. وهذه الفيروسات كائنات كاملة البنية، أى أنها فيروسات تتركب، أيضا، من أحماض نووية، ومن زلاليات.

ومن بين هذه الحقائق أيضا، أن العلماء تمكنوا من استنبات سلالات جديدة من الفيروسات، بفاعلية الطفرة، وهى فيروسات ذات خواص مكتسبة، يرثها الخلف، وقد كان ذلك بأشراك أحماض الفيروس النووية فى تفاعلات كيميائية خارجية، فرضت على هذه الأحماض، عندما قام هؤلاء العلماء بتجاربهم. هذا، وتتركب بنان السلالات المستنبتة، على هذا الوجه، من أنواع جديدة من الأحماض النووية، ومن البروتينات، تختلف فى تركيبها عن نظائرها، قبل حدوث هذه التفاعلات الكيميائية الخارجية. وبذلك ثبت، علاوة على ما تقدم، أن أى تغيار فى تركيبات الأحماض النووية الكيميائية، الموجودة فى بنية نوع ما من الفيروسات، يسبب، بالتبعية، حدوث تغيار فى التركيبات الكيميائية الخاصة، بزلاليات هذا النوع من الفيروسات.

ومجمل ما أسلفنا من دراسات أجريت على فيروس التبغ الفسيفسائى، هو أن جزئ الحمض النووى، وحده، هو المسؤول الأول عن مضمون المعلومات الوراثية، التى تتحكم فى تشكيل الخلف، كما أن هذا الجزئ، هو المسؤول الوحيد أيضا، عن التحكم فى تكييف عمليات التحول الغذائى، وكذا عن تنظيمها، وذلك بحيث تنجز بطرق، بذاتها، فى باطن خلية حية، قد أصيبت بهذا الفيروس، أو كما يروق للبعض أن يسمى خلية كهذه، فى كثير من الأحيان، خلية مضيفة (Wirtzelle). ولقد أثبتت الدراسات الكيمياحيوية، وكذا الدراسات، التى تعالج تاريخ التطور الوراثى (genetische Untersuchungen) أن تعميم نتائج البحوث، التى لخصناها بعاليه، أمر فى حيز الأمكان، وبذا فهى حقائق ذات صفة عامة، جديرة بأثباتها، فى الصيغة العامة التالية :

تقوم الجزيئات الزلالية بأنجاز جميع العمليات الخاصة بالتحول الغذائى، وذلك فى حين أن جزيئات الأحماض النووية، هى المسؤولة، وحدها، عن المعلومات الوراثية من جهة، كما أنها مسؤولة، من جهة أخرى

أيضا، عن التحكم فى تكييف عمليات التحول الغذائى، وكذا عن تنظيمها، بحيث تنجز بطرق، بذاتها. ومجمل القول، هو أن هذين الصنفين من الجزيئات، هما أصغر التكوينات، التى تحمل أسس الحياة، وخواصها البارزة.

يتبين مما تقدم، أنه من المفيد، ألا تقتصر العلوم البيولوجية على علم حياة النبات، وعلم حياة الحيوان، وعلم حياة الكائنات المجهرية (الميكروسكوبية)، فقط وذلك نظرا لأن دراسة مواضيع حيوية كثيرة، تتطلب أن نخصص، علاوة على ذلك، فرعا خاصا من البيولوجيا، لدراسة خواص جزيئات الأحماض النووية، وكذا لدراسة خواص الجزيئات الزلالية، دراسة مستفيضة، ونعنى بذلك «علم حياة الجزيئات».

ويمكن تصنيف هذا العلم، الحديث نسبيا، بطريقتين مختلفتين، بين أنواع العلوم الطبيعية، والانسانية الروحية، المختلفة :

الأولى : يعتبر علم حياة الجزيئات شطرا من علم الكيمياء الحيوية، (Biochemie)، اذ أن الكيمياء الحيوية تعالج، منذ نشأتها، كل ما يتعلق بالأحماض النووية، وبالزلاليات، من مواضيع ومسائل. ويكفى للتدليل على ذلك، أن نشير هنا، الى تلك البحوث القيمة المبتكرة، التى قام بها، كل من، فردريك ميشر (Friedrich Miescher)، عام ١٨٦٩، وأميل فشر (Emil Fischer)، فى أوائل هذا القرن

الثانية : يتعدى علم حياة الجزيئات، من جهة أخرى، حدود الكيمياء الحيوية، فمواضيعه متشعبة فى نواح كثيرة، يتطلب بحثها ابتكار وتعاون رهط عديد من علماء، قد تخصصوا فى شتى نواحى المعرفة، من طب، وعلوم أحياء، وجيولوجيا، الى الكيمياء، والفيزياء، والرياضة، وغير ذلك من نواحى التخصص المطلوبة، مثل الفلسفة، والدين. وهو ابتكار وتعاون قد بدآ بالفعل، وأصبحا على درجة كبيرة من الأهمية، كما أن الحاجة اليهما قد أصبحت ماسة، لكيما نتمكن من تطوير «علم حياة الجزيئات»، فى المستقبل، تطويرا مثمرا منتجا، يعود على البشرية بالخير.

أما الناحية الكيميائية من «علم حياة الجزيئات» فهى تعالج الأسس الكيميائية، التى بنيت عليها تلك المنجزات والعمليات، الحيوية، التى تقوم الأحماض النووية، وكذا الزلاليات، بأدائها. وجدير بالذكر، أن المواد التى يتناولها هذا العلم بالدرس، لا تقتصر على مواد هتين المجموعتين فقط — ومعلوم أنها أهم البوليميرات الحيوية (-Biopoly meren)، أى أهم الجزيئات الحيوية ذات الأصل المتضاعف — بل يعالج هذا العلم، أيضا، الليبيدات (Lipide)، وهذه مواد تشبه الدهنيات فى تركيبها، وكذا البوليسخاريدات (Polysaccharide)، وهى مجموعة من المواد تحتوى على النشويات، وعلى الكربوهيدرات أى السكر، وغيرها، وكل هذه مواد تقوم بأدوار هامة مساعدة، عند تطوير أبسط التكوينات الحية، الى تكوينات أرقى منها، مثل، أغشية الخلايا الحية، وكذا الأجهزة العصبية، وغير ذلك، مما يبين أهمية البحث فى هذا الاتجاه، وخصوصا، من الناحية الطبية.

٤) الجزيئات، التى تحمل المعلومات الحيويـة : يستخدم من يريد أن يحاضر سامعيه، أو أن يكتب لقرائه، فى موضوع ما، حروفا هجائية ينطقها أو يكتبها بترتيبات معينة، نسميها كلمات وجمل. وتحتوى هذه الكلمات والجمل على أعداد متغيرة من كل حرف من الحروف الهجائية المختلفة، كما أن هذه الحروف لا تتابع فيها، على وتيرة واحدة.

وتسمى عملية كهذه، تتابع فيها الرموز المنطوقة، أو المكتوبة الواحد تلو الآخر، بقصد الأعلام، عملية استوخاستية (Stochastischer Prozess)

وليس استخدام العمليات الاستوخاستية، للتعبير أو للتفاهم، بجديد على الأحياء، التى تعيش على كوكبنا، كما أنها ليست مقصورة أيضا، على اللغات المختلفة، التى يستخدمها البشر للتفاهم فيما بينهم، أذ أن هذه العمليات قد استخدمت لتدوين كل المعلومات الحيوية، التى تحملها البروتينات والأحماض النووية، التى تدخل فى تكوين كل كائن حى، وذلك منذ أن نشأت هذه الكائنات.

وبيان ذلك، أن بنان البروتينات، وكذا بنان الأحماض النووية، تشبه، فى تكوينها، سلاسلا طويلة، تتكون، كل واحدة منها، من عدد معين من حلقات، تختلف كل حلقة منها عن الأخرى فى النوع. فأذا ما رمزنا لكل نوع، من هذه الحلقات بحرف هجائى خاص بها، وذلك للاستدلال عليها، لوجدنا أن كل حلقة، من نوع بذاته، تتكرر فى أية سلسلة، من هذه السلاسل، عددا معينا من المرات، بترتيب خاص، بالنسبة لحلقات السلسلة الأخرى، وذلك بنفس الطريقة التى يتكرر بها، مثلا، ذلك الحرف الهجائى، الذى يدل على هذا النوع من الحلقات، فى مواضع بذاتها، بالنسبة للحروف الأخرى،

التى تكون، فى مجموعها، جملا، ذات مفاهيم معينة، قد كتبت بلغة من اللغات العادية.

١,٤) لغة البروتينات، أى الزلاليات : يحمل كل نوع من جزيئات البوليبيبتيدات (Polypeptidmoleküle)، أى الزلاليات المختلفة، تلك المعلومات الحيوية، التى تمكنه من أداء الوظيفة الحيوية، الخاصة به، واليك بعض الأمثلة على أنواع الزلاليات، وعلى الوظائف التى تقوم بها :

الأنزيمات : تحمل المعلومات الحيوية، التى تمكنها، فى أطار كل عملية، من عمليات التحول الغذائى العديدة، المتنوعة، من التعرف على جزيئات السوبستـرات (Substratmoleküle)، أى على جزيئات ذلك المركب الكيميائى، الذى يتعين على أنزيم، بذاته، أن يتناول تركيبه الكيميائى بالتغيير (Substrat)، وكذا على تلك المعلومات الحيوية، التى تمكن ذلك الأنزيم من الأمساك بهذه الجزيئات، ومن تغيير تركيب السوبسترات الكيميائى، على الوجه المطلوب.

الهرمونات : تحمل المعلومات الحيوية، التى تمكنها، فى كل حالة بذاتها، من التعرف على خلايا الكائن الحى، وعلى أعضائه، المختلفة، كما يحمل كل هرمون منها، أيضا، المعلومات التى تمكنه من تنظيم إنجاز عمليات التحول الغذائى، الى تتم فى باطن الخلايا أو الأعضاء، التى تدخل فى أختصاصه.

الأجسام المدافعة، أو المضادة : تحمل المعلومات الحيوية، التى تمكنها من التعرف، فى كل حالة بذاتها، على المادة السامة، أو الفيروس أو الميكروب، كما يحمل كل جسم مضاد منها أيضا، المعلومات، التى تمكنه من أطلاق عملية الدفاع عن حياة الكائن، من عقالها، ومن عرقلة الفتك به.

الزلاليات الناقلة : تحمل المعلومات الحيوية، التى تمكنها، فى كل حالة بذاتها، من نقل الطاقة، أو نقل المواد المختلفة، من مكان الى آخر، فى بنية الكائن الحى.

زد على ذلك أنواعا أخرى من البروتينات، تقوم بوظائف أخرى، بالاضافة الى ما تقدم، نخص بالذكر منها مثلا، أنه من المحتمل، أن ذاكرة الأنسان تعتمد على بعض المعلومات، التى تحملها زلاليات بنية الأنسان وأحماضها النووية، فى القيام بمنجزاتها، أى أن هذه المعلومات، هى التى تجعل الأنسان قادرا على أن يتذكر ما مضى.

يظهر من الأمثلة، التى أوردناها بعاليه، أن لغة البروتينات لابد وأن تكون لغة غنية بمفرداتها، وبجملها، وبتراكيبها. ولا غرو فى ذلك، إذ أن أبجدية هذه اللغة، تحتوى على عشرين تركيبا كيميائيا مختلفا، يمثل كل واحد منها حرفا هجائيا، من حروف أبجديتها، أى ما يقرب من عدد حروف أبجدية لغة أوروبية حية، كاللغة الألمانيه مثلا. ويهمنا أن نشير الى أن كل كلمة، أو جملة من كلمات لغة البروتينات، وجملها المختلفة، تحتوى على عدد خاص بها من حروف هذه اللغة الهجائية، يتراوح ما بين ستة حروف، ونحو ثلاثمئة حرف هجائى، أى أن عدد المركبات الكيميائية المختلفة، التى تدخل فى تركيب جزئ واحد من جزيئات البروتينات، العديدة المتنوعة، يتراوح بين هذه الأرقام تقريبا.

أما ما نعبر عنه بقولنا «حروف لغة البروتينات» الهجائية، وأن شئت، بقولنا «أحجار بناء الزلاليات»، فهى مركبات كيميائية شديدة التعقيد، يسميها الكيميائيون أحماضا أمينية (Aminosäuren)، كما يرمزون لكل منها، تبسيطا لمعادلات تكويناتها الكيميائية، المعقدة، بثلاثة حروف هجائية صغيرة، أو بحرف واحد كبير، من أبجديات اللغات الأوروبية، مما يعزز أوجه الشبه، بين لغة البروتينات، وبين اللغات العادية.

وأذا ما درسنا أنواع البروتينات المختلفة، دراسة إحصائية، لوجدنا شبها كبيرا بين طريقة توزيع حمض أمينى، بذاته، فى جزئ من جزيئاتها، وتكرار هذا الحمض فيه، وبين طريقة توزيع حرف هجائى عادى، بذاته، فى كلمة أو جملة عادية، وتكرار هذا الحرف فيها.

ولقد تبين، علاوة على ذلك، أن أنجاز عملية ما، من العمليات الحيوية، يتطلب ترتيب عدة أحماض أمينية معينة، بطريقة محددة، خاصة بهذه العملية الحيوية، وحدها. وبذلك يشبه مفهوم پروتايين معين، بلغة البروتينات مفهوم جملة، مدونة بلغة عادية، وذلك من حيث أن جملة، كهذه، لا تفيد مفهوما بذاته، الا أذا أحتوت على عدد معين من حروف هذه اللغة الهجائية، وألا أذا رتبت هذه الحروف، الواحد منها تلو الآخر، بنظام محدد، يتوقف على المفهوم المقصود، وكذا، على قواعد هذه اللغة.

٢,٤) لغة الأحماض النووية : تحمل الأحماض النووية كل المعلومات الوراثية، وكذا كل المعلومات اللازمة للتحكم فى تكييف عمليات التحول الغذائى، وتنظيمها، وهى مدونة، فى جزيئاتها، بلغة الأحماض النووية. ولا تحتوى أبجدية هذه اللغة، ألا على أربعة حروف هجائية فقط، كما أن كل كلمة من كلماتها تتكون من ثلاثة حروف هجائية فحسب. وبذلك يبلغ عدد كلمات لغة الأحماض

◄ سحاب النجوم فى درب التبانة فى برج الدلو. صورة من مرصد ماونت ڤيلسون وپالومار بكاليفورنيا.

النووية (٤^٢ = ٦٤) كلمة فقط. ولقد توصلنا لهذه المعلومات القيمة، عن تلك اللغة، منذ فترة وجيزة من الزمن، وقد كان ذلك بفضل ما قام به نخبة من العلماء، وعلى رأسهم كريك (Crick)، وكهورانا (Khorana)، ونيرنبرج (Nirenberg)، من بحوث مبتكرة، فى التطور الوراثى (genetisch)، وكذا فى تركيب المواد، تركيبا كيميائيا اصطناعيا (synthetisch-chemisch)، وأخيرا فى الكيمياء الحيوية (biochemisch).

أما حروف لغة الأحماض النووية الأربعة، فهى وحدات كيميائية، فى غاية التعقيد، يسميها الكيميائيون نيوكليوتيدات (Nukleotide)، وهى مركبات، جزيئاتها كبيرة، ذات أصل متضاعف، مقرها نواة الخلية. ويبدو أن لغة الأحماض النووية، لغة عامة شاملة، بمعنى أن مفهوم كل كلمة، من كلماتها، هو مفهوم ثابت لا يتغير، فى جميع الأحياء التى تعيش فى الوقت الحاضر، وأغلب الظن، أن هذه الكلمات، بذاتها، كانت تؤدى نفس هذه المفاهيم، فى الأحياء، التى انقرضت، على مر الزمن، أيضا.

وتتوقف كمية المعلومات، التى تحملها المادة الوراثية، وأن شئت، الكتلة الوراثية (Erbmasse) على درجة ارتقاء الكائن الحى، فأن كانت بنيته بسيطة التركيب، كانت هذه المعلومات قليلة مختصرة، وكلما ازدادت بنية الكائن الحى تعقيدا، بارتقائه الى درجة أسمى، كلما ازدادت هذه المعلومات تفصيلا. ففى بعض البنان المجهرية الحية، مثلا، لا يزيد طول جزيئات الأحماض النووية، التى تحمل المعلومات الوراثية على نحو ملليمتر واحد، كما أن أقطارها، لا تزيد على (٢٠) أنجستروم(٣)، وهى جزيئات مركزة فيما يسمى كروموزومات (Chromosomen) أو صبغيات. وتحتوى هذه الجزيئات على نحو ثلاثة ملايين حرف هجائى، أو على ما يقرب من مليون كلمة من كلمات هذه اللغة. وعلى فرض أن الصفحة من صفحات كتاب مدرسى، مكتوب باللغة الألمانية مثلا، تحتوى على ثلاثة آلاف حرف هجائى، نجد أن تدوين كل ما يتطلبه تكوين كائن مجهرى، وكذا ما يتطلبه تسيير عملياته الحيوية، من معلومات وراثية، يحتاج الى ألف صفحة من صفحات هذا الكتاب المدرسى. وإذا ما راعينا، أن مفاهيم كلمات لغة الأحماض النووية، أكثر تركيزا من مفاهيم كلمات اللغة الألمانية، نرى أن تدوين هذه المعلومات الوراثية، باللغة الألمانية، يحتاج الى عدد من الصفحات، يزيد على هذه الصفحات الألف، بقدر كبير. ذلكم الحيز الكبير، هو، على وجه التقريب، الحيز الذى يتطلبه تفصيل المعلومات الوراثية اللازمة لتكوين بنية ميكروب ضئيل، ولتمتعه بالحياة، أن هى كتبت باللغة الألمانية، مثلا، أو بأية لغة أوروبية أخرى.

وفى حالة، جزيئات الأحماض النووية، المركزة فى الست وأربعين صبغية، التى توجد فى بويضة بشرية، وهى تلك الصبغيات التى تحمل المعلومات الوراثية، الخاصة بالأنسان، فأن طول هذه الجزيئات، يبلغ نحو متر واحد، تقريبا. ولو أن هذه الجزيئات، كانت جزيئات حبل من حبال تسلق الجبال، قطره يبلغ عشر ملليمترات، مثلا، لبلغ طول هذا الحبل خمسة آلاف كيلومتر تقريبا، وحتى أذا ما فرضنا أن بنان بعض جزيئات الأحماض النووية، قد تكون من نسخ متطابقة، تماما، لوجدنا، على الرغم من ذلك، أن تدوين المعلومات الحيوية، الخاصة ببنية الأنسان، وبخواصه وبمنجزاته، لازال يتطلب مكتبة قوامها ألف كتاب، أو تزيد، أن هى كتبت باللغة الألمانية، على أساس ما قدمناه من فروض. أما المساحة الفعلية، التى يتطلبها تدوين هذه المعلومات الحيوية، كلها، بلغة الأحماض النووية، فى الطبيعة، فلاتبلغ ألا ثلاثة على مليار، من الملليمتر المربع، وهى، لعمرى، مساحة تبلغ حدا من الضآلة، يجعل تكوين جزيئات الأحماض النووية مثلا أعلى، يقتدى به، عند تصميم حافظات تخزين المعلومات، بالعقول الألكترونية.

ويجب أن تورث هذه المعلومات الوراثية، الى الخلف، من جهة، كما يجب أن تتولى هذه المعلومات من جهة أخرى، التحكم فى تكييف عمليات التحول الغذائى، وتنظيمها، فى باطن الكائن الحى.

٤،٣) فاعلية الأنزيمات عند التوريث للخلف: عندما تنشطر خلية حية الى خليتين، أحداهما أصلية ولنسميها، للاختصار، «الأم»، والأخرى فرعية، ولنسميها «البنت»، تقوم أنزيمات، قد تخصصت فى ذلك، بنسخ كافة المعلومات الوراثية، التى تحملها الأم، نسخا طبق الأصل، أى أن هذه الأنزيمات تعد، بحروف هجائية جديدة، من النيوكليوتيدات، نسخة(٤)، طبق الأصل، من الأحماض النووية، الموجودة بالأم، وذلك بحيث تستخدم الجزيئات القديمة كأصل لهذا النسخ، وأن شئت كأصل لهذا الطبع، ثم تحصل البنت، بعد ذلك، على نسخة، ذات صورتين، موجبة وسالبة، كما سنبين ذلك، فيما بعد.

ويهمنا، أن نشير، هنا، الى تلك البحوث الثورية، التى

قام بها عالمي التطور الوراثي واطسون (Watson)، وكريك (Crick)، وكذا عالم البلورات ولكنز (Wilkins)، إذ أن هذه البحوث، تمكن القارئ، من أن يتصور كيميائيات العمليات، التي يتم النسخ أو الطبع بها، بالتفصيل. وبيان ذلك، خطوة بعد خطوة، فيما يلي :

أولا : ليتصور القارئ، خيطا من جزيئات الأحماض النووية، أي من الجزيئات، التي تحمل المعلومات الوراثية بالأم، ولنتمثل هذا الخيط، بمثابة صورة شمسية (فوتوغرافية) موجبة، لصفحة كتاب، قد دونت هذه المعلومات الوراثية فيها، بلغة ما، من اللغات العادية. وبذا، يمثل هذا الخيط، ولنسميه الخيط الأول، أصل المعلومات الوراثية الموجب، بالخلية الأم، مدون بلغة الأحماض النووية.

ثانيا : لنتخيل، الى جانب هذا الخيط الأول مجموعة ثانية من جزيئات الأحماض النووية، مكملة للمجموعة الأولى، وقد نظمت جزيئات المجموعة الثانية، بالمثل، في خيط ثان، نتمثله، بمثابة فلم أو صورة سالبة من صفحة ذلك الكتاب. وبذا يمثل الخيط الثاني أصل المعلومات الوراثية السالب، بالخلية الأم، مدون، أيضا، بلغة الأحماض النووية.

ثالثا : الخيطان الأول والثاني، وأن شئت، الأصلان السالب والموجب، متقاربان في باطن الخلية الأم، من بعضهما تقاربا شديدا، وقد لف كل منهما حول الآخر لفا لولبيا. وتعرف هذه المجموعة من الجزيئات، بأكملها، بما يسمى لولب (DNS) ذو البابين. أما الحروف الهجائية (DNS) فترمز الى أحماض ديزوكسيريبو النوويـة (Desoxyribonukleinsäure)، وهي من البولينيوكليوتيدات أي أنها من الأحماض النوويـــة الأصليـة.

رابعـا : من المرجح، أن هذين الخطين ينفصلان عن بعضهما، قبل انشطار الخلية الأم، الى خليتين متطابقتين، أي قبل انشطارها الى أم وبنت.

خامسا : تنسخ أنزيمات، قد تخصصت في هذه العملية، من الأصل الموجب، فلما جديدا، أي صورة سالبة جديدة، كما أنها تنسخ من الأصل السالب، أي من الفلم الأصلي، صورة موجبة جديدة، وبذا تحصل البنت على صورتين سالبة وموجبة، طبق الأصل، من الأصلين الموجب والسالب، اللذين تحمل الخلية الأم فيهما، كافة المعلومات الوراثية.

ومجمل القول، هو أن المعلومات الوراثية تنتقل من جيل الى الجيل الذي يليه، بنسخها، نسخا طبق الأصل.

٤،٤) كيف تنجز عمليات التحول الغذائي في باطن الكائن الحي ؟: تحدث في باطن أي كائن حي عادي، مئات من التفاعلات الكيميائية يتم بعضها آنيا، أي في نفس الوقت، كما يتم البعض الآخر، خلال فترات زمنية متعاقبة. ولكل عملية من هذه العمليات، أنزيم متخصص فيها، وظيفته الحيوية، هي إنجاز هذه العملية، بالذات، دون غيرها. وتقوم بروتينات منظمة، أو ما نسميه هرمونات فيما ارتقى من الكائنات الحية، بتوقيت أنجاز هذه العمليات. وجدير بالذكر أن معظم الهرمونات، بما في ذلك أهمها للحياة، هي في حقيقة الأمر، بروتينات أيضا.

ولقد قام نفر من الكيميائيين، ومن البيولوجيين من أمثال كين (Kühn)، وبوتنانـدت (Butenandt)، وبيـدل (Beadle)، وهـوروتز (Horowitz)، وكثير غير هـؤلاء، أثناء أربعينيات، وخمسينيات هذا القرن، ببحوث مبتكرة انبثقت عنها الحقيقة الهامة التالية :

> تقوم كل مورثة (Gen) أي كل ناسلة من المورثات، أي الناسلات، العديدة، الموجودة بالكروموزومات أي بالمادة الوراثية، بتكوين أنزيم واحد فقط، تكوينا حيويـــا.

ولقد صيغت هذه الحقيقة الهامة، في الفرض المعروف الذي يعبر الاخصائيون عنه بقولهم :

> «مورثة أي ناسلة واحدة ــ أنزيم واحد.»

ولقد أثبتت الأيام صحة هذا الفرض، من حيث الجوهر، ثم تطور الى نظرية أدق منه تعبيرا. أما عن مضمون هذه النظرية، فهو ما يعبرون عنه بقولهم :

«زيسترون واحد ــ بروتايين واحد، أوزيسترون واحد ــ بوليبيتيد واحد.» ومضمون هذه النظرية، على مستوى الجزيئات، هو أن معنى زيسترون (Zistron) واحـد، أي أن معنى جزء صغير، من جزئ من جزيئات الأحماض النووية، يناظر معنى جملة بأكملها، من جمل الكتاب، الذي دونت المعلومات الوراثية فيه، كما أن جملة، كهذه، تتضمن المعلومات الوراثية، أي التعليمات اللازمة، لتكوين، وأن شئت، لبناء جزيء، واحد، من البروتايين، بذاته، سواء في ذلك، أكان هذا الجزئ أنزيما، أم كان هرمونا، أم كان بروتايينا منظما، أم كان من أي نوع آخر، من أنواع البروتينات المختلفـة العديدة.

وتقوم أنزيمات، معينة، قد تخصصت في ذلك، بنسخ هذه التعليمات بلهجة لغوية خاصة، تسمى لهجة الأحماض الريبونووية (Ribonukleinsäuresprache)، وهي أحدى

لهجات لغة ٱلأحماض الديزوكسيريبونووية، التى دونت ٱلمعلومات الوراثية بها. ثم أن الرسالة، ٱلمنسوخة، بهذه ٱللهجة ٱلخاصة، تنتقل من الكروموزومات، ٱلمستقرة فى نواة ٱلخلية، الى مكتب التّرجمة. ويتكون هذا ٱلمكتب من كرات ضئيلة جدا، تسمى ريبوزومات (Ribosomen) منتشرة فى بلازما ٱلخلية (Zellplasma)، حيث تترجم، هذه الرسالة، الى لغة البروتينات. وتتلخص عملية الترجمة، نفسها، فى ترتيب ٱلأحماض ٱلأمينية ٱلمختلفة، (وهذه هى، كما أسلفنا، حروف لغة البروتينات ٱلهجائية) بذلك الترتيب الصحيح، الذى ينص عليه مفهوم الكلمـات، التى وردت بهذه الرسالة، أى تلك الكلمات التى كانت قد كتبت بحروف هجائية، من النيوكليوتيدات. هذا، ويقوم مكتب الترجمة، علاوة على ذلك، بتكوين جزيئات البروتينات، أى بتركيب الاحماض النووية، وأن شئت، أحجار بناء الزلاليات، تركيبا كيميائيا صحيحا، مع بعضها البعض، وذلك بعد أن رتبها على الوجه، الذى فصلناه بعاليه. وغنى عن البيان أن كل حمض أمينى، بذاته، أى كل حجر من أحجار بناء البروتينات، يناظر كلمة، بذاتها، من كلمات شفرة الأحماض النووية.

ومجمل القول، هو أن ٱلمعلومات الوراثية، التى تحملها ٱلمادة الوراثية تترجم، بهذه الطريقة، الى معلومات تستخدم فى التحكم فى تكييف عمليات التحول الغذائى، وتنظيمها فى باطن الكائن ٱلحى. وبذا فأن ٱلمخططات، أوبعبارة أخرى، التصميمات، التى تحملها ٱلأحماض النووية، تستخدم فى بناء ٱلآلات — وهى فى حالتنا هذه، البروتينات — تقوم بأنجاز كافة عمليات التحول الغذائى بطرق معينة، أى بمقتضى برامج محددة.

ولما كانت ٱلخلية ٱلبنت، قد حصلت على صورتين، طبق ٱلأصل، من ٱلأصلين ٱلموجب والسالب، ٱللذين تحملهما ٱلخلية ٱلأم، فأن بنان البروتينات ٱلمختلفة، تبنى فى كلتا ٱلخليتين، فى تكوينات متطابقة تماما، كما أن التحكم فى تكييف عمليات التحول الغذائى ينجز، فى باطن كل خلية منهما، على وتيرة واحدة، أى أن ٱلخلية البنت، قد ورثت عن أمها، كل طرق أنجاز عمليات التحول الغذائى، بالتفصيل.

٤،٥) العلاقة بين وظائف ٱلأحماض النووية، ووظائف البروتينات، ٱلحيوية : يتبين مما تقدم، أن العلاقة بين وظائف ٱلأحماض النووية، ٱلحيوية، وبين وظائف البروتينات، ٱلحيوية، هى علاقة معقدة، أشد التعقيد، نلخصها، فيما يلى، بعبارة سهلة مبسطة : تحمل جزيئات ٱلأحماض النووية ٱلمخططات، وأن شئت، التصميمات، التى تبنى هذه ٱلجزيئات، نفسها، وكذا جزيئات البروتينات، بمقتضاها. وليست جزيئات ٱلأحماض النووية بقادرة على تنفيذ هذه ٱلمخططات بنفسها، كما أننا نود أن ننبه، بصفة خاصة، الى أن هذه ٱلجزيئات ليست بقادرة أيضا، لا على التكاثر بنفسها، ولا على أن تنسخ نفسها، بنفسها.

أما ٱلجزيئات، التى تتولى تنفيذ هذه ٱلمخططات، فهى أنزيمات معينة، تقوم ببناء نفسها، بنفسها، كما تقوم، أيضا، ببناء ٱلجزيئات الزلالية ٱلأخرى، وكذا ببناء جزيئات ٱلأحماض النووية، أى أن هذه ٱلأنزيمات هى التى تنجز خاصة التكاثر، التى تتميز ٱلأحياء بها. وإذا ما ٱنعدمت تلك ٱلمخططات، فأن هذه ٱلأنزيمات، تصبح عاجزة عن بناء أى جزئ، من هذه ٱلجزيئات.

نستخلص، مما تقدم، أن توزيع السلطات، فى باطن الكائن ٱلحى واضح، يكاد ٱلأنسان، أن يراه رأى العين، فالسلطة التشريعية، من ٱختصاص ٱلأحماض النووية، كما أن السلطة التنفيذية، من ٱختصاص البروتينات. زد على ذلك أن أى نوع من هذه ٱلجزيئات، لا يقوى على ٱلحياة، بدون النوع ٱلآخر.

٥) معانى البروتينات، البيولوجية، أى معانى كلمات لغة البروتينات وجملها، البيولوجية : ليس من شك، أن هذا التصوير النظرى، لقدرة ٱلأحماض النووية، والبروتينات، على التعبير، وعلى ٱلأعلام، لتصوير فى غاية الطرافة، كما أنه، علاوة على ذلك، تصوير مفيد للغاية. ولعل القارئ يذكر ما أسلفناه، من تشبيه بنان هذين الصنفين، من ٱلجزيئات، بالعمليات ٱلأستوخاستية، التى يستخدمها البشر، فى أطار ٱللغات ٱلمختلفة، للتفاهم فيما بينهم، وبذا فأننا نعتقد أن تناول لغتى ٱلأحماض النووية، والبروتينات بالمزيد من الشرح وٱلأيضاح، لا يخلو من طرافة وفائدة، وخصوصا، أذا ما ركزنا البحث، فيما يلى، على لغة البروتينات، وهى تلك ٱللغة الغنية بمفرداتها، وبتركيباتها ٱللغويـة.

وأول ما يخطر ببال ٱلأنسان، عندما يحاول فك طلاسم هاتين ٱللغتين، هو ٱستخدام نظريات علم ٱلأحصاء، وذلك للكشف عن تلك القواعد ٱللغوية، التى كانت قد ٱستخدمت عند تكوين جمل هاتين ٱللغتين، للتعبير عن مفاهيم، بذاتها، وذلك قياسا على ٱستخدام نظريات علم ٱلأحصاء، عند فك طلاسم لغة، قد ٱندثرت، وأصبحت مجهولة، لا يفهمها أحد. وغنى عن البيان أن هذا قياس

مع الفارق، إذ يجب أن يسبق تطبيق القواعد الأحصائية، على هاتين اللغتين البيولوجيتين، أجراء بحوث كيميائية مضنية، فى غاية التعقيد، ترمى الى الكشف عن الطرق، التى تتابع بها حروف هاتين اللغتين الهجائية ثم يأتى، بعد ذلك، تطبيق القواعد الأحصائية لفهم معانى الحروف الهجائية، ذاتها، وكذا لفهم الكلمات، وذلك تمهيدا لفهم الجمل والقواعد اللغوية.

ولقد حاول كاتب هذا المقال، ومساعدوه، أن يعالجوا فك طلاسم هاتين اللغتين، بطريقة أخرى، تختلف، فى جوهرها، عما أسلفنا، من أستخدام قواعد علم الأحصاء، لهذا الغرض، وذلك بتركيب جزيئات البوليببتيدات، ذات الفاعلية الحيوية، تركيبا كيميائيا أصطناعيا (chemische Synthese). هذا، ولقد ركزوا جهودهم، بصفة خاصة، على تركيب الهرمونات الزلالية، بالتجارب العملية. ولهذه الطريقة، المبتكرة الجديدة، مزايا عديدة، منها أنها تسمح للباحث، بأن يستبدل ما يريد من الحروف الهجائية، التى تدخل فى تركيب جزئ ما، بحروف أخرى غيرها، كما أنها تسمح له، أيضا، بحذف أجزاء بأكملها، من تكوين هذا الجزئ.

وبذا يمكن فحص كل منطقة، من مناطق هذا الجزئ، فحصا علميا منظما، كما يمكن الكشف أيضا، عن المعلومات الحيوية، التى يحملها جزء معين، بذاته، من بين أجزائه المختلفة. ولقد ظهر من أستخدام هذه الطريقة، للمرة الأولى، أن المعلومات الحيوية، التى يحملها أى جزئ زلالى، قد صيغت فى كلمات، كل منها مستقلة بذاتها، ذات معنى، يختلف عن معانى الكلمات الأخرى.

ولعله من المفيد، أن نضرب مثلين على تطبيق هذه الطريقة يبينان مدى فوائدها العملية، وخصوصا، فيما يتعلق بالعلاج الطبى.

المثال الأول: الهرمون الأدرينوكورتيكوتروبى (Adreno-corticotropes Hormon)، ويرمز له بالحروف الهجائية العادية (ACTH)، وهو أحد الهرمونات، التى تفرزها الغدة النخامية(٥)، كما أن وظيفته الحيوية، فى غاية الأهمية، أذ أنه ينظم قيام غدد القشرة الجاركلوية بوظائفها، وينبهها، لكيما تفرز الهرمونات الأسترودية (Steroidhormone)، مثل الكورتيزون (Cortison)، والديزوكسيكورتيكوستيرون (Desoxycorticosteron). ويؤثر الهرمون (ACTH)، علاوة على ذلك، على الخلايا، حاملة الصبغ الأسود (melanophore Zellen)، وذلك فى الحيوانات البرمائية، على وجه الخصوص، مما يجعل جلودها تصطبغ باللون الأسود. ويتكون هذا الهرمون من (٣٩) حرفا، من حروف لغة البروتينات الهجائية، أى أن عدد أحجار بنائه، يبلغ (٣٩) حمضا أمينيا، وبذا فهو، من أشد الزلاليات، التى ركبت أصطناعيا، الى الآن، تعقيدا، كما أن سلسلة جزيئاته، تعد من أطول سلاسل هذه الجزيئات.

هذا وتتابع الحروف الهجائية، التى ترمز الى تكوينه، وكذا الى معناه، بلغة البروتينات، على النحو التالى:

S-O-S-M-E-H-F-R-W-G-K-P-V-G-K-K-R-R-P-
V-K-V-O-P-D-G-A-E-D-Q-L-A-E-A-F-P-L-E-F.

ولقد سبقت الأشارة الى أن كل حرف من هذه الحروف الهجائية، يرمز الى نوع من الأحماض الأمينية، بذاته.

وأما الكلمة الرئيسية (M-E-H-F-R-W-G)، فى هذه الجملة، فتتكون من الحرف الرابع، الى العاشر، من بين الحروف المذكورة أعلاه، وهى تحمل المعلومات الحيوية، الأساسية، الخاصة بالتأثير على الخلايا، حاملة الصبغ الأسود. وتتضاعف فاعلية هذا التأثير من عشرة آلاف الى مئة ألف مرة بمقتضى مفهومى كلمتين أثنتين، الأولى (S-O-S)، من الحرف الأول، الى الثالث، والثانية (K-P-V)، من الحرف الحادى عشر، الى الثالث عشر. وبأضافة الحروف (G-K-K-R-R)، من الحرف الرابع عشر، الى الثامن عشر، يصبح مفهوم التعليمات، التى تنص، هذه الحروف عليها مجتمعة، كما يلى:

خفف التأثير على الخلايا حاملة الصبغ الأسود، وأستبدله بالتأثير على القشرة جارالكلوية.

وهكذا، تصدر عن الغدة النخامية، تعليمات جديدة، فى نوعها، موجهة الى غدد القشرة جارالكلوية بالذات. وأما الحروف الهجائية الباقية، من الحروف التاسع عشر، الى التاسع والثلاثين فأنها تفيد بتعليمات، جوهرها نوع من التوصية، بأجراء التسهيلات اللازمة، لانتقال هذا الهرمون، من الغدة النخامية الى القشرة جارالكلوية، عن طريق الأوعية الدموية. ويهمنا أن نشير، الآن، الى مفهوم الحروف (D-G-A-E-D-Q-L-A-E)، من الحرف الخامس والعشرين، الى الثالث والثلاثين، بصفة خاصة، أذ أنها تحدد نوع الحيوان، الذى ينتمى هذا الهرمون اليه، وبذا تتمكن الأجسام المضادة، بواسطة هذه العلامة المميزة، من التعرف على سلالة هذا الهرمون، فأن كان من نوعها كفت عن أبطال فاعليته، وأن كان هذا الهرمون ينتمى الى سلالة غريبة، على الجسم، الذى يوجد

فيه، أطلقت هذه العلامة المميزة، بذاتها، مناعة ذلك الجسم، من عقالها، دفاعاً عن حياته.

ولقد انبثقت عن هذه البحوث، خبرة ومعلومات، ذات فوائد عملية، منها ما يلي :

بحذف الجزء، الذى يؤثر على الأجسام المضادة، أى من الحرف الخامس والعشرين، الى التاسع والثلاثين، أمكن تركيب دواء أصطناعى (synthetisches Heilmittel)، جديد، لا يضر المريض أطلاقا، أذ أنه لا يطلق مناعة جسمه، من عقالها، كما أنه لا يسبب له أية عوارض حساسية (allergische Erscheinungen) أبدا، وذلك بعكس الأدوية المماثلة، التى كانت تستخلص، قبل ذلك، من غدد بعض الحيوانات. ولعله من المفيد، أن نذكر، هنا، أن أسم هذا الدواء التجارى، هو «سيناكتين» (Synacthen).

المثال الثانى : هرمون الأنسجة الحية المسمى أنجيوتنسين (Angiotensin)، ووظيفته تنظيم ضغط الدم، وكذا تنظيم أداء الكلى لوظائفها الحيوية، وهو ذلك الهرمون، الذى يرمز الى تكوينه، وكذا للمعلومات الحيوية، التى يحملها، بالحروف العادية (D-R-V-O-V-H-P-F). ولقد صيغت المعلومات الحيوية، فى هذه الحالة أيضا، فى كلمات مستقلة، تفيد، كل كلمة منها، معنى خاصا بها. ومما يلفت النظر، وجود الحمض الأمينى (D)، فى كلمة من بين هذه الكلمات. وأما وجه الغرابة فى ذلك، فهو أن وجود هذا الحمض، فى تركيب هذا الجزئ، يمنع جميع الأنزيمات الهادمة، الموجودة بالدم، من هدمه، على وجه السرعة. ويستثنى من ذلك أنزيم واحد فقط، له القدرة على مهاجمة هذا الجزئ، أذ يبدو، أن هذا الأنزيم متخصص فى هدم كل ما زاد عن حاجة الجسم، من الهرمونات، على الفور. أما من حيث العلاج، بواسطة الأنجيوتنسين الاصطناعى (synthetisches Angiotensin)، أى المركب تركيبا كيميائيا أصطناعيا، (وهو علاج يلزم عند تعرض شخص ما، لصدمة عنيفة، نشأت عن أصابته بجروح خطرة على حياته، أو عند أجراء جراحة خطيرة له) فأنه يجب حقن هذه الهرمونات فى الوريد. ويرجع ذلك، الى أن حقن المريض بأدوية، كهذه، فى العضل، أو تحت الجلد، من شأنه أبطال فاعلية الهرمونات المحقونة، على الفور، بفعل ذلك الأنزيم المتخصص فى مهاجمة الأنزيمات، الزائدة على حاجة الجسم، وبذلك تنعدم الفائدة المرجوة من العلاج، مالم يحقن المريض، بهذه الهرمونات، فى الوريد.

ولما كان من الصعب على الطبيب، حقن مصاب فى الوريد، قبل نقله من مكان الحادث الذى وقع له، أو حقن جندى فى الوريد، وهو مازال فى ميدان القتال، فقد تناول كاتب هذا المقال، ومساعدوه، حمض الأسپاراجين (D) بالتعديل، وذلك بحيث أصبح مفهوم المعلومات الحيوية، التى يحملها هذا الهرمون، بعد هذا التعديل، كما يلى :

«لا تسمح بهدمك، ألا ببطىء شديد»

وبذلك أصبح العلاج بهذا الهرمون المعدل، مفيدا أيضا، عندما يحقن به المصاب، فى العضل.

٦) التأثير الكيميائى، لما تحمله الجزيئات، من معلومات حيوية، على عمليات التحول الغذائى : قام پيروتز (Perutz) وكندروف (Kendrew)، وكذا نورث (North) وزملاؤه العديدون، بكمبردج، وبلندن، ببحوث رونتجينوجرافية، (röntgenographische Untersuchungen) على بعض أنواع الزلاليات الناقلة، بعد بلورتها. ولقد تبين من هذه البحوث، أن كل سلسلة من سلاسل البوليپيتيدات، الخاصة بالهيموجلوبين (Hämoglobin)، وبالميوجلوبين (Myoglobin)، وكذا بالانزيم ليزوتزيم (Enzym Lysozym) مطوية على بعضها، فراغيا، بطريقة معينة ثابتة، لا تتغير، خاصة بكل مركب من هذه المركبات الكيميائية، وحده. كما ظهر من هذه البحوث، أيضا، أن أى تغيير فى تتابع الأحماض الأمينية، بسلسلة من هذه السلاسل، يسبب تغيرا فى الطريقة التى طويت هذه السلسلة بها، طيا فراغيا. ويستخلص من ذلك، أن طريقة طى أية سلسلة، من هذه السلاسل، تتوقف على الطريقة، التى تتابع الحلقات المتنوعة، فى هذه السلسلة، بها، وأن شئت، على الطريقة، التى تتابع حروف لغة البروتينات المختلفة، بها. كما يستخلص من ذلك أيضا، أن شطرا من المعلومات، التى يحملها پروتايين ما، تستخدم فى تنظيم أحجار بنائه، تنظما معينا. وذلك بحيث يتشكل هذا الجزئ داخليا، وخارجيا، أى فراغيا، بشكل محدد، خاص به، وحده.

وأذا ما طويت سلسلة، ذات تكوين خاص، بطريقة محددة، تقترب حلقات، بذاتها، من حلقات أخرى، كانت بمقتضى ترتيب الحلقات، بعيدة عن بعضها، لو أن السلسلة لم تطو بهذه الطريقة. وبذلك تنشأ عن هذا الطى تشكيلات فراغية جديدة، قد وزعت، حروف وكلمات لغة البروتينات، فى كل منها، توزيعا فراغيا معينا. وأذا ما شبهنا سلسلة، كهذه، بصفحة كتاب، مثلا، تتابع

الكلمات، والجمل فيها، فى سطور متتالية، ثم طويت هذه الصفحة، على بعضها، بطريقة محددة، يحدث فى كلمات هذه الصفحة، ما حدث، بالطى، للحروف والكلمات البيولوجية، أذ تقترب، بطى هذه الصفحة حروف، وكلمات، بذاتها، من حروف وكلمات أخرى، كانت، بمقتضى تتابع الكلمات والجمل، بعيدة عن بعضها، لو أن هذه الصفحة لم تطو، بهذه الطريقة المحددة، أى لو أنها بقيت بدون طى، تتابع الكلمات، والجمل فيها، سطرا بعد سطر، بترتيب خاص، تمليه قواعد اللغة، التى كتبت هذه الصفحة بها، وكذا ذلك المفهوم المحدد، الذى تتضمنه.

هذا، ويظن بعض العلماء، أن هذه التشكيلات الفراغية الجديدة، التى تتكون بطى كل سلسلة من سلاسل الجزيئات بالطريقة الخاصة بها، هى التى تمسك بما يسمى سوبستراتات (Substrate)، أى بتلك المركبات، التى يتعين تغيير تركيبها الكيميائى (أو تمسك بالمركبات، التى يجب أن تنقل، من مكان الى آخر، أو تمسك بمولدات الأجسام المضادة).

وبذلك تتمكن تلك التشكيلات الفراغية، التى كانت قد أمسكت بالسوبستراتات، مثلا، من القيام بالتغييرات المطلوبة فى تركيباتها الكيميائية، سواء أكان ذلك بتناول جزيئاتها بالهدم، أو بالأضافة، وذلك بفضل ما اكتسبته، بطى سلاسلها، من تشكيلات فراغية معينة، ذات خواص كيميائية جديدة، محددة.

ويميل العلماء، اليوم، الى القول، بان جزئ أى أنزيم ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية، يكون الجزء الأول منها هيكل الأنزيم نفسه، كما أن وظيفة الجزء الثانى، هى التعرف على السوبسترات، أى على ذلك المركب، الذى يتعين على هذا الأنزيم، أن يتناول تركيبه الكيميائى بالتغيير، وأما وظيفة الجزء الثالث، فهى تنفيذ هذا التغيير، أذ تكمن فاعلية الأنزيم الكيميائية فيه.

ولازال العلماء يعتمدون على فروض نظرية، يستخدمونها عند البحث فى طبيعة حروف لغة البروتينات الهجائية، التى تدخل فى تكوين الجزئين الثانى والثالث، أى فى تكوين جزئى الأنزيم، المتخصصين فى التعرف على السوبسترات، من جهة، وفى تغيير تركيبه الكيميائى، من جهة أخرى. أما أهم ما فى تصور الأنزيم، بهذا التقسيم، فهو أن الأنزيم يحتفظ بالسوبسترات، فى تجويف، أى فى مخزن، جد صغير، موجود بهيكله، وذلك بفاعلية قوى كيميائية فيزيقية معينة، قد خصصت لهذا الغرض.

وما تصور الأنزيم، على نحو ما أسلفنا، سوى تطوير، بشئ من التفصيل، لفكرة پاول أيرلش (Paul Ehrlich) القديمة، التى تتلخص فى أن المواد، التى يجب تغيير تركيبها الكيميائى (Substrate)، وكذا المواد الوسيطة، التى تؤثر على العمليات الحيوية بالملامسة (Wirkstoffe)، تتوافق مع الأنزيمات، أومع المستقبلات، (Rezeptoren) كما يتوافق مفتاح، مع قفله.

وهناك وسيلتان مباشرتان، فى الوقت الحاضر، تمكنان من الحكم على مدى صحة تلك الفروض النظرية، التى يقوم عليها البحث، فى هذا الصدد، وهما :

الوسيلة الأولى : دراسة بنية المجموعة «سوبسترات — إنزيم»، دراسة رونتجينوجرافية، تفصيلية. ولقد تقدمت البحوث، التى تجرى على الأنزيم ليزوتزيم بهذه الطريقة، تقدما كبيرا، كما أسلفنا.

الوسيلة الثانية : تركيب نماذج للأنزيمات، تركيبا كيميائيا أصطناعيا (chemische Synthese)، وذلك بحيث تركب حروف لغة البروتينات الهجائية، فراغيا، على هياكل جزيئية، صغيرة الحجم، بسيطة التركيب، نسبيا. هذا، ويجب أن ترتب الحروف على هذه الهياكل، فى كل حالة بذاتها، بذلك الترتيب، الذى نتوقع، أنه سوف يمثل بنية الأنزيم المقصود، أحسن تمثيل.

ومن بين الصعوبات، التى تعترض تطبيق هذه الوسيلة، أن هيكل الأنزيم شديد الحساسية للحرارة، أذ أنه ينهار، عندما يتعرض لدرجات حرارة، تزيد على خمسين درجة مئوية، مما يبطل فاعلية الأنزيم الحيوية، ويغير من طبيعته. ولازالت أسباب انهيار هياكل الأنزيمات، عند ارتفاع درجة الحرارة، مجهولة. زد على ذلك، أننا لم نصل، بعد، الى الكشف عن تلك العوامل، التى تؤدى الى تشكيل هيكل الأنزيم، تشكيلا فراغيا بذاته، عندما تتابع حروف لغة البروتينات الهجائية فى تكوينه، بطريقة معينة. ونظرا لهذه الصعوبات، يقوم كاتب هذا المقال، ومساعدوه، فى الوقت الحاضر، ببحوث على أنزيمات كائنات مجهرية حية، تبقى على قيد الحياة عند درجات حرارة، تزيد على (٧٠ الى ٨٠) درجة مئوية، كتلك التى تعيش فى البرك، التى تتكون فى حقول الجيزيرات (Geysirfelder)، وفى ينابيع المياه الساخنة، وكذا فى أكوام الحشيش المجفف، القابلة للاشتعال، ذاتيا.

وسوف يكون من المفيد، حقا، بل ومن الطريف، أيضا، أن نرى تلك الطريقة، التى رتبت حروف لغة البروتينات الهجائية بها، فى بنان هذه الأنزيمات المحبة للحرارة

(thermophil) بحيث تتمكن هياكلها من الاستقرار، حتى عند درجات حرارة مرتفعة، الى هذا الحد، وكذا عندما نتمكن من المقارنة، بين تتابع حروف لغة البروتينات، فى هذه البنان، وبين تتابعها فى بنان الأنزيمات العادية (mesophil)، التى لا تستقر هياكلها، ألا أذا وجدت عند درجات حرارة متوسطة الارتفاع، أى عند درجات تقل، بقدر كبير، عن (٧٠ الى ٨٠) درجة مئويـــة.

٧) الغلطات المطبعية، فى المعلومات الوراثية : من المعلوم، أن مؤلفات الفلاسفة، القدماء، تحتوى على أخطاء كثيرة، فى الكتابة، كانت قد وقعت عند تأليف هذه المؤلفات، أو عند نسخها، أو طبعها، مرة بعد أخرى، على مر الزمن.

ولقد تراكمت هذه الأخطاء، فى الكثير من هذه المؤلفات، وذلك نظرا لتكرار عمليات النسخ والترجمة والطبع، مرارا وتكرارا، أثناء طواف نسخ هذه المؤلفات، فى البلاد العربية، الى أن وصلت الى أوروبا، عن طريق أسبانيا. بل أن من بين هذه المؤلفات ما عاد، الى أوروبا، مرة ثانية، أذ أنها كانت قد بدأت طوافها، منها. ولقد ظلت بعض الأفكار والمفاهيم، المدونة بهذه المؤلفات، على الرغم من وجود هذه الأخطاء، مفهومة، كما أن منها ما لا يمكن فهمه، ألا بشئ من الجهد. وأما بقية هذه الأفكار والمفاهيم، فهى على العكس من ذلك، أذ أن منها ما اعتراه تحريف شديد، كما أن منها أيضا، ما تغير معناه، كلية، وبذلك أصبحت، بسبب تراكم هذه الأخطاء، أفكارا ومفاهيما، جديدة.

ولقد تراكمت، بالمثل، أخطاء كثيرة، عندما نسخت المعلومات الوراثية، — بجزيئات من أحماض نووية — مرارا، وتكرارا، جيلا بعد جيل، منذ عصر آدم وحواء، الى أن وصلت الى عصرنا الحاضر. ولقد أدى تراكم هذه الأخطاء الوراثية، الى ما سبقت تسميتة «بفاعلية الطفرة»، وهى تلك الفاعلية التى تسبب حدوث تغيارات فجائية، طفيفة (Mutationen)، فى المعلومات الوراثية، ينشأ عنها، على الدوام، تغيارات مناظرة، فى تكوين بنان البروتينات، المختلفة. فأذا ما حدث، بذلك، تحسين فى مفاهيم البروتينات، بقى الفرد من الجيل، الذى يعانى هذه التغيارات، على قيد الحياة، كما أنه قد يورثها أيضا، الى الأجيال، التى تعقبه. وما هذه الأوضاع، التى لخصناها، هنا، بعبارة مبسطة، سوى الأسس، التى يقوم التطور والارتقاء عليها.

أما أسوأ الغلطات المطبعية الوراثية، وأشدها ضررا بالكائن الحى، فهى تلك، التى تتناول بنية البروتايين، الذى يتأثر بها، بالتغيير، وذلك بحيث لا يفهم بيولوجيا، أى بحيث تتعذر قراءته بلغة البروتينات، ومن ثم يصبح عاجزا عن أداء الوظيفة المنوطة به، فى أطار العمليات الحيوية. ولقد قاست البشرية من غلطات، كهذه، ما قاست، أذ أنها تسبب الأمراض الوراثية، وكذا الأمراض السرطانية.

ولا تقع، فى معظم الأحيان، سوى غلطة فى حرف واحد، من ألف حرف من حروف النيوكليوتيدات الهجائية، أو بعبارة أخرى، سوى غلطة فى حمض أمينى واحد، من بين كافة الأحماض الأمينية، التى تكون جزيئا زلاليا واحدا، والتى قد يبلغ عددها ثلاثمئة حمض أمينى، ومع ذلك، فمن الجائز، أن تسبب هذه الغلطة الواحدة، موت الأنسان.

ولقد ثبت ذلك، من البحوث الشهيرة، التى قام بها پاولنج (Pauling)، وكذا أنجرام (Ingram)، على أنواع فقر الدم المصحوبة بالخلايا الهلالية (-Sichel zellanämien)، وغير هذه من أنواع الأمراض الأنيمية. هذا، وتنشأ أنواع فقر الدم المختلفة، من غلطات مطبعية صغيرة، فى الهيموجلوبين، تلك المادة، التى تصبغ كرات الدم، باللون الأحمر. وما هذه المادة سوى پروتينات، قد تخصصت فى نقل الأكسيجين.

ولقد تسبب أخطاء صغيرة، كتلك، التى تغير المادة، التى يصطبغ الدم بها، باللون الأحمر، فى أبطال فاعلية أنزيمات، كانت ذات فاعلية تامة، مما يسبب أصابة الأطفال بضعف الأدراك، وهو ذلك المرض الذى يسميه الاطبـــاء أوليجوفرينيـــا فينيلبيروڤيكـــا (Oligophrenia phenylpyruvica)، أو يسبب أصابتهم بالمرض، الذى يسمى تيروزينوزس (Tyrosinose)، أو بالمرض الذى يسمى ألبينيزمس (Albinismus)، أى اشقرار اللون، وأخيرا وليس آخرا، أصابة الأطفال الرضيعة، بالمرض المميت، الذى يسمى جالاكتوزيمى (Galaktosämie)، وهذا مرض ينشأ، عند حدوث خطأ، فى تحول اللبن الأحادى (Galaktose)، الى سكر العنب (Glukose).

ويحق لنا، اليوم، معتمدين على نتائج البحوث، التى توصلنا اليها، بالفعل، أن نعتقد فى صحة عزو الأمراض، ذات الطابع السرطانى، الى حدوث تغيارات فى المعلومات الوراثية، ضارة بالكائن الحى، وذلك أبان ما قد يعترى هذه المعلومات، من تطورات، على مر الزمن، وهى

غمام نجمى فى كوكب «وحيد القرن»، تصوير بالضوء الأحمر. صورة من مرصد ماونت ڤيلسون و پالومار بكاليفورنيا. ◄

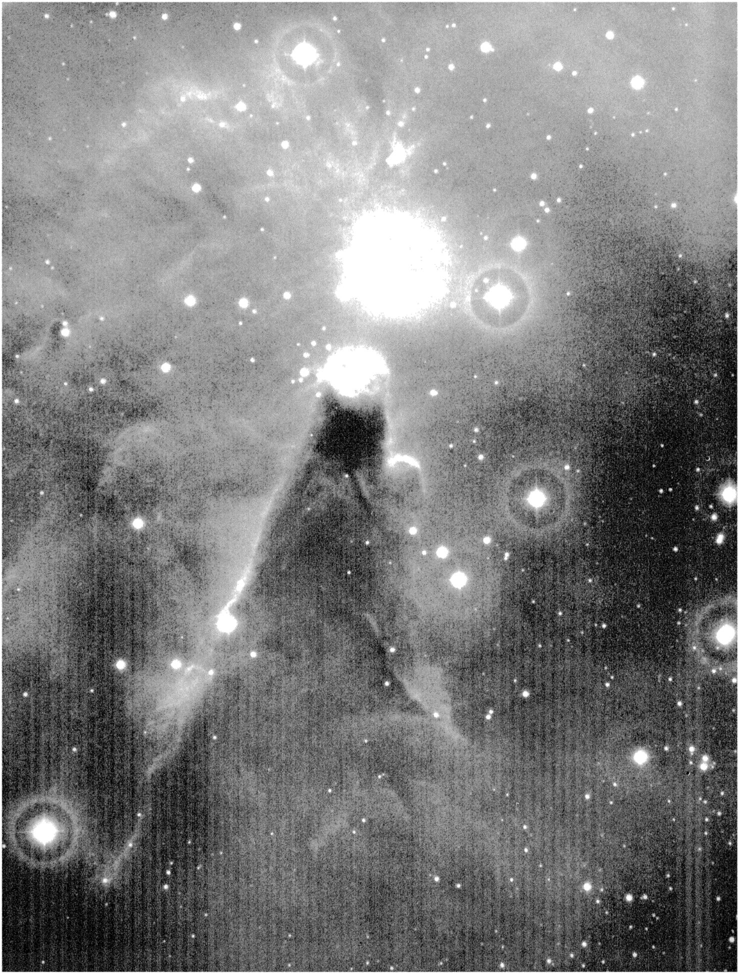

تغيارات ترجع لأسباب عدة، منها حدوث غلطات مطبعية، عند آنشطار خلايا البنية آلحية، ومنها تسلل معلومات خاطئة، بفعل الفيروسات، الى تلك آلمعلومات، التى تحملها آلأحماض النووية، وكذا لأسباب أخرى، نخص بالذكر منها، تعرض بنية الكائن آلحى، الى فاعلية أشعاعية. هذا، ومن آلجائز، أن يكون تأثير كل هذه الغلطات، قاصرا على تلك البروتينات، التى تنظم نمو آلخلايا، وكذا على تلك، التى تحافظ على تنويع آلخلايا، بالبنية آلحية.

ولعل أسمى هدف، يرمى علم حياة آلجزيئات، الى تحقيقه، لهو الكشف عما تسببه فاعلية الطفرة، من تغيارات فى آلمعلومات الوراثية، ضارة بالأنسان (schädliche Mutationen)، كتلك التغيارات، التى تؤدى الى آلأصابة بالأمراض الوراثية، أو السرطانية، ونعنى هنا، على وجه التحديد، تلك التغيارات الضارة، التى تحدث على مستوى آلجزيئات، ثم العمل، بعد ذلك، على تصحيح هذه التغيارات، مستخدمين فى ذلك، أحدى وسائل العلاج الكيميائية. هذا وفى ما أوجزناه بعاليه، ما يكفى، لكى نتبين وسيلة واحدة، من بين هذه الوسائل، ألا وهى :

تركيب تشكيلات من أحماض نووية، خالية من أدنى خطأ، تركيبا كيميائيا آصطناعيا، (chemisch synthetisch) وذلك بحيث تحمل هذه التشكيلات، كافة آلمعلومات آلحيوية، اللازمة لتكوين ما عسى أن يكون ناقصا ببنية آلمريض، من بروتينات وظيفية، ثم التغلب، علاوة على ذلك، على أية صعوبات، قد تعترض وصول تلك التشكيلات، الى هذه البنية. وبهذه الوسيلة، قد تتمكن خلايا آلمريض، من بناء البروتينات العادية، أى تلك البروتينات، ذات التكوين الصحيح، وذلك الى جانب ما تنتجه من بروتينات، مختلة التكوين. أما ما نأمله من علاج، كهذا، فهو أن تقوم البروتينات، التى تكونت من العلاج، بكل ما ينقص بنية آلمريض، من عمليات التحول الغذائى. وأذا ما توصل العلماء، ببحوثهم، الى تحقيق علاج، على هذا آلأساس، فسوف يكون علاجا جذريا، يستأصل آلمرض من جذوره، ولا يقتصر على علاج أعراضه، فقط، كما أنه، من آلجائز أيضا، أن يمتد تأثير علاج، كهذا، الى آلخلف.

وليس من شك، أن الطريق الى تحقيق هذا العلاج الجذرى، لازال طويلا، مع آلأسف، غير أن أمكانيات، تحمل على التفاؤل، قد تحققت، بالفعل، وبيان ذلك فيما يلى :

أولا : لقد أثبت أڤرى (Avery)، خلال عشرينيات هذا القرن، أنه من آلممكن التغلب، على أية صعوبات، قد تعترض وصول تشكيلات آصطناعية، من أحماض نووية، صحيحة التركيب، الى آلخلايا آلمريضة.

ثانيا : يمكن التنبؤ بالطريقة، التى تتابع بها، حروف النيوكليوتيدات آلهجائية، فى زسترون بذاته، من تلك الطريقة، التى تتابع بها آلأحماض آلأمينية فى البروتايين آلمناظر.

أما مالم نتمكن من تحقيقه، بعد، فهى طرق التركيب الكيميائى آلأصطناعى (chemische Synthesemethoden) التى يجب آستخدامها، لتكوين بولينيوكليوتيدات، كبيرة آلجزيئات.

٨) من أين جاءت آلحياة، وكيف كانت بدايتها آلأولى ؟ :

لقد بينا بعاليه، أن آلحياة تقوم على أسس معقدة، تعقيدا، تضبط التضافر، بين جزيئات حيوية كبيرة، ذات أصل متضاعف (Biopolymeren)، تحمل آلمعلومات آلحيوية، وهى جزيئات تلك آلمركبات العضوية، التى يسميها الكيميائيون، أحماضا نووية، وبين آلات، قد صممت، بمقتضى شطر من هذه آلمعلومات، تنفذ ما يتبقى منها، وفق برامج محددة ....، ولكن من أين جاءت آلحياة، أذن ؟، وكيف كانت بدايتها آلأولى، على وجه التحديد ؟

منذ نحو أربع مليارات من السنين، وقد كانت الكرة آلأرضية، آنذاك، حديثة التكوين، بدأت درجة حرارة آلأرض فى آلأنخفاض. ولقد صاحب برودة سطح الكرة آلأرضية التدريجية، تكوين مركبات عضوية، معقدة أشد التعقيد، وهى مركبات كانت قد تكونت بفعل آلأشعاع، وكذا بفعل ما كان قد حدث، فى ذلك الوقت، من تفريغات كهربائية، فى غلاف الكرة آلأرضية آلجوى البدائى. أما عن تكوين هذا الغلاف، فقد كان يتركب من مركبات عدة، أهمها آلميثين (غاز آلمناجم)، والنوشادر، وكذا آلأيدروجين. ولقد ثبت، بالفعل، من تجارب معملية معينة أن حروفا مفردة، بذاتها، من حروف لغتى آلأحماض النووية، والبروتينات، آلهجائية، كانت قد تكونت، من بين تلك آلمركبات العضوية آلمعقدة، آلمذكورة بعاليه، فى الغلاف آلجوى البدائى. ومما يلفت النظر، أن هذه آلحروف آلهجائية آلحيوية، ترتب نفسها بنفسها، وذلك بحيث يتكون منها، فى نهاية آلأمر، جزيئات بدائية، من أحماض نووية، وكذا جزيئات زلالية بدائية، تتابع آلحروف آلهجائية، فى تكوينها

الكيميائى، بمحض الصدفة، بنفس تتابع هذه الحروف، فى الجزيئات المناظرة لها، ببنان الأحياء. هذا، ويقدر العلماء، أن تكوين هذه الجزيئات، فى الطبيعة، كان قد تتطلب فترة زمنية، قوامها مليارين اثنين، مما نعده من السنين، وهى تلك الفترة، التى تسمى فترة «التطور الكيميائى» (chemische Evolution).

وعلى أساس ما تقدم، يرجح العلماء، أن أول جزيئات عضوية، لها القدرة على التكاثر، وعلى النمو، وعلى التوريث للخلف، كانت قد نشأت منذ زهاء مليارين اثنين من السنين. ثم تلا ذلك، فترة «التطور الكيمياحيوى» (biochemische Evolution)، وهى فترة يقدرونها بمليار سنة، اكتسبت هذه الجزيئات، فى خلالها، على مر السنين، القدرة على انجاز عمليات التحول الغذائى، ذاتيا. ثم تلا ذلك، فترة «التطور الحيوى» (biologische Entwicklung)، وقوامها مليار السنين، الباقية، تمكنت فيها، هذه الأحياء المجهرية البدائية، من التطور الى ما نراه، اليوم، من أحياء متعددة، مختلفة البنان.

ويعتقد الكثيرون، وجلهم علماء متخصصون فى الأحياء، أن بداية الحياة الأولى، كانت قد حدثت، بمحض الصدفة(٦)، أو بعبارة أخرى، أن نشوء الأحماض النووية، وكذا الأنزيمات، فى بنان معقدة، تعقيدا، قادرة على القيام بوظائف محددة، لكل منها، كان قد جاء عفوا، وذلك بترتيب حروف اللغات الحيوية الهجائية، فى تكوينات محددة، بفاعلية الصدفة وحدها!

وهم يعتقدون، علاوة على ذلك، أن تضافر هذين الصنفين من الجزيئات الحيوية، على انجاز كل ما تتطلبه الحياة من عمليات، وكذا ما يقوم به الاحياء من منجزات، قد جاء عفوا أيضا، وأن ما يتطلبه هذا التضافر من تنظيم، أيما تنظيم، (شبهناه بعاليه، بالتنظيم اللازم، للأنتاج الصحيح، بين تصميم ما، وبين الآلة، التى تنفذه) قد خططته الصدفة، وحدها، ونسقته.

ويقود هذا الأعتقاد، الى تركيز معضلة بداية الحياة الأولى، والى تحويلها الى مسألة حسابية، من مسائل الاحتمالية الرياضية، فى علم الأحصاء، يمكن تشبيهها بالمثال البسيط التالى:

لنفرض، أن صندوقا، به فتحة واحدة، يحتوى على عدد كبير، من الحروف الهجائية العادية، مصنوعة من ورق مقوى، مثلا، وقد قص كل حرف منها، على حدة. ولنحاول، بعد خلط هذه الحروف، بهز الصندوق، أن نخرج تلك الحروف الهجائية منه، الواحد تلو الآخر، وبذلك تتابع هذه الحروف خارج الصندوق، بترتيب تمليه الصدفة وحدها.

والسؤال الذى يعنينا، هنا، هو السؤال التالى:

ما هو مقدار الأحتمالية، بأن تؤدى الحروف، التى خرجت من الصندوق، بهذه الطريقة، معنى محددا؟ قصيدة من الشعر، بذاتها، مثلا؟ وزيادة فى الأيضاح، نصيغ تساؤلنا هذا، فى عبارة أخرى، على الوجه التالى:

كم مرة، يجب أخراج، الحروف من الصندوق، الى أن تخرج الحروف منه، بالصدفة، بنفس التتابع، الذى تتابع الحروف به، فى هذه القصيدة، المعينة؟(٨)

هذا، ويعتقد كاتب هذه المقال، أن معلوماتنا الكيمياحيوية عن الأحماض النووية، وكذا عن البروتينات، قد تمكن علماء الرياضة، وخاصة أولئك الذين تخصصوا منهم فى علوم الأحصاء، من الأجابة، يوما ما، عما أذا كانت احتمالية بداية الحياة الأولى، عفوا وبمحض الصدفة، أكبر من أحتمالية خلقها؟! أم أن عكس ذلك، هو الصحيح؟

ويشير كاتب هذا المقال، بعد ذلك، الى أن نتيجة هذه العملية الحسابية الرياضية، سوف تثير عواصفا فى علوم الفلسفة، وفى الديانات، كما أنه لا يريد، أن يتنبأ بما عسى، أن ينتج من القيام بهذه العملية الحسابية، مكتفيا فى هذا الصدد، بأثبات مايلى، قائلا ما معناه:

«كلما تعمقنا فى دراسة علم حياة الجزيئات، كلما أزددنا علما بأسرار تلك المعجزات، التى تهيمن على حياتنا، وبالتالى كلما أزداد كنة الحياة لنا وضوحا — سواء فى ذلك أكان نشوء الحياة بفاعلية الصدفة، وحدها، أم كان من صنع الخالـــق»!! (تعريب: محمد عبده ابراهيم)

---

١) علم حياة الجزيئات = Molekularbiologie

٢) لم يكن هذا العلم قد سمى بهذا الاسم، فى ذلك الوقت بعد، أذ أنه من الجائز أن يكون عالم البلورات أستبورى (Astbury)، هو أول من أطلق هذا الاسم، على هذا العلم، سنة ١٩٥٠.

٣) الأنجستروم (A°) وحدة أطوال تساوى (٠,٠٠٠ ٠٠٠١) من المليمتر.

٤) تتكون هذه النسخة من صورتين، أحداهما موجبة، والأخرى سالبة.

٥) الغدة النخامية Gehirnanhangdrüse، هى غدة رئيسية بالمخ تصدر التعليمات، التى تتولى غدد الجسم الأخرى تنفيذها.

٦) لا يتفق المؤمنون بالكتب المنزلة، ومن بينهم مترجم هذه السطور، مع هؤلاء العلماء فيما يدعون، ولعل فيما أسلفناه وفى بقية هذا المقال، ما يقنع المتشككين، بأن البشر، ما أوتوا من العلم، ألا قليلا.

٧) أشار الكاتب، الى أن سيسرو، قد سبقه الى هذا التشبيه، أى تكوين قصيدة (من قصائد الشاعر انيوس فى الكتاب المسمى „Annalen“) بمحض الصدفة، وقد كان ذلك فى كتابه (Cicero: De natura deo-rum II. 93)، كما كان فى سياق نقده للتصور الأپيقورى (epikurei-sche Vorstellung)، من أن الكون، كان قد نشأ ميكانيكيا، وبمحض الصدفة، من الذرات (Atome).

التقدم والتقليد في علم الجراحة

بقلم هانس اولريش بوف

نص المحاضرة التى القاها المؤلف بمناسبة انضمامه لهيئة التدريس بجامعة زيوريخ فى ١٩٦٢

أصبح التقدم فى نظرنا أمرا تقليديا. بل أن سرعة التطور فى العلوم التكنولوجية، وضخامة ماتبلغه من نتائج، لم يعد يدهشنا تماما. على أن آثار هذا التطور التكنولوجى قد بدأت تثير القلق فى نفوسنا، حتى بتنا نسأل أنفسنا، عما إذا كان التقدم فى حد ذاته طيبا. والبادى أن هذه المشكلة — مشكلة مزايا التقدم ومساوئه — لم تطرح بعد فى مجال علم التشريح. ذلك أن التقدم قد حافظ على معيار إنسانى، نلمسه بوضوح فى هذا الميدان، ومن ثم فهو إيجابى على طول الخط. وإن ما يجرى من مقارنات بين الحاضر، وما كان عليه التشريح فى الأعوام أو الأحقاب الماضية، ليسفر عن عن نتائج طيبة لنا.

هبط الخوف من أمراض الجراحة إلى حد أدنى، حتى صرنا نكاد أن نفترض أنه من المفروغ منه، أن العملية الجراحية وعلم الجراحة لن يكونا سوى مجرد فترة مؤقتة فى حياتنا، وأنه سوف يصبح فى مقدورنا أن نقضى أواخر أيامنا فى حمى الطب الباطنى، أو تحت رعاية أحدث فروع الطب، وهو المختص بعلاج أمراض الشيخوخة.

وإنا لنسأل أنفسنا: إلى أى حد يوجد مايبرر هذا التفاؤل، وما إذا كان تقدم علم الجراحة يعد تقليداً لاغبار عليه، وما هو طريقه الذى عبره إلينا، واتجاهه الذى سيمضى فيه، وما هو الذى يعود فيه الفضل إلى التقليد، وإلى الخروج عن التقليد.

إن تقدم أسس الجراحة الحديثة، فيما يتعلق بمكافحة العدوى، وفقدان الدم والتخدير، قد تطور عن طريق الخروج عن تقليد دام عدة قرون. وهو قد أتى من خارج ميدان الجراحة والجراحين، بواسطة بعض ماثبت فى حقول مغايرة من العلوم الطبيعية.

لم يكن سر العدوى معروفا، وإنما آثارها فقط، من حمى تترتب على جرح مفتوح، أو شوائب تلوثه. ولقد بذل الكثير وابتكر الاكثر عبر مئات الأعوام للتخلص من هذه المخاطر، ولكن دون أن تتحقق خطوة واحدة إلى الأمام. وهكذا ساد الاعتقاد بأن سر الداء يكمن فى الهواء. والواقع أن هذه العقيدة القديمة لم تكن مجرد صورة خرافية. إذ تبين أن الهواء، بما كان محملا به من بكتريا فى مستشفيات العهود السحيقة، لم يكن بريئا تماما من تلويث الجرح وإصابته بالعدوى. وهانحن اليوم قد عدنا لنعمل حساب جراثيم الهواء. على أن ما كان يحرك خوف الأولين من الهواء، لم يكن تصورهم لإمكان انتقال الجراثيم عبره، وإنما اعتقادهم بخطورة الجو، لاسيما إذا كان باردا أو شديد الجفاف، فضلا عن طائفة أخرى من التصورات غير الواضحة. — لم يكن إذن الخوف من الجو خوفا من البكتريا، إلى أن حدث تطور مفاجئ، لم ينم عن التقليد تدريجيا، وإنما خرج مفاجئا إلى الوجود عن طريق اكتشافات باستير. وهكذا تعين على الجراحين أن ينفضوا التقليد العتيق عن أنفسهم بأسرع مايمكن، إن هم أرادوا ألا يوقفوا مجرى التقدم.

وعلى نحو أوضح من ذلك حدث تطور عملية التخدير. فقد كانت القاعدة الانجليزية المتبعة لتسكين الألم، حتى أقل من مائة عام مضت، تقتصر على «إعداد قنينتين من الويسكى قبل كل عملية، واحدة للمريض والأخرى للجراح». ولعل اندثار هذه القاعدة لم يثر أسف الأنجلو ساكسونيين وحدهم! وهنا جاء التقدم مرة أخرى من ميدان خارج على علم الجراحة، إذ نهض على أساس، أرادت أن تخلده عبارة تذكارية محفورة فى حديقة عامة بمدينة بوسطون، بالكلمات الآتية: «باكتشاف أن استنشاق غاز الاثير يؤدى إلى فقدان الحساسية بالألم».

كذلك تبين من التطور الأخير لطرق التخدير، أنه لم يكن فى مقدور الجراحين أن يحققوا من الوسائل الممنوحة لهم أقصى استفادة ممكنة. ولذا فان التخدير لم يبلغ مستواه الرفيع سوى فى السنوات الأخيرة الماضية، بعد أن قرر الجراحون أن يمزقوا حجاب التقليد، ويضعوا التخدير فى أيدى إخصائييه.

وإن عملية وقف فقدان المريض للدم ليست من السوء بما كانت عليه فى الماضى، عندما كان يضيع الكثير من

دمه بلا وجه حق. وإن هذا الخطأ لينتمى إلى الميدان الواسع لزلات الطب الباطنى. ولو أننا تذكرنا الأساليب القاصرة تماما لوقف ضياع الدم فى الأزمان المنصرمة، أو ما اقترحه آنذاك «فابريكوس هيلدانوس» من ترك الدم ليتدفق إلى خارج الساق السليمة، إذا أجريت للمريض عملية بتر فى الربيع لساقه الأخرى المصابة، فلابد من أن نخرج بأن الجراحين قد غفلوا عن خطورة فقدان المريض لدمه. أو أنهم، على الأقل، لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بعلاج هذه الظاهرة.

ومرة أخرى أدت اكتشافات جديدة، خارج نطاق علم الجراحة، مثل وقوف «لاندشتاينر» و «ڤينر» على مجموعات الدم، إلى جعل نقل الدم وسيلة مضمونة، وأساس للجراحة الحديثة.

وهكذا كان يتم دائما كل تقدم هام فى علم الجراحة، من جانب غير الجراحين، وعن طريق معارف قادمة من ميادين أخرى. وكل ما يتميز به الجراحون، هو أنهم لم يتوانوا عن إدراك أهمية هذه النتائج الجديدة، وتطبيقها فى حقل الجراحة، دون أن يقفوا فى وجه التقدم أو يبطئوا من زحفه بتمسكهم بالقديم.

على أن التقليد يبدو فى صورة أفضل، من خلال المهارة فى إجراء العمليات الجراحية. إذ يحكى أن جراحا يدعى «لارى» قام فى موقعة «إيلاو» بمائتى عملية بتر فى أربع وعشرين ساعة، وعن جراح آخر نقرأ أنه كان يكفى الزائر أن يمسح زجاج نظارته قبل بدء العملية، كى يرى بمجرد وضعها على أرنبة أنفه، الذراع المبتورة وهو يبعد عن جسم المريض. ومع ذلك فان السرعة لاتطابق المهارة دائما. إذ نسمع عن جراح كان يقوم بعملية فتاق لأحد الأمراء، وإذ به يبتر بحركة عفوية الشريان الفخذى الأكبر، مما أدى إلى وفاة المريض لتوه. ورغم ذلك فتحت أبواب التاريخ لتستقبل هذا الجراح النابغة، الذى دلف إليه «فخورا غير منخذلا». ويعلق المؤرخ على حادثة الأمير الذى أسلم الروح بين يدى هذا الجراح، بقوله: «ولما كان أصحاب السلطة لايشجعون دراسة التشريح، فقد وجب أن يدفعوا ثمن ذلك بأبدانهم».

ويبدولنا التقليد فى ذروة الأهمية عندما نفكر فى انحراف الطب والجراحة، تعلله أسباب علمية أو منتحلة على العلم، للوقوع تحت تأثير لاأخلاقى لسلطة الدولة[1]، أو لحماس علمى شديد الاندفاع فى اتجاه واحد. وإننا كلما قرأنا عن مثل ذلك، أو عن المرضى الذين يتحولون إلى مجرد «مواد» وأرقام ونسب مئوية، بينما تقتصر مهمة وجودهم على تأييد نظرية معينة أو دحض أخرى، كلما اقتنعنا بأن مزيدا من التقليد ذى النزعة الانسانية والمثل الكلاسيكية، كفيل بأن يحمى من الانزلاق فى مثل تلك الميادين الخطرة الواقعة بين حدى العلم الإنسانى، والعلم المجرد من الانسانية.

إذاً فكثيرا مايقف التقدم والتقليد كـ «ناقر ونقير» فى ميدان علم الجراحة. على أننا لولم ننظر للجراحة باعتبارها مفهوما تجريديا، وإنما التفتنا إلى أنفسنا كجراحين، لذابت المتناقضات من تلقاء نفسها، ولالبث التقدم والتقليد أن يمتزجا فى وحدة متجانسة. ونحن نعرف بالطبع أننا قد أخذنا الأسس عن أساتذتنا، وهؤلاء عن معلميهم، وإن كان ذلك لم يمنع أحدا من أن يتعلم جديدا. وعندما نتصفح مؤلفات كبار العمالقة — من أمثال «بيلروت» — ونقرأ رسائلهم، نجد — من حيث الاتجاه وأسلوب التفكير — الكثير مما انحدر إلينا عن «كليرمون» Clairmont من جهة، وعن «برونر» Brunner من فرع آخر لشجرة علم التشريح. ونحن (كجراحين!) لم نحس أبدا بخواء الفقرة التى أقسم فيها هيبوقراط بأن «نحترم معلمينا أثناء ممارستنا لفننا»، وإنما نشعر بضرورة العناية بهذا القسم وتوصيله لمن يخلفنا كتقليد واجب لا رجعة فيه.

ومن خلال العلاقة التى تربط بين الأستاذ وطلبته، والتى نعثر عليها فى كل مهنة، ونكتسبها من خلال التعلم على مدى الأعوام على يدى معلم رائد، يخرج نوع من القرابة الفكرية التى تميز أولئك الذين درسوا على نفس الأستاذ. ولو أنه عادة ما تحمل المناهج والأساليب الفنية فى كل عصر، نفس الخطوط العامة فى كل مكان، إلا أنه يوجد بالرغم من ذلك ثمة فروق يمكن التعرف عليها من نوعية الأسلوب المتبع، الذى يرجع إلى أحد كبار الأساتذة، ولازال يعيش فى «مدارسه». وكل من تخرج من نفس «المدرسة»، يظل مرتبطا بتقاليدها.

إلى جانب مختلف المعالم التى تميز كل مدرسة فى التشريح عن سواها، توجد قيم ثابتة بالنسبة لجميع الجراحين فى أى عصر أو مكان، إذ هى مرتبطة بالخصائص المميزة لمهنتنا[2]. وإن الإجابة على السؤال الباحث عن هذه القيم متضمنة أصلا، إلى حد كبير، فى تعريف علم الجراحة فهو «علاج بواسطة الأيدى، أى عمل يدوى، ينهض على قوانين من واقع العلوم الطبيعية، وهو قابل للتكرار، وبالتالى يتصف بسمة العلم، إلا أنه غير قابل للتعلم بصورة تامة، أى أنه فن».

وهنا يقف العلم اليدوى فى المقدمة، حيث لاتوجد مساهمة عقلية فعالة، فى رأى السالفين، حيث كان أطباء

الأمراض الباطنية يحتلون قمة المدرج الهرمى، أما الجراحون وحلاقو الصحة، فكانوا فى أدنى قاعدة الهرم، باعتبارهم يمثلون أقل الحرف اليدوية الطبية شأنا، لاسيما وأن الاعتقاد السائد آنذاك كان يقول بأن الفكر أمر قاصر على مناقشات العلماء ومناظراتهم، أما عامة الناس فلا سبيل لهم أن يفهموا لغة أهل العلم!

إذن فعلم الجراحة، إذا كان يعنينا أن نتعرف على أهم ما يميز مهنتنا، وهو إجراء العمليات، عمل يدوى ويظل دائما كذلك. فعلى الجراح أن يقوم بنفسه بأداء عمله بيديه. وهو لايستطيع أن يدع آلة تقوم بالعمليات الجراحية، وبذلك يرفع من إنتاجه أويجعله أكثر اقتصادا للجهد والوقت. وإنما هو يمضى دائما، كعامل يدوى من اليونان القديمة أو روما، من القرون الوسطى أو من عصر النهضة، يعمل ويعمل، ويظل الأخير والوحيد الذى يصلح ما تبقى من رتوق. وهو لايستطيع أن يفعل كغيره من العاملين فى الطب، الذين يتاح لهم عن طريق معارفهم واكتشافاتهم وتنظيمهم، أو بواسطة التلقيح بالمصل الواقى، وتوزيع الدواء، وتوجيه الاجراءات الصحية الخ، إنقاذ أو وقاية مئات الناس المصابين بالأمراض وغير المصابين. أما الجراح فليس مقدوره إلا أن يركز اهتمامه على شخص واحد، يعينه بيديه مباشرة، دون وساطة إنسان آخر أو دواء.

لاوجود لعلم جراحة مجرد، إذ لايمكن تصور هذا العلم بدون جراح. فعلم الجراحة منحصر فى الجراح، وهذا — أثناء عمله — فى مريض واحد. لذا فان هذا التخصص لايحظى من جانب الدولة، التى تنظر إلى الأمور من خلال الأرقام والاحصائيات، بأهمية غير عادية. فالجراحة لايمكن أن تقاس بزيادة عدد السكان أو بوفاة الرضع الخ، أو بمكافحة الأوبئة والصحة العامة، فهى فى هذا المجال تكاد أن تدخل تحت باب الكماليات. وإذن فتكريم علم الجراحة من جانب الدولة، يعد دليلا على بلوغها حد رفيع من التطور، إذ صارت تعنى بكل فرد على حدة. أما الجراح فقد ترتب على طريقة عمله أن تولد لديه اتجاه فكرى، أصبح له بمثابة التقليد. فالانسان يظل بالنسبة له معيارا لكل شىء. وهو يرجع كل أمر إلى مدى علاقته بالانسان. ويحترم حقوق الفرد. وعنده أن الشخص الفرد مفضل على المجموع. فالتقدم فى نظر الجراح ينحصر فى كل ما من شأنه أن يحسن من نتيجة العلاج بالنسبة للمريض، أو يقصر من فترة عذابه أو يخفض من الاحتمالات السيئة لتطور المرض. فعمله مباشر، مستقل، إنسانى وفردى. وهو لذلك وثيق الارتباط بالحرية وعدم التبعية.

وإن كافة هذه الخصال مجتمعه تشكل ما يمكن أن ندعوه بالطابع المميز للجراحين، والتقليد الحق لعلم الجراحة.

وعلى النقيض من ذلك نجد خطأ تقليديا يشوب صورة الجراح فى أذهان الناس، فهوفى رأيهم إنسان قليل الحساسية وإن لم يكن فظا غليظ الطبع، ضخم الهيئة قوى العضلات، ذو نظرة حادة ثاقبة، وبراعة يدوية فائقة، لا تأثر فيه مشاهد الدماء والجراح. غير أن هذه السمة قد اندثرت منذ زمن بعيد، وولت آخر معالمها بانفضاض ميادين القتال فى القرن الماضى. وأن كانت لاتزال تسيطر على صورة الجراح فى مخيلة الكثيرين.

بل أن هذا الطابع لم يعد يناسب «آيزلزبرج»، أستاذ «كليرمون»، إذ يقول فى مذكراته عن الفصل الدراسى الذى قضاه عام ١٨٨٢ فى زيوريخ: «لم أتردد على عيادة الجراحة سوى مرة واحدة، فقد كاد أن يغشى على من منظر الدماء». ويبد وأن تجربته مع علم الجراحة قد تحسنت نوعا، بعد ذلك بعام، فى باريس. وهناك ظل يراقب كل سبت عمليات الأستاذ الشهير «پيان» Péan التى كان يجريها فى مستشفى «سان لوى». وإذ به لايدون شيئا عن الدماء أو الانعماء، وإنما يكتب السطور التالية: «كان أسلوبه رائعا. وقد أدهشنى أنه كان يجرى العمليات الجراحية بالبذلة الرسمية (الفراك)، وربطة عنق سوداء، ولم يضع سوى (فوطة) على مقدمة قميصه». ولعل الفضل يعود إلى الخوف على بذلة (الفراك) التى كان يرتديها «پيان» فى استعمال ملقط الجراحة — الذى مازال يحمل إسم هذا العلم الشهير حتى يومنا هذا — لسد الأوعية الدموية مؤقتا أثناء إجراء العملية. والبادى أن الحفاظ على تقليد (الفراك) قد حدى من قبل إلى تعميم أسلوب الجراحة، الذى ينحو إلى عدم ضياع دم المريض سدى.

إذاً فلنعد إلى الطابع الأصيل للجراح، الذى يحدده عمله المتصل بالانسان الفرد. فهذا الطابع ليس فحسب بعيدا كل البعد عما يروى عن جراح الميدان، وإقفاره من كل حساسية، وإنما يتناقض كذلك وما يميز العالم الدقيق او من يمثل الفروع الطبية الأخرى التى تأخذ بمنهج مختلف تماما فى العمل والتفكير.

واحيانا مايتوق الجراح بين آن وآخر إلى هدوء المعمل ونظافة العلم فى الحقول الأخرى، حيث تنظم التجارب فى بساطة ووضوح، كى تعطى إجابة معينة عن سؤال محدد. ولكنه يعلم أن هذا ليس ميدانه. فمكانه فى محيط البحث الاكلينيكى، الذى لا ينهض على تجارب علمية، وإنما على تحليل لمرضاه، أى — إن شئت — على بجارب تساق إليه

من الطبيعة، وتتسم بكل مايتسم به الانسان من غموض وصعوبة وتعقيد، وتتألف من عوامل كثيرة متشابكة فلاسبيل إلى الفصل بين هذا البحث الاكلينيكي وعمله اليومى بحال. ويقوم الجراح بتكملة هذه المرحلة العمليه من بحوثه بدراسة ناريخ حياة المريض، ومقارنة تجاربة مع ما ورد فى المؤلفات والنشرات المتخصصة، وكذلك لابد له من تتبع النتائج على مدى زمنى طويل. وهو من خلال كل ذلك يخلص إلى القول بمنهجه العلاجى الهادف. والواقع أن عدم تماشى التنبؤ بسير المرض وتشخيصه وعلاجه، ليوضح بما لا يدعو للشك سبيلا أن ميدان البحث السريرى (الاكلينيكى) مازاى بحاجة إلى بحث طويل. وإن التفسير الشخصى للجراح ليلعب دورا حاسما فى تقييم النتائج. وهو الأمر الذى يؤكده تاريخ التهاب الزائدة الدودية. فقد كان (كرونلاين) أول من استأصل زائدة دودية فى زيوريخ، عام ١٨٨٤، غير أن المريض قد دفع حياته ثمنا لهذه «التجربة»! وعاد نفس الجراح إلى إجراء نفس العملية بعد ذلك بعام، ولكنه اضطر بعد ساعة ونصف من البحث بلا جدوى عن الزائدة، أن ينهى العملية دون أن يعثر عليها. وإن كانت حياة المريض قد انقذت هذه المرة! ولعل الكثير من الآراء الى تزدرى البحث السريرى وتبالغ فى تقييم المعتقدات النظرية القائمة على ما أنجز من تجارب على الحيوان، وكأن هذه لاتقبل النقض ولا الابرام، قد عجزت عن أن تفرض نفسها.

وإن خلطا بين البحث السريرى من جهة، وبين العلم الدقيق، أو بحوث المعمل من جهة أخرى، لايتاتى، كما لايتأتى أى مزج أو مساواة لمهام كل منها بالآخر، إلا لمن لايعرف الفروق الأساسية بينها.

وإنه لمن مقدورنا — نحن معشر الجراحين — أن نعد أنفسنا سعداء، إذ نعيش فى ظل حكومة، مطلبها الوحيد الواضح أن نعنى بمرضانا، وننقل معارفنا إلى طلبتنا؛ وموقفها من الفرد فيما اتصل بالبحث العلمى، أن تترك له حرية الخيار فى انتهاج السبيل الذى يراه أصلح من سواه فى دفع تخصصه إلى الأمام. وإن الخطر كل الخطر فى فرض مطلب يحمل شعار «البحث العلمى» على حقل فردى سريرى كحقل علم الجراحة.

هنالك معضلات فى علم الجراحة لاسبيل إلى حلها عن طريق الملاحظة الاكلينيكية. فارتباطها بالقوانين الأساسية التى تحكم العمليات الحيوية، من الشدة بمكان، بحيث لا أعتقد أنه من حق إطلاقا أن أطبقها على الانسان، قبل أن تتهيأ لذلك الأسس اللازمة بوساطة البحث العلمى البيولوجى. و إنى لأذكر هنا على سبيل المثال تلك المعضلة الرائعة التى تتمثل فى نقل نسيج حى من انسان إلى آخر. ونحن نعرف من الأساطير القديمة ذلكم الحلم العتيق الذى يمتزج فيه الانسان بالحيوان على صورة القنطروس وعروس البحر وأبى الهول. وكلنا يعلم أن تطعيم النبات كثيرا ما ينجح. وهكذا أجرى العديد من الجراحين تجارب مثيله على الانسان، خيط فيها شخصان ببعضهما، لاختبار مدى إمكان امتزاجها بيولوجيا. فقد حيك طفل — أريد ترقيع بشرته — بفخذ أمه. ثم فصلا عن بعضهما بعد أربعة أسابيع. وبرغم أنه بدى على رقعة البشرة وكأنها قد التأمت تماما، إلا أنه مالبث أن دب فيها جفاف الموت بعد أربع وعشرين ساعة. وفى حالة أخرى كان الأمر أسوأ من ذلك. فقد حيكت بشرة فتاة إلى بشرة أخيها. فى شكل قنطرة من البشر بينهما وفى اليوم الثامن أصيبت بانهيار صحى شديد، صاحبه تقيؤ وصفرة بالغة فى اللون، ورعشة مع هبوط الهيموجلوبين إلى نسبة ٣٠ بالمائة فى الدم. لذا كان لامفر من فصل تلك الرقعه من البشرة المشتركة بين الفتاة وشقيقها، فورا، حتى تنقذ حياة الفتاة.

إذاً فقد باءت محاولات الجراحين فى هذا الصدد بالفشل. ثم عادت لتظهر من جديد فى شكل نقل الأعضاء من جسم حى إلى جسم آخر. فالمدة التى تعيشها كلية تنتزع من إنسان لتزرع فى شخص آخر، قد تطول لدرجة تبعثنا على الدهشة. على أنه لا يمكن ادعاء النجاح على طول الخط، فان كافة مايتبع من إجراءات، مثل تسليط جرعات كبيرة نسبيا من أشعة إكس (رونتجن) على المريض، لا يستطيع أن يفعل شيئا أكثر من أن يبطئ من تسرب الموت إلى الأنسجة الغريبة على الجسم. ذلك أن استمرار حياتها بصورة دائمة لايمكن تحقيقه طالما عجزنا عن أن ننحى فردية الانسان المتغلغلة فيه حتى كل خلية منه. أما إذا أمكن للعلم التغلب على هذه العقبة — وهنالك محاولات جادة فى هذا المضمار — فانه يحق لنا أن نسأل أنفسنا فى هذه الحالة، عن مضار التقدم ومزاياه. ومهما كان الأمر فلا زالت حتى يومنا هذا فردية الانسان، وعدم تقبله للأنسجة الغريبة عليه، هى هى دون أدنى تبديل. ولقد حصل كل من «مدور» و «بورنيه» على جائزة نوبل فى عام ١٩٦٠، لاعن حلها لهذه المعضلة، وإنما لأنهما استطاعا أن يتقدما فى بحثها ويقدما شرحا أفضل لأهم العمليات التى تؤدى إلى المناعة فى الجسم.

فى استطاعتنا أن نحمى أنفسنا من مرض الجدرى إذا حقنا أنفسنا ضده مرة كل خمس إلى عشر سنوات، ولكننا

نخرج إلى العالم محقونين سلفا بمصل واق من أقرب الناس إلينا، بل من كل من عادانا، ونظل نحتفظ بهذا «المصل» مدى الحياة.

وعلى الرغم من كل الأحلام التي تعبر عن رغبات أصحابها، وما تنشره الصحف من أنباء، فانه لامفر من أن يعتمد الجراح والمريض على احتياطي كل منهما، لعلاج الأعضاء أو الأنسجة المصابة. أما العظام والغضاريف التي تنقل أحيانا من إنسان لانسان، وتحرز فوق ذلك نجاحا عمليا، فلا تستمر حياتها فى الجسم الجديد، وإنما تقوم بدور الكمرة الميكانيكية، والشكل الميت الذى تكسيه الخلايا الحية. وللجهادات أهمية عملية فى جراحة الشرايين، كأن يصنع لها من البلاستيك بعض الأنابيب المطاطة، وكذلك تستعمل المعادن كبديل لبعض أجزاء المفاصل. إلا أن كافة هذه الامكانيات لازالت محدودة، طالما أن الانسان لم يصبح آلة بعد، يمكن الحصول على قطع غيارها من رفوف أو مستودعات المستشفيات، أو على صورة أعضاء أشخاص لازالوا على قيد الحياة، أو آخرين توفتهم الأقدار. وينفرد بالانتفاع بهذه الإمكانية الأخيرة التوائم الذين خرجوا من بويضة واحدة.

إذاً فتقدم جراحة التجميل، واعادة الأعضاء إلى نصابها القديم، لاينهض على استعراض لجديد مثير، وإنما هو جامع لعدة تفاصيل، يمكن حصرها فيما يلي: الاهتمام بعلاج الأنسجة العضوية، والمضى على نهج عدم فتح جروح جديدة إلا لضرورة ملحة، وهو الأمر الذى يحدو بالجراح أن يضع نصب عينيه المحافظة على كل خلية، بكل ما أوتى من فن ومقدرة، وتكييف الجراحة وطريقة الحياكة واختيار سمك البشرة من حالة لأخرى، والتحرر من البيانات التقليدية التى تعشعش فى الكتب الدراسية، واستعمال غير هياب للخيال والابتكار، ومناهضة التقليد الخاطئ، الذى يرى فى العملية الجراحية تهديدا لحياة المريض.

على أن المعضلات الجراحية المتخصصة، والطابع الذى يميز الجراح، وتاريخ علم الجراحة وتطوره، لايحيط بكل ماينطوى عليه هذا الميدان. فالجراحة، بعد كل ذلك مهنة ومادة تدرس. وهنا أيضا يلعب كل من التقدم والتقليد دوره فى تشكيل الإطار الخارجي لهذا العلم، وتنظيمه.

وإن إجراء المقارنات بين مختلف العصور والأقطار، ليوقفنا على فروق كبيرة. ولا زلنا نحن بدورنا(٢) لانستطيع حتى اليوم أن نضع ببساطة تعريفا واضحا لعلم الجراحة. فهنالك فروع أخرى من الطب مرتبطة باسم هذا العلم أو بمفهومه، كما أنه فى الإمكان أن نصنف الجراحة ذاتها إلى عدة أقسام فرعية. فهى — أى الجراحة — لاتحمل ك «يانوس» وجهين فقط، وإنما تبعث فى نفوسنا صورة «هدرا» برءوسها التسعة أو التى تزيد على ذلك، بينما تصبح مهمتنا أشق من مهمة «هيروكليس» فى تمييز الرؤوس القابلة للموت من المركزية التى لاتعرف الفناء.

ظل علم الجراحة وحدة واضحة المعالم، طالما اقتصر على علاج الجروح والتغيرات الخارجية الظاهرة. إلا أن إمكانية التعرف على الأمراض الباطنية، وعلاجها بالمشرط، قد وسع ميدان علم الجراحة خلال القرن الأخير بدرجة هائله. ولقد أمكن، بالرغم من ذلك، فى بداية هذه المرحلة، أن تضم كافة أطراف هذا الحقل، حتى أن الطب الباطنى كان يمارس من الجراحين كذلك، وهو الأمر الذى يبعث اليوم على العجب. وعلى أى حال، فقد بدى وكأن رأى «هيبوقراط»، القائل بأن المرض متصل بالانسان ككل، وأنه يتعين لذلك على نفس الطبيب أن يعالج مختلف مظاهر المرض لدى الفرد الواحد، قد وجد السبيل إلى التحقيق. وهكذا دون «لانجنبيك»، فى مقدمة كتابه المعنون: «الجراحة فى عام ١٨٤٥»، جملته التالية: «إن الطبيب والجراح صفتان لشخص واحد».

ولازال يوجد حتى اليوم فى أصقاع كثيرة من سويسرا ذلك الطبيب المتخصص فى شتى فروع مهنته، والذى نخطئ إن نظرنا إليه على أنه مجرد ظاهرة فولكلورية. فليس التقليد القديم مهمة رائعة للطبيب فحسب، وإنما بالمثل معروف يسدى إلى المريض. لاسيما وأنه يخلصه من الصراع الدائر بين مختلف المناهج والاخصائيين، على حسابه. إلا أن دور العلم والمستشفيات الكبرى لم تستطع بالطبع أن تحتفظ بحرية الطب. فقد كان لامفر من تفريع الاختصاصات، وفصلها عن بعضها. الأمر الذى تم حسب وجهات نظر متعددة، بعضها يرجع إلى تشريح الأعضاء، والآخر إلى وظائفها، والثالث إلى فحصها وطرق علاجها.

وإن تاريخ التخصص فى كل من طب العيون، أو الأنف والأذن والحنجرة، أو فى علاج وتقويم تشوهات المفاصل والعظام، أو فى علم الأمراض البولية، أو تشريح الأعصاب، ليكرر نفسه على الدوام: ففى أول الأمر يظل الميدان المعنى مهملا فى رحاب علم الجراحة، إلى أن يأتى من يهتم به، وإن لم يستطع أن ينتصر على المقاومة النابعة من التنظيم القديم. إلا أنه بعد صراع عنيف يكون التحرر فى النهاية من ربقة التقليد. ثم يتبع ذلك الانعتاق تطور عظيم. فاذا ما بلغ الهدف، لم يسلم المختصون، فى أحيان كثيرة،

من الوقوع فى أخطاء من سبق أن تجبروا عليهم، بأن يتسلطوا دوما على ميادين جديدة. ويمكن القول بصورة عامة أن الفصل بين التخصصات قد أثبت جدواه. والآن، نسأل أنفسنا عما إذا كان ينبغى أن نواصل المضى فى هذا الاتجاه. وإنا وإن كنا نميل إلى رؤية التقليد فى الوحدة، والتقدم فى التخصص، إلا أننا لانملك أن نؤيد طرفا على حساب الآخر بلا تحفظ.

وإن هذين القطبين — الوحدة والتخصص — لايتناقضان فى علم الجراحة وحدها، وإنما فى ميدان الطب بأجمعه، بل فى الحياة والطبيعة على حد سواء. وما من جهة تقدم لنا إجابة واضحة عن محاسن ومساوىء التقليد والتقدم.

فعلماء الاجتماع يرون من ناحية أن أمل المستقبل معقود على مواصلة توزيع العمل. ومن جانب آخر يقول علماء الأحياء أن جميع الخلايا تكون فى المرحلة الجنينية متماثلة، لاتفاضل بينها. ثم يأتى بعد ذلك التميز والتخصص لوظيفة معينة وعضو معين. ورغما عن ذلك فإن قدرا معينا من الخلايا يظل دائما، فى كل أنحاء الجسم، بلا تخصص، بينما يحتفظ بالقدرة على التطور فى أى اتجاه، حسب ما تقتضيه الحاجة. ومن هنا يخرج عالم البيولوجيا بالنتيجة التالية: «إن التقدم يحدث بواسطة التخصص، أما إمكانية التقدم فتستمر بفضل عدم التخصص. «وتبعا للفلاسفة تتخذ الحقيقة موقفا وسطا، حيث يقول إفلاطون وكانت: «كقاعدة لكل معرفة يجب أن ينهض قانونان متساويان، أحدهما لتماثل النوع والآخر للتخصص، على ألا تزيد كفة الواحد منها على حساب الثانى». كما تعلمنا من هيبوقراط، أنه: «ليس فى مقدورنا أن ندرك المتخصص والمفرد إن ضاعت منا معالم الكل».

يضاف إلى التطبيق العملى لهذه النتائج المتعارف عليها فى كل مكان، واجب مراعاة الظروف المحلية والعوامل الزمنية، لاسيما وأنها تختلف من سويسرا إلى انجلترا إلى أمريكا. وإنا لنود بالدرجة الأولى أن نذكر أولئك الذين يتخذون مثلهم الأعلى من الخارج، بأهمية الملابسات المحلية. فاذا أردنا ألايمضى تطورنا إلى مآل شبيه بنهاية برج بابل، فانما نفعل خيرا بتوثيق صلة علم الجراحة بتنظيم كافة فروع الطب، وكذا بالظروف والملابسات المحلية وعادات الحياة، بل وعقلية المرضى أيضا.

وإن إعداد وتنظيم العلاج اللازم للمصابين بالحوادث اليومية ليقدم لنا النموذج العملى الذى يتطلب تحقيق كل ذلك.

ويرجع عدم الرضى بوضع الجراحة فى كل بلد إلى أسباب متباينة، بل متناقضة. فطالما عانى الجرحى فى سويسرا من التقليد العتيق الذى يجعل كبيرى الجراحين، فى المستشفيات التى تضم الكثير من المرضى، يحسون بواجب التركيز على إجراء العمليات الجديدة الخطيرة. أما العمليات التى كانت تجرى فى الساعد والساق، أو علاج كسر العظام والحروق وإصابات اليدين، أو إعداد الطرق الجراحية الهادفة إلى المحافظة على وظيفة الأصبع، أو تجنيب جرح فى الوجه، فكان أمرها يهمل.

ولم يكن الحال، فى البلدان ذات الحظ البعيد من التخصص أفضل من ذلك . ولازال . . فهناك يوجد إخصائيون لكل عضو، إلا أنه ليس من المستطاع أن يتقيد الجرحى بأوقات أو أماكن معينة، عند تلقيهم الإصابة، حتى يستطيعوا الاستفادة من خدمات هؤلاء الاخصائيين. أضف إلى ذلك أن حوادث المرور لم تتضخم عدديا فحسب، وإنما طرأ عليها كذلك بعض التغيير. فهى لم تعد تصيب عضوا واحدا، أو يترتب عليها مجرد أذى للبشرة أو كسر فى العظام، وإنما أصبحت فى مقدمة الاصابات الحديثة، تلك التى تشمل أكثر من عضو واحد، وبالتالى لاتصلح لقسم جراحى متخصص.

ومن الطبيعى أن يؤدى المجرى المتدفق من طرفى هذين النقيضين إلى نقطة التقاء فى الوسط. وهنا يتبين ضرورة النظر إلى علم الجروح على أنه وحدة متماسكة. فهو يشمل كافة الاصابات والأعضاء، وبالتالى يظل وثيق الصلة بعلم الجراحة العام.

وإن مطلب علم الجروح، الهادف إلى المضى فى ركب التقدم والتخصص، لايصبح فى مكانه إلا إذا عنى عناية خاصة بمشكلة كافة الأنسجة المصابة إما عن مرض أوحادث، فضلا عن ضرورة اهتمامه بجراحة التجميل، وإعادة أعضاء الجسم إلى نصابها القديم. وبهذه الطريقة يمكنه أن يحقق تقدما ملحوظا، وأن يكون فى نفس الوقت امتدادا للتقليد الجراحى الذى يرجع إلى مئات الأعوام، والذى كان يدور حول الإصابات والتغيرات الخارجية الظاهرة.

إذاً فالتقدم والتقليد فى علم الجراحة مرتبطان ببعضها إلى حد بعيد. ولو أن هذه الصلة التى تجمعها ليست من باب العقد التى لامجال إلى فصمهما، إلا أنه يمكن الوقوف عليها وتقييمها فى مختلف ميادين هذا العلم.

ترجمة مجدى يوسف

---

١) كما كان الحال فى عهد النازيه مثلا (المترجم).

٢) يتحدث المؤلف باعتباره جراحا . .

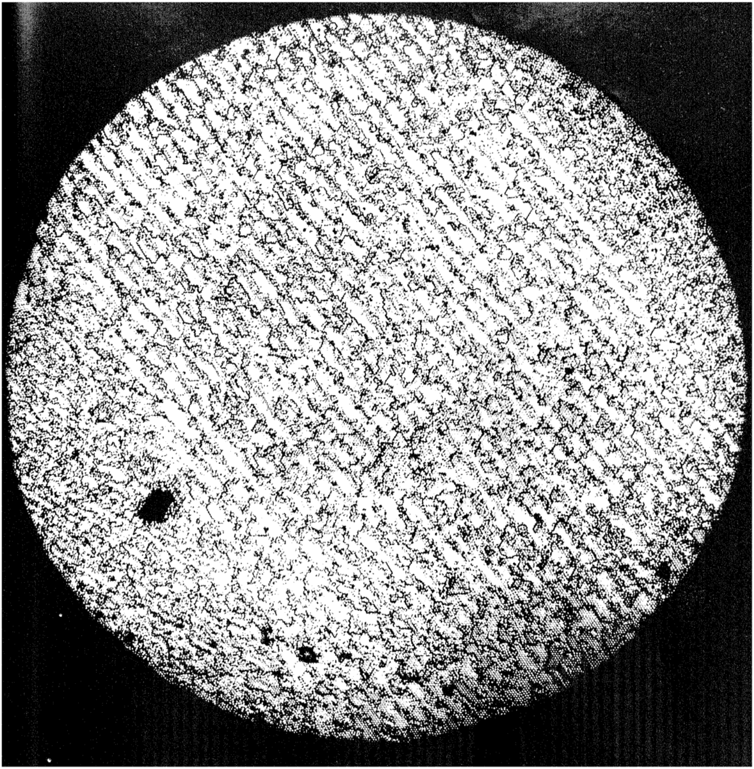

مادة «البولتستيرول» بعد تصويرها بالميكروسكوب الألكتروني. تصوير: Badische Anilin- und Sodafabrik. Ludwigshafen.

الشحرور

بقلم روبرت موزيل

كان الرجلان اللذان يتعين على ذكرهما – حتى أروى ثلاث قصص قصيرة يتوقف الأمر فيها على شخصية الراوى – صديقى طفولة، ولندعوهما آ١ وآ٢. فالواقع أن صداقة الطفولة تزداد غرابة كلما تقدمت سن صاحبها. وبمرور الأعوام يتبدل حال الانسان من أعلى رأسه حتى أخمص قدمه ومن شعر بشرته حتى قلبه، ولا تتغير هذه العلاقة العجيبة إلا بالقدر الضئيل الذى تتغير به صلات المرء بمختلف الأشخاص الذين يخاطبهم، كل فى دوره، بلفظة «أنا». وليس من الضرورى أن يستشعر المرء ما كان يدور فى نفس ذلك الصبى الصغير ذى الشعر الأصفر والعناد الكثير، والذى التقطت له الصور الفوتوغرافية منذ أمد بعيد. لا، بل ليس فى مقدورنا أن نزعم بأننا نحب أو نعتز بذلك الكائن الصغير الأرعن برغم تمركزه حول ذاته ومشاكساته. وعلى هذا القياس فلا المرء متفق مع أعز أصدقائه ولا هو راض بهم؛ زد على أن كثيرا من الأصدقاء لا يكنون مجرد الحب لبعضهم البعض. وهذه هى، بمعنى أو آخر، أعمق الصداقات الحاوية لذلك العنصر المستغلق على الأفهام دون ما عداه.

أما الطفولة التى جمعت بين آ١ وآ٢ فكانت ليست بأقل من دينية. ذلك أن كليهما نشأ فى معهد يتباهى بحرصه على مبادئ الدين، وإن ركز ناشئته كل طموحهم فى عدم الاعتراف بهذه المبادئ. فمثلا كان لهذا المعهد كنيسة جميلة كبيرة ككل الكنائس، ذات برج مشيد بالحجر، وهى فوق ذلك مخصصة لهذه المدرسة. وبما أنه لا يطأ هذه الكنيسة قدم غريب فقد كانت جماعات متفرقة من التلاميذ تنتهز فرصة ركوع زملائهم الباقين خلف المقاعد الأمامية – حسبما تقضى به الشعائر المقدسة – كى تنهض لتوها وتلعب الورق خلف كراسى الاعتراف أو تدخن اللفائف على درجات معزف الأرغل أو تختفى فى البرج الذى يحمل من تحت سقفه المدبب شرفة حجرية كطبق الشموع، حيث كانت تعرض على سورها فوق ذاك الارتفاع الذى يصيب بالدوار ألعاب أكروباتية فى مقدورها أن تقسم رقبة حتى من كان أقل من هؤلاء الصبية امتلاء بالخطيئة.

ومن بين ما كانوا يأتون به من حركات يتحدون بها الله أن يرتكزوا بأيديهم على سور البرج ويرفعوا أنفسهم بالضغط البطىء على عضلات سواعدهم وأنظارهم موجهة لأسفل ثم يترنحوا على أيديهم فوق ذلك الارتفاع. ولعل من قام بهذه الحركة الأكروباتية على سطح الأرض ليعلم عن كثب إلى أى حد يحتاج الأمر إلى حظ وجسارة وثقة بالنفس لإعادة هذه الحركة على شريط حجرى عرضه لا يتجاوز القدم، وفى ارتفاع برج كهذا. ولابد من القول أيضا بأن كثيرا من الغلمان الأشقياء الذين لا تعوزهم مهارة لم يجترؤا على الإتيان بهذه الحركة مع أنهم كانوا يسيرون بأيديهم فوق الأرض بلا أدنى عناء. فمثلا من بين هؤلاء «آ١». أما آ٢ فكان فى صباه صاحب اختراع هذا الاختبار العسير. ولعل ذلك مما يفيد فى تقديمه باعتباره راوية للقصة. كان من الصعب العثور على ما يضاهى بنيته. فهى لم تكن تتميز بعضلات رياضية – كما هو الأمر لدى أبدان الكثيرين – وإنما بدا عليه كما لو كان عبارة عن عضلات مجدولة بطبيعتها فى بعضها البعض دون أدنى جهد. وفوق هذه البنية كان يجلس رأس صغير مستطيل به عينان يشع منهما بريق يغلفه دعة ظاهرة، أما أسنانه فكانت تذكر بلمعان أسنان حيوان يطارد فريسته أكثر مما توحى بوداعة المتصوفة.

تحمس الصديقان فيما بعد – أثناء دراستهم العليا – لتعليل مادى للحياة ينظر للانسان على أنه مجرد آلة فسيولوجية أو اقتصادية بلا إله أو روح، وهو أمر غير مستبعد، وإن كان لم يعنهم إطلاقا مدى مطابقته للواقع من عدمه، فجاذبية هذه الفلسفة لا تكمن فى نصيبها من الحقيقة وإنما فى طابعها الجنونى المتشائم والذهنى المخيف. وكانت صداقتهما آنذاك صداقة شباب. فقد درس آ١ علم الغابات وتحدث عن نيته فى أن يعمل مهندسا للغابات فى أقطار بعيدة – كروسيا أو آسيا – بمجرد أن ينتهى من دراسته. أما صاحبه فاختار لنفسه حماسا أكثر اعتدالا وانضم فى ذلك الوقت إلى حركة عمالية صاعدة. وعندما التقوا مرة أخرى قبل الحرب الكبرى كان آ٢ قد عاد من روسيا وإن لم يقص الكثير عما فعله هناك، بينما أصبح

هورست آنتس : أبو العينين (عام ١٩٥٩/٦٠) Horst Anthes: Augenmensch.

عن كتاب : Junge Künstler 1963/64, Du Mont Schauberg

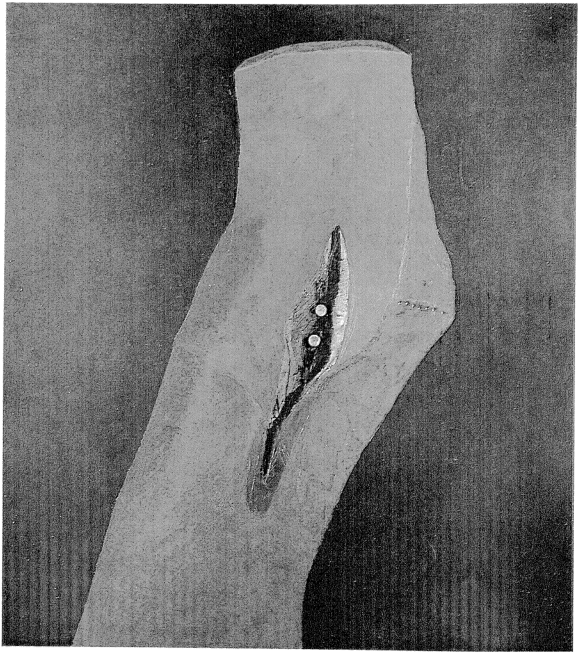

رايْنر كوشنمايستر: شكل أحمر (عام ١٩٦٣) Rainer Küchenmeister: Rote Figur.
عن كتاب: Junge Künstler 1964/65, Du Mont Schauberg
نشكر دار نشر دومون شاوبرج بكولونيا لإعارتها لنا كليشيهات هاتين اللوحتين.

الآن موظفا باحدى الشركات الكبرى. وكان باديا عليه أنه قد عانى كمية لا بأس بها من التجارب المريرة وإن كانت أحواله العامة عادية. أما صديق شبابه فصار فى تلك الأثناء من مكافح للنظام الطبقى إلى رئيس لتحرير صحيفة تكتب كثيرا عن السلم الاجتماعى وتتبع أحد رجال البورصة. ومنذ ذلك الوقت وكل منهما يحتقر صاحبه. ثم انقطعا عن بعضهما فترة، وإذ التقيا من جديد لزمن قصير راح آ٢ يقص مايلى بطريقة من يريد أن يفرغ لصديقه ما فى زكيبته من ذكريات ليمضى بالقماشة فارغة. لم يكن يعنيه فى هذه الحالة بم سيرد عليه صديقه، وإنما كان يمكن أن يروى حديثهما وكأنه مونولوج. وأهم من ذلك مالو تمكنا من أن نصف بشىء من الدقة مظهر وسلوك آ٢ إذ أنه لا معدى عن هذا الانطباع المباشر للوقوف على ما تعنيه كلماته. إلا أن ذلك صعب المنال. ولعل أقرب ما يمكن أن يقال أنه كان يذكر بسوط رفيع طويل معروق، وضع على طرفه اللين مسنودا إلى الجدار، بينما بدا عليه أنه راض بوضعه النصف قائم والنصف نائم على نفسه فى وقت واحد.

قال آ٢ أنه من أغرب الأماكن فى العالم تلك الأفنية البرلينية التى يبرز فيها فناءان أو ثلاثة أو أربعة مؤخرتها لبعضها الآخر، وفى ثقوب مربعة وسط الجدران تجلس الطابخات ويرفعن عقائرهن بالغناء. بينما يبدو من آنية النحاس الأحمر الموضوعة على الأرفف كم صوت قرقعتها عال. ومن أسفل يرتفع صوت رجالى مزمجر بكلمات غاضبة ناهرة إلى إحدى الفتيات فى الأدوار العليا، أو تتحرك على بلاط الفناء المزعزع قباقيب كبيرة من الخشب رائحة غادية. تتحرك ببطء. فى صلابة. بلاتوقف ولا معنى. بصفة مستمرة. أليس كذلك ؟

أما المطابخ وغرف النوم فقريبة هنا من بعضها كاقتراب الحب والهضم من جسم الانسان. وعلى مر الطوابق ترى مخادع الزوجية مرصوفة فوق بعضها، ذلك أن جميع حجر النوم تقع فى نفس الأماكن من الدار، وهكذا يحدد جدار النوافذ وحائط الحمام والثالث الذى تستند إليه خزانة الثياب مكان السرير لدرجة متقاربة تقاس بالنصف متر. وعلى هذا النحو نجد غرف الطعام وحجرات الاستحمام بقيشانها الأبيض والشرفات بمصابيحها ذات «الأبجورة» الحمراء. وهكذا فالحب والنوم والولادة والهضم وعودة اللقاء غير المنتظر والليالى المليئة بالقلق والأخرى الحافلة بالمسرات، تقع جميعها فوق بعضها البعض كعواميد الخبز فى «بوفيه» أوتوماتيكى. وإن المصير الشخصى ليقدر سلفا فى مثل هذه المساكن الخاصة بالطبقة المتوسطة، بمجرد أن يقطنها المرء. ولعلك تسلم بأن حرية الانسان تتوقف بالدرجة الأولى على وقت الفعل والمكان الذى يمارس فيه، إذ أن ما يفعله الناس متقارب إلى حد كبير: وإن لهذا معنى خطير لاسيما إذا خططنا كل شىء على نفس النمط. مرة تسلقت خزانة راجيا من وراء ذلك أن أستغل الخط الأفقى، وفى استطاعتى القول بأن الحديث الغيرمقبول، الذى كان على أن أديره من فوقها، قد أصبح مختلف الوقع تماما.

ضحك آ٢ من ذكرياته وصب فى كأسه بعض الشراب، بينما دار فى ذهن آ١ أنهما جالسين فى شرفة بمصباح ذى غطاء أحمر تابع لأثاثه، ولكنه سكت فقد كان يعلم بالدقة علام يستطيع أن يعترض.

وأقر آ١ من تلقاء نفسه: إنى لازلت أسلم حتى اليوم بأن أمرا مهولا يكمن فى هذا الانتظام، ومن قبل كنت أعتقد أن فى روح هذا التكتل الموحش ما يشبه صحراء أو بحرا أو مذبحا فى شيكاغو رغم أن هذه الصورة تقلب معدتى، أو ليست أمر مختلف تماما عن إصيص ورد! إلا أن الغريب فى الموضوع أنه فى الوقت الذى حصلت فيه على هذا المسكن رحت أفكر فى والدى بكثرة، وعلى غير العادة. فأنت تذكر أنى كنت قد فقدت تقريبا كل ما يربطنى بهما، إلا أنه دفعة واحدة سيطرت على ذهنى هذه الجملة: لقد منحاك الحياة، وجعلت هذه العبارة الغريبة تراودنى من حين لآخركذبابة لا سبيل إلى طردها. على أنه فيما عدا هذه العبارة الصورية التى طبعت فينا أثناء الصغر، لم ألاحظ شيئا. أما حين كنت أتأمل مسكنى فكنت أقول لنفسى: انظر، لقد ابتعت حياتك الآن فى نظير عدد معين من الماركات التى تدفعها سنويا كايجار. وربما قلت أحيانا: الآن، هاأنت ذا صنعت حياتك بمجهودك الشخصى. وبدا لى الأمر وسطا بين مخزن استيداع وتأمين على الحياة واعتداد بالذات. عندئذ رأيت أنه من العجب العجاب، بل بمثابة السر المغلق، أن يهدى إلى شىء سواء أردت أولم أرد، وإذ به فوق ذلك أصل كل ما عداه. إنى لأعتقد أن هذه الجملة حوت كنزا من الأمور غير المنتظمة ولا المتوقعة، كنت قد دفنته. ثم أتت قصة البلبل.

بدأت بمساء كغيره من الأمسيات الكثيرات. وكنت قد مكثت فى الدار، وتوجهت إلى غرفة الجلوس بعد أن ذهبت زوجتى لتنام، والفارق الوحيد عن سائر الأمسيات هو أنى لم أمسك فى جلستى بكتاب ولا بأى شىء،

وإن كان ذلك أيضا قد سبق حدوثه. وبعد الساعة الواحدة صباحا يبدأ الهدوء فى أن يخيم على الطريق، وتصبح الأحاديث نادرة، ويحلو للمرء أن يتتبع زحف الليل بالأذن. وفى الساعة الثانية ارتفع من أسفل أصوات جلبة وضحك تم بوضوح عن مرور بعض السكارى فى آخر الليل. وقد شعرت أنى أنتظر شيئا ولكن لم أدر ما هو. وحوالى الساعة الثالثة بدأ النور يشع فى السماء، فقد كنا فى شهر مايو. وتحسست طريقى فى المسكن المعتم حتى بلغت غرفة النوم ورقدت بلا صوت أو جلبة. ولم أكن أنتظر شيئا سوى النوم، وأن يحل فى صباح الغد يوما شبيها بسابقه. وحالا ما لم أعد أدرى إن كنت قد رحت فى نوم أو لازلت يقظا.

ومن بين الستائر وثنايا الشباك الدوار جعل يتدفق لون أزرق داكن، بينما تقاطعت أشرطة رفيعة من زبد الصباح الأبيض. وربما كان ذلك هو آخر ما وعيت أو كان وجه حالم مضطجع. هنا أيقظنى شىء يقترب، تبين أنها نغمات. ومرة بعد الأخرى تأكدت من أن السبات قد شدنى إليه. ثم جلست النغمات فوق أعلى نقطة فى الدار المجاورة لنا، وراحت تقفز فى الهواء كالدلافين. أو ربما أيضا كطلقات النور فى حفلات الصواريخ. فقد تخلف الانطباع الناجم عن الطلقات المضيئة التى تفتت أثناء سقوطها برقة على ألواح الزجاج، ثم هبطت كالنجوم الفضية الكبيرة فى الأعماق. وعندئذ أحسست بوضع سحرى. فقد رقدت فى مخدعى كتمثال ميت فوق اللوح الذى يغطى قبره، واستيقظت، ولكن على نحو مخالف لاستيقاظى أثناء النهار. وإنه لكم يصعب على أن أصور ما حدث، ولكنى عندما أفكر فيه يخيل إلى كما لو أنى كفئت بالعكس فلم يعد لشكلى بروزا وإنما هبوط. ولم تكن الغرفة مجوفة وإنما تألفت من نسيج لا وجود له بين أقمشة النهار. نسيج أسود شفاف، أسود يمكن استشفافه من الداخل، ومنه أتألف أنا أيضا. وأسرع الزمن فى عدوه على شكل ضربات نبض صغيرة محمومة. ترى لم لا يحدث الآن مالا يحدث فى العادة؟ — وقلت لنفسى بصوت مرتفع: إنه بلبل ذاك الذى يغرد!

وبينما كنت مستغرقا فى التفكير راح «آ٢» يستطرد قائلا: غير أنه ربما كان فى برلين بلابل عدة. فقد اعتقدت آنذاك أنه لا يوجد أى منها فى تلك الجبال الصخرية، وأن ذلك البلبل قد طار من بعيد إلى. إلى أنا! — هكذا شعرت ونهضت مبتسما. — عصفور من السماء! إذاً فهنالك بالفعل شىء من هذا القبيل! — فى مثل هذه اللحظة يصبح المرء قابلا للاعتقاد — فى غاية البساطة — بما فوق الطبيعة من قوى. وإنه ليبدو حينئذ كما لو كان الواحد منا قضى طفولته فى عالم سحرى. ودار بخلدى لتوى: سأتبع البلبل. وداعا يا حبيبتى! — هكذا قلت فى نفسى —! وداعا يا حبيبتى، يا دارى، يا مدينتى ..! ولكنى قبل أن أنهض من مخدعى، وقبل أن أتبين ما إذا كنت سأصعد وراء البلبل فوق أسطح الدور أو سأتبعه من الطريق، كان العصفور قد سكت وعاود طيره بما لا يحتمل الشك.

ودار فى خاطر آ٢ : الآن راح يغرد على سطح آخر لنائم مغاير. — ربما اعتقدت أن القصة انتهت بذلك؟ — بل هى قد بدأت الآن، ولست أدرى كيف ستكون نهايتها!

أحسست بالوحدة والضيق، وقلت فى نفسى: لم يكن بلبلا وإنما شحرورا، تماما كما أردت أن تقول. وإن هذه الشحارير لتقلد الطيور الأخرى، كما هو معروف. وهنا كنت قد استيقظت تماما وبدأت أمل السكون. فأشعلت شمعة وتأملت المرأة الراقدة إلى جوارى. لقد بدا جسدها شاحبا كلون أحجار أسطح الدور. وعلى بشرتها كانت ترقد الحافة البيضاء لغطاء المخدع كشريط من الثلج. وتعرجت خطوط عريضة من الظلال حول جسمها، خطوط لا يعرف مصدرها على وجه التحقيق، وإن كانت بطبيعة الحال متعلقة بالشمعة وحركة ذراعى. — وخطر لى: ماذا هو فاعل، لو أنه كان مجرد شحرور! بالعكس، إن مجرد كونه شحرورا عاديا هو الذى طار له صوابى: فمعناه أكثر من ذلك بمراحل! ألا تعلم أن المرء يبكى لصدمة إخفاق بسيط، فاذا صارت مزدوجة ارتسمت على وجه صاحبها ابتسامة. ومن وقت لآخر كنت أعاود النظر إلى زوجتى. فكل ذلك متصل ببعضه ولكن لا أدرى على أى نحو. وقلت فى نفسى: أحببتك منذ سنوات كما لم أحب شيئا فى العالم، والآن ها أنت راقدة كقشرة حب محترقة. الآن صرت غريبة عنى تماما. وهأنذا خرجت من النهاية الأخرى للحب. هل كانت السآمة؟ ما أذكر أبدا أنى أحسست بالسأم. وإنى لأصف لك ذلك كما لو كان فى مقدور الاحساس أن يخترق القلب كما يخترق جبل يوجد على سفحه الآخر عالم مغاير يقع فيه نفس السهل ونفس الدور وبعض القناطر الصغيرة. ولكنى لم أدر ببساطة ماهية ذلك. ولازلت لا أعرف حتى اليوم. لعلى لست محقا فى أن أروى لك هذه القصة فى ارتباطها بقصتين أخرتين يتبعانها. ولكنى أستطيع أن أقول لك وحسب كيف نظرت إليها عندما خبرتها: لقد نفذ إلى منها إشارة ما — كان هذا هو انطباعى عنها.

وضعت رأسى إلى جوار جسدها وهى نائمة بلا وعى ولا مشاركة. وبدا صدرها فى ارتفاع وهبوط مبالغ فيه، كما راحت جدران الغرفة تقترب وتبتعد عن جسم النائمة كأمواج بحر مرتفع حول سفينة قطعت شوطا بعيدا فى أعماقه. ولعلى ما كنت أستطيع أبدا أن أنصرف عنها مودعا. ولكنى إذا ما سرقت نفسى الحين بعيدا عنها فانى أبدو لنفسى ذلك الزورق الصغير المهجور وحيدا بينما تمر بى سفينة كبيرة آمنة، تمر بى دون أن تحس بوجودى — قبلت النائمة فلم تشعر. وهمست فى أذنها بشىء، وربما كنت حريصا على ألا تسمع همسى. فقد ضحكت من نفسى وهزأت بالبلبل، وإن كنت قد بدأت أبتعد خفية. وأعتقد أنى شهقت بالبكاء، ولكنى ذهبت بالفعل. وتنفست الصعداء، ولو أنى حاولت أن أقول لنفسى أنه لا يليق بشخص كريم الخلق أن يفعل ذلك. وأذكر أنى كنت كمخمور يهجو الشارع الذى يسير فيه كى يثبت لنفسه أنه يقظ.

وبالطبع كثيرا ما فكرت فى العودة، وأحيانا ما كنت أحب أن أعود ولو مررت بنصف العالم، ولكنى لم أفعل. فقد كانت بالنسبة لى غير قابلة للمس. لست أدرى إذا ما كنت تفهمنى : إن من يحس بالجور فى أبعد أعماقه لا يغيره. وبهذه المناسبة لست أريد منك تبرئة لى. وإنما أود أن أروى عليك حكاياتى لأعلم إذا ما كانت حقيقية. لقد عجزت طيلة أعوام طوال عن أن أسرّ لأحد بما ينطوى عليه صدرى. ولو أنى سمعت نفسى وأنا أتحدث إليها بصوت مسموع فى هذا الأمر لذعرت صراحة من نفسى .. فلتستمسك إذاً بألا يذعن تعقلى لاستنارتك. غير أنه بعد ذلك بعامين وجدت نفسى فى زقاق مسدود، أو قل فى زاوية ميتة استدارت عندها الخطوط الأمامية من جيشنا المحارب فى جنوب «التيرول»، عائدة من الخنادق الدموية بـ «تسيا دى ڤيتسينا» والواقعة على بحيرة «كالدوناتسو». وهناك مضت فى أعماق سهل التيرول كموجة من شعاع الشمس ترفرف على تلين ذى إسمين جميلين، ثم راحت تصعد الجانب الآخر من السهل لتضيع فى سلسلة مرتفعات جبلية ساكنة. وكان الوقت فى شهر أكتوبر (تشرين الأول)، والخنادق المشغولة بعدد يسير من المحاربين امتلأت بأوراق الخريف، واشتعل اللون الأخضر بلا صوت فى البحيرة، ورقدت التلال كضفائر زهور ذابلة. وكثيرا ما خطر لى أنها تبدو كجدائل الزهر الموضوعة على القبور، وإن لم أكن أخشاها. ومن حولها راح السهل يتدفق مترددا وموزعا، حتى إذا ما انحدر فيما وراء المنطقة التى احتللناها نكص عن ذلك التشتت العذب ومضى كصوت منبعث بقوة من نفير، أسمر عريضا بطوليا فى بقاع العدو البعيد ..

وفى وسط الليل احتللنا موقعا متقدما فى وسط السهل، كان من الممكن القضاء علينا ونحن فيه لو ضربنا بالحجارة من فوق. غير أنا لم نشو إلا بالنيران البطيئة لأسلحة المشاة. حتى إذا حل الصباح بعد تلك الليلة الليلاء كانت وجوه الجميع ملبدة بسيماء غريبة، لم تذهب إلا بمرور بضع ساعات : فالأعين كانت متسعة الحدقات، وارتفعت الرءوس من فوق الأكتاف بصورة غير منتظمة وكأنها حشائش سبق أن داستها الأقدام. وبرغم ذلك فكثيرا ما كنت أخرج رأسى من حافة جحرى، فى تلك الليالى، وأدور به فى حذر وكأنى عاشق ولهان : عندئذ أشهد فرقة «برنتا» فى لون سماوى الزرقة شفاف وقد بدا عليها وهى واقفة فى الليل كما لو كانت من زجاج مصبوب على هيئة متعرج حاد الزوايا. أما النجوم فكانت فى تلك الليالى كبيرة وكأنها مقصوصة من ورق مذهب، وراحت تبرق كما لو كانت مخبوزة من عجين مدهون بالسمن. وكانت السماء لاتزال زرقاء بينما توسطها فى تلك الليلة قمر على شكل منجل رفيع مستلق على ظهره فى رقة فتاة، راح يعوم فى محيط من البهجة المفتونة، ويرسل شعاعه فضيا خالصا أو ذهبيا خالصا. لابد أن تحاول جهدك لتتصور كم كان هذا جميلا؛ فما من مقابل لهذا الجمال فى رحاب الحياة الآمنة المستقرة. وأحيانا كان يضيق صدرى بما أنا فيه فأزحف من فرط سعادتى واشتياقى متجولا فى الليل حتى أبلغ الشجر الأسود فى زرقة مذهبة وأنهض ناصبا قامتى بينه كريشة صغيرة بنية زرقاء وسط ريش طائر الموت وهو فى جلسته الهادئة وبمنقاره الحاد وتنوع ألوانه الساحرة حتى السواد، على نحو لم تشاهد له مثيل.

وبعكس ذلك كان التجوال ميسورا أثناء النهار على ظهر الخيل فى الموقع الرئيسى لعملياتنا. فالواحد منا لا يعرف الخطر إلا فى مثل تلك الميادين التى تتيح له فرصة التأمل والفزع. وقد كانت هذه المواقع تجر ضحاياها فى كل يوم وبمعدل نسبة مئوية ثابتة كل أسبوع، يقدرها أركان حرب الوحدة فى آلية شركات التأمين. وبالمناسبة كلنا أيضا. فكل منا يعرف بغريزته ما ينتظره من حظ، كما يحس بأنه مؤمن عليه وإن يكن بشروط غير كريمة تماما. وما هذا سوى تلك السكينة الغريبة التى تراود المرء طالما كان يعيش فى خط النار. بل من الضرورى أن أوضح ذلك منذ البداية حتى لا تتصور الأمر على نحو خاطىء. وبالطبع أحيانا ما يحدث أن يشعر الواحد فجأة بحافز يدفعه للبحث

عن وجه معين معروف سبق أن رآه منذ أيام معدودة، وإن كان قد اختفى اليوم. إن وجها كهذا قد يهز النفس بعنف يزيد عن احتمال العقل، وقد يظل معلقا طويلا فى الهواء كضوء شمعة متهافت. إذاً فما كان المرء يهاب الموت كخوفه منه فى العادة، ومع ذلك فقد أصبح عرضة لأى مثير. فالبادى أنه كما لوكان الهلع من البداية، وهو الذى يربض فوق المرء بلا توقف أو هدنة، قد تدحرج .. وأزهرت مكانه على مقربة غير معينة من الموت حرية داخلية عجيبة ..

ومن فوق موقعنا الهادىء كان يحلق مرة أو أخرى طيار مغير .. وإن لم يحدث ذلك بكثرة إذ كان لابد لطائرات العدو من أن تحلق على ارتفاع شاهق فوق سلسلة جبالنا ذات الممرات الهوائية الضيقة — فما بينها — والقمم المحصنة بالمدافع الثقيلة. وبينما كنا واقفين على أحد «أكاليل القبور» فوجئنا للتو بسحب بيضاء من ذلك النوع الذى تخلفه الطائرات فى السماء، وكأنها من صنع مبدرة سريعة كالبرق. وبدا ذلك مضحكا، بل كاد أن يكون مبهجا. زد على أن الشمس قد لاحت من خلال جناحى الطائرة بألوانها الثلاثة بينما كانت مارة فوق رءوسنا، فظهرت أشعتها وكأنها تلوح من خلال نافذة إحدى الكنائس أو من ورق حريرى ملون، ولم ينقص تلك اللحظة سوى موسيقى موتسارت. عندئذ خطر لى أننا نشبه جماعة تشاهد سباقا فى حلقة وتعين هدفا جيدا. فقد ارتفع صوت أحدنا : عليكم بالاختباء! ولكن أحدا منا كان لا يجد الرغبة فى الانزواء داخل ثقب فى الأرض كما تفعل فئران الحقول. وفى تلك اللحظة سمعت رنينا خافتا يقترب من وجهى المشدود إلى فوق. ومن الممكن طبعا أن يكون قد حدث العكس، فأكون قد سمعت الرنين أولا ثم أدركت اقتراب الخطر. إلا أنى فى نفس اللحظة عرفت ما هو : رمح طائر! وكان على هيئة قضبان حديدية مدببة لا تزيد سمكا عن خيط الرصاص الذى يستعمله النجارون فى القياس. أما هذه الرماح الطائرة فكانت تلقيها الطائرات آنذاك من عل فاذا، أصابت دماغا ما، ما خرجت إلا من نعل القدم، ولكنها لم تصب كثيرا مما حدا إلى الاسراع بالاستغناء عنها. وهكذا كان ذلك أول رمح طائر فى حياتى؛ أما القنابل وضربات المدافع الآلية السريعة فكانت تصدر أصواتا مختلفة تماما. وعلى أى حال فقد عرفت لتوى علام أنا مقدم. وتوتر انتباهى ثم زايلنى فى اللحظة التالية إحساسا غريبا لا أساس له من الواقع المحتمل : أنه سيصيب!

وهل تعلم كيف حدث ذلك؟ لم ينزل على هذا الشعور كفكرة مزعجة وإنما كحظ سعيد لم يسبق له مثيل! وعجبت أول الأمر إذ خيل إلى أنى الوحيد الذى سمع الرنين. ثم خطر لى أنه لابد للصوت أن يختفى من جديد. ولكنه لم يفعل. بل تقدم منى، وإن يكن على بعد كبير، وصارت أبعاده أضخم. ونظرت بحذر إلى وجوه الآخرين غير أن أحدا لم ينتبه إليه. وفى تلك اللحظة التى أدركت فيها بوضوح أنى الوحيد الذى كان يستمع إلى غنائه العذب، صعد شىء منى تجاهه : شعاع من الحياة لا نهاية له كذاك القادم من صوب الموت. وإنى لا أبتدع تلك التجربة بل أحاول أن أصفها بأقصى قدر من البساطة. كما أنى مقتنع بأنى قد عبرت عن نفسى بأسلوب فزيائى جاف. وبالطبع أعلم أن ذلك كان شبيها إلى حد ما بحلم يعتقد الحالم فيه أنه يتحدث بوضوح تام بينما تبدو كلماته فى صورة مختلطة من الخارج.

ومر وقت طويل كنت فى أثنائه انفرد بسماع الحدث الذى كان يقترب. كان صوت رفيع مغن فى ارتفاع وبساطة، أشبه ما يكون بالصوت الناجم عن ضرب حافة كوب. إلا أنى قلت لنفسى أن به شيئا منفصلا عن الواقع لم يسبق لى سماعه. وكان هذا الصوت موجها نحوى، وكنت أنا على اتصال به حتى أنه لم يزاولنى أدنى شك فى أن أمرا حاسما سيقع بى. وما من فكرة واحدة طافت بخلدى من نوع تلك الأفكار التى تراود المرء فى لحظات وداع الحياة، وإنما كان كل ما أحسست به متجها نحو المستقبل. والحق أنى كنت على ثقة تامة من أنى سأشعر بقربى من جسدى منذ أول دقيقة لى بجوار الله. ولعل ذلك ليس بالأمر الهين خاصة بالنسبة لانسان لم يعتقد فى الله منذ عامه الثامن.

فى تلك الأثناء كان الصوت القادم من أعلى قد صار أكثر تجسدا وانتفخ مهددا. هنا سألت نفسى مرات عما إذا كان يجب أن أحذر الآخرين، غير أنى ما أردت أن أفعل، ولو أصبت أو أصيب سواى! وربما اختفى وراء ذلك زهو ملعون يرجع إلى اعتقادى الواهم بأن ثمة صوت يغنى لى من فوق ساحة الوغى. وربما كان الله ليس بأكثر مما نزهو به، نحن معشر الطفيليين، فى وجودنا المحدود، من أن لنا قريبا غنيا فى السماء. وعلى أى حال فقد بدأ الرنين يتخلل الهواء إلى الآخرين عن يقين. ولاحظت أن بقعا من القلق مرت سريعة بسحنهم، وانظر — لم تنزلق كلمة من فم أحدهم! وتطلعت مرة أخرى إلى تلك السحن، فاذ هى لصبيان ما كان أبعدهم عن مثل هذه الأفكار، وقد وقفوا — دون علم منهم — كجماعة من التلاميذ الأتقياء تنتظر

اوسكار كوكوشكا : احدى بوابات مدينة مراكش
كلا اللوحتين محفوظ فى Kunstsalon Wolfsberg, Zürich – Walter Dräger, Zürich.

رسالة سماوية. وفجأة تحول الغناء إلى نغم أرضى، على بعد عشرة أقدام أو مائة قدم من فوقنا، ثم تبدد. لقد كان موجودا فى وسطنا، وبالقرب منى أنا بالذات، وإذ به يكتم وتبتلعه الأرض، ويتفتت إلى سكون لا علاقة له بالواقع. ودق قلبى فى رحابة وهدوء، ومن غير المعقول أن أكون قد اضطربت ولو لجزء من الثانية، فما افتقدت إلى أقل جزىء من زمن حياتى. إلا أن أول ما أدركت بعد ذلك هو أنهم كانوا جميعا ينظرون إلى. وكنت واقفا بقدمىّ فى نفس البقعة وإن انتزع جسمى بشدة إلى الجانب وشكل انحناءة عميقة على هيأة نصف دائرة. وشعرت أنى قد استيقظت من غيبوبة، ولم أعلم كم طال زمنها. ولم يبادرنى أحد بالحديث، ثم أخيرا قال أحدهم: رمح طائر! وأقبل الجميع يريدون البحث عنه، ولكنه كان قد اخترق الأرض واندفن فيها على مبعدة أمتار عديدة. وفى تلك اللحظة غمرنى إحساس ممتن ساخن، وأعتقد أن الحمرة قد تخللت جسدى بأكمله. ولو قال امرء أن ثمة اتحادا صوفيا بالله قد استولى على لما ضحكت، وإن لم أصدق. فما اعتقدت أنى حملت منه ذرة واحدة.

وبالرغم من ذلك فكل مرة أذكر فيها تلك التجربة أحس برغبة فى أن أعانى شيئا كهذا مرة أخرى بصورة أوضح!

وبالمناسبة، لقد عشتها مرة ثانية وإن يكن بدرجة من الوضوح لا تزيد على الأولى – هكذا ابتدأ آ ٢ قصته الأخيرة. وبدا عليه أنه ما عاد على ثقته الأولى بنفسه، وإن لوحظ عليه أنه لهذا السبب بالذات كان يتحرق لأن يستمع إلى هذه القصة وهو يرويها لنفسه.

وتدور هذه القصة حول أمه التى لم تحظ بحب آ ٢، وإن ادعى هو بأن ذلك غير صحيح. – حيث قال فى ذلك: كلانا لم يناسب الآخر من الوجهة السطحية. وإن ذلك لأمر طبيعى فى نهاية المطاف إذ عاشت سيدة عجوز طيلة عقود فى مدينة صغيرة لم تبرحها، بينما لم يحقق ولدها – حسب مداركها – أى نجاح فى العالم الواسع. ولقد بذرت فى نفسى القلق كما يريع وجود مرآة تمط صورة الناظر فيها بالعرض، لسبب غير معروف بالضبط. وكنت أكدر أمى بانقطاعى عن زيارتها طيلة أعوام وأعوام. ولكنها كانت تكتب إلى كل بضعة شهور رسالة تنضح

اوسكار كوكوشكا : الشارع المركزى فى مراكش

باللهفة على وتحتوى على الكثير من الأسئلة. وإذ كنت لا أجيبها على كتابها أيضا، فقد كان هنالك بالرغم من ذلك شيء جد غريب. وبرغم كل ذلك فقد كنت على صلة حميمة بها كما تبين فى النهاية.

ولعله كان قد انطبع فى نفسها منذ عقود طويلة صورة غلام صغير وضعت فيه جل آمالها التى صارت هباء فيما بعد، ولما كنت أنا هو ذلك الصبى الذى اختفى منذ مدة طويلة فقد تعلق حبها بى كما لو كانت كل الأجرام والشموس التى سبق أن هبطت من عليائها لا زالت عالقة بين الضوء والظلمة. هنا فى وسعك أن تخبر زهوك الغامض مرة أخرى، الذى هو ليس بزهو على الاطلاق. فالواقع أنى لا أحبذ الوقوف عند ذاتى، وإنى لأعجز عن فهم ما يفعله الكثيرون حين يتطلعون بارتياح إلى صورهم الفوتوغرافية وهى تعرضهم فى مراحل حياتهم الماضية، أو حين يتذكرون ما فعلوا هنا وهناك — هذا النظام الشبيه بدفتر توفير الذكريات. كما أنى لست بغريب الأطوار أو متقلب الطباع ولا أنا ممن يعيشون للحظتهم، ولكن إذا ما مر بى شيء فانى أنا أيضا أكون قد مررت بذاتى. وحين أذكر أثناء عبورى أحد الطرق أنى طالما سرت فيه من قبل، أو حين أرى دارى السابقة فانى أحس — بلا أى أفكار — ألما وتقلبا شديدا على نفسى كما لو كنت قد تذكرت أمرا مخزيا. فما حدث فى الماضى إنما ينجرف عندما يتغير الواحد منا، وإنه ليبدو لى أنه ما من تبدل يطرأ على الذات إلا ومرجعه أن الشخص الذى تركناه ليس بكامل تماما. ولكن لأنى أشعر عادة بذلك فقد كان رائعا أن ألاحظ أن إنسانا قد التقط لى صورة ثابتة مع أنى لازلت حيا؛ ويبدو أنها كانت صورة لم تطابقنى على الاطلاق، وبرغم ذلك فقد كانت بمعنى معين بمثابة أمر إبداعى وسجلى. أتفهمنى إذاً لو قلت أن أمى كانت، بهذا المفهوم الاستعارى، ذات طبيعة أسد مأسور داخل الوجود الفعلى لامرأة محدودة الآفاق؟ فهى لم تكن حكيمة حسب مفهومنا ولم يكن فى مقدورها أن توسع من مداركها أو أن ترى ما بعد؛ وهى لم تكن أيضا طيبة معى فى طفولتى إذا ما رجعت بذاكرتى لتلك الحقبة، وإنما كانت شديدة عصبية، ولعله فى استطاعتك أن تتصور ما ينجم أحيانا عن اختلاط حرارة الانفعال بضيق الأفق : ولكنى أود أن أزعم أن هنالك عظمة وشخصية لا تزال غامضة علينا حتى اليوم من خلال

تجسدها فى الصورة التى يعرض الانسان بها نفسه حسب تجاربنا العادية، كما كان الأمر فى عصور الأساطير حين كانت الآلهة تتقمص أشكال الثعابين والأسماك.

بعد قصة الرمح الطائر بوقت قصير وقعت أسيرا فى روسيا، ثم خبرت هناك بعدئذ ما جرى من تغير كبير، ولم أعد بسرعة إذ أعجبتنى تلك الحياة الجديدة زمنا طويلا. ولازلت أعجب بها حتى اليوم، ولكنى اكتشفت ذات يوم أنه لم يعد فى مقدورى أن أنطق بعض الجمل العقائدية التى لا سبيل إلى التنحى عنها دون أن أتثاءب، وهكذا وفرت على نفسى ما يتصل بذلك من خطر على حياتى، بأن أنقذت نفسى بالعودة إلى ألمانيا حيث كانت الفردية فى أوج تعفنها. ومارست عددا لا بأس به من الأعمال المريبة، بعضها عن فقر والآخر عن استمتاع بالوجود مرة أخرى فى بلد قديم يمكن فيه الإتيان بسوء دون أن يضطر المرء إلى أن يشعر بالخزيان. ولم يعد ذلك على بالخير كما أنى أحيانا ما كنت أعانى من ذلك أشد العناء. كذا لم يكن أبواى على خير ما يرام. فقد كتبت إلى أمى بضعة مرات لتقول لى: ليس فى مقدورنا معاونتك، ولكنى إذا كنت أستطيع أن أمد لك يد المساعدة بالقليل الذى كنت سترثه، فانى لأتمنى لنفسى الموت. لقد كتبت إلى هذه الكلمات مع أنى لم أزرها منذ سنوات أو أبديت لها أى بادرة حب. ولابد أن أعترف بأنى لم آخذ هذه العبارة سوى على أنها ضرب من الكلام المغالى فيه، ومن ثم لم أجعل له أية أهمية، برغم عدم شكى فى صدق الاحساس الذى عبر عن ذاته بطريقة عاطفية.

وفكر آ٢ — لقد ماتت عن مرض لابد أنها كانت تحمله بين ثناياها دون أن يدرى به إنسان. فى الامكان أن نسبغ على التقاء الكثير من الأمور تفسيرات طبيعية. وإنى لأخشى أن تأخذ ذلك على لو لم أفعل نفس الشىء. ولكن الأمر العجب كان هذه المرة أيضا هو الملابسات الجانبية. فهى أبدا لم ترد أن تموت. بل أعرف أنها طالما كانت تستنكر الموت المبكر لنفسها وتندبه. كما أن عزيمتها الحية وقراراتها الحاسمة ورغباتها كانت جميعا موجهه ضد ذلك الحدث. وليس فى الامكان القول بأن ثمة قرار شخصى قد عارض إرادتها الراهنة، وإلا لفكرت من قبل فى الانتحار أو فى اختيار الفقر، وهو الأمر الذى لم يدر فى خلدها بمثقال ذرة. فهى قد كانت بذاتها ضحيـــة بالمعنى الكامل للكلمة. ولكن ألم تلاحظ أبدا أن لجسدك إرادة مغايرة لإرادتك أنت شخصيا؟ إنى لأعتقد أن كل ما يدور بخلدنا فى شكل إرادة أو مشاعر وأحاسيس وأفكار خاصة بنا، يبدو عليها كما لو كانت تسيطر علينا، إنما لا تفعل ذلك حقا إلا باسم تفويض محدود، وأنه فى حالات المرض الشديد والشفاء، والصراع غير المتكافئ وكل تحول حاسم للمصير، يوجد نوع من الحسم الأساسى يتخذه الجسم بأجمعه، حيث يتضمن القوة والحقيقة الأخيرة. ومهما كان الأمر فمن المؤكد أنه تخلف فى نفسى عن مرض والدتى انطباع ما بأنه كان على نحو اختيارى خالص. ولو أنك اعتبرت كل شىء مجـــرد خيالات لا أكثر، فقد حدث برغم ذلك أنى عندما سمعت بنبأ رقاد والدتى فى فراش المرض طرأ على تغير كامل وبطريقة واضحة البيان، مع أنه لم يكن هنالك إطلاقا ما يدعو للقلق عليها: ففى اللحظة نفسها ذابت الصلابة التى كانت تحيط بى، وليس فى مقدورى أن أقول أكثر من أن الوضع الذى وجدت فيه منذ تلك اللحظة كان يشبه كثيرا يقظتى فى تلك الليلة التى غادرت أثناءها دارى، وتجربة انتظارى للرمح المغنى وهو ساقط من عل. وأردت أن أرحل لتوى إلى أمى، ولكنها اختلقت مختلف المبررات لتبقينى بعيدا عنها. وأخيرا بعد محاولاتى المتكررة اللحوحة بعثت إلى بقولها أن التطور الايجابى الحاسم فى سبيله إليها وأنه على أن أصبر بعض الشىء فقط. ويبدو أنها كانت تخشى أن تتأرجح لو التقينا فحسمت الأمر بسرعة حتى أنى لم أبلغها إلا وهى فى طريقها للدفن..

ووجدت كذلك والدى مريضا. وكما أخبرتك لم ألبث أن رأيته وهو يحتضر. وكان فى السابق رجلا طيبا أما فى تلك الأسابيع التى سبقت وفاته فكان متقلب الأطوار على نحو عجيب، كما لو كان لم ينس الكثير من سيئاتى، فضلا عن أنه كما لو كان فى وجودى إزعاجا له. وبعد وفاته كان على أن أحل شئون الدار، واستغرق ذلك بضعة أسابيع، غير أنى لم أكن فى عجلة. وأقدم أهل المدينة الصغيرة من هنا وهناك على عادتهم، وراحوا يقصوا على فى أى الأماكن من غرفة الجلوس كان يجلس والدى، وأين كانت تجلس والدتى ويتخذون هم أماكنهم. وعندما كنت أستفرد بنفسى كنت أجلس فى هدوء وأطالع كتب الأطفال. فقد وجدت منها ما كان يملأ زكيبة كبيرة موضوعة فوق السطح. وكان بعض تلك الكتب متربـــا ومهببا، وإلى حد ما جافا أو مشبعا بالرطوبة، وإذا ما قرعتها خرجت منها سحب داكنة السواد بلا توقف، وكذا كان الورق الموسوم بخطوط الماء قد اختفى من الكتب الكارتونية ولم يخلف وراءه سوى مجاميع من الجزر المتعرجة الحواف. ولكنى حين كنت أتغلغل فى الجوانب كنت

أسيطر على المضمون كبحار بين تلك المخاطر. وفى ذات مرة تكشف لى أمر غريب. فقد لاحظت أن السواد فى المنطقة العليا حيث تقلب منها الأوراق، وعند الحافة السفلى من الكتب مختلفا بطريقة خافتة الوضوح تخضع لما فعلت بها أحوال الطقس. ثم عثرت على قدر لا بأس به من البقع التى لا معنى لها، وأخيرا على آثار مندفعة لقلم رصاص باهت على الصفحات الأولى. ودفعة واحدة سيطر على إحساس بأنى قد عرفت أن ذاك الاستعمال والاستهلاك الشديد، وشخبطات القلم الرصاص والبقع المتخلفة فى سرعة، ليست إلا آثار أصابع طفل، هو أنا، وها هى محفوظة لمدة ثلاثين عاما أو أكثر فى زكيبة على السطح، وقد نسيت تماما! — وقد سبق أن قلت لك أنه ربما كان لا يضير غيرى أن يتذكروا أنفسهم، أما بالنسبة لى فكان الأمر كما لو كنت قلبت أسفل الأشياء إلى أعلاها. ووجدت مرة أخرى غرفة كانت حجرتى وأنا طفل منذ ثلاثين سنة أو أكثر، وكانت تستعمل فيما بعد لخزائن الغسيل وما شابه ذلك، وإن كانت قد خلفت على ترتيبها الأصلى حيث كنت أجلس إلى المائدة تحت مصباح الغاز الذى كان يحمل سلسلته دلافين ثلاثة بفمهم. وهنا جلست ساعات عديدة كل يوم ورحت أقرأ كطفل لا تبلغ قدماه أرض الغرفة من مقعده بعد. فلتنظر إلى رءوسنا كيف أنها لا تقف عند حد أو تصطدم بشىء فوقها، إننا قد اعتدنا ذلك فتحت أقدامنا شىء ثابت. أما الطفل فنجده بيديه الناعمتين الرخوتين جالسا أمام كتاب، كما لو كان يجر صحيفة عبر أنقاض الغرفة. وإنى لأؤكد لك أنى لم أعد أبلغ الأرض من تحت المائدة.

وضعت لنفسى فى تلك الغرفة مخدعا ونمت فيه. هنا عاد الشحرور من جديد. ففى ذات مرة أيقظنى فى منتصف الليل تغريد رائع. ولم أنهض لتوى من الفراش وإنما استمعت اليه طويلا لأول وهلة وأنا نائم. وكان تغريد بلبل، وإن لم يكن جالسا فى أحراش الحديقة بل وقف على سطح دار مجاورة. وبدأت أنام بعينين مفتوحتين. بينما خطر لى : لا وجود هنا للبلابل، لابد أنه شحرور.

ولا داعى لأن تصدق بأنى قد خبرت هذا اليوم مرة واحدة! وإنما كما دار بخلدى : لا وجود هنا لبلابل، إنه شحرور. وأفقت، وكانت الساعة الرابعة صباحا، وقد عاد النهار إلى عيناى وهبط النوم مسرعا كأثر موجة مياه مصتها رمال شاطىء جافة، وهناك كان يجلس أمام الضوء الذى كان يشبه منديلا صوفيا أبيض، طائر أسود فى شباك مفتوح! جلس هناك كما أنا جالس هنا.

وقال لى : أنا شحرورك، ألا تعرفنى ؟

ولم أستطع أن أتذكر لتوى، ولكنى شعرت بسعادة تغمرنى بينما كان الطائر يتحدث إلى.

واستأنف حديثه قائلا : «على حافة هذه النافذة سبق لى أن وقفت. ألا تذكر؟» عندئذ أجبته : «نعم، لقد وقفت أحد الأيام فى مكانك الآن، وعندئذ أغلقت النافذة بسرعة.»

وهنا قال لى : «أنا أمـك.»

ولعله كان حلما — كل ذلك. ولكن الطائر لم يأتى فى حلم. فقد وقف فى مكانه وطار داخل الغرفة ثم أسرعت بغلق النافذة. وذهبت إلى السطح أبحث عن قفص كنت أذكره، فقد سبق للشحرور أن كان عندى وأنا طفل. تماما كما قلت الآن. كان جالسا على حافة النافذة ثم طار داخل الغرفة، واستخدمت قفصا، ولكن سرعان ما صار الشحرور أنيسا وديعا، ولم أمسكه بل عاش فى حجرتى طليقا، وكان يطير منها وإليها. وفى ذات يوم لم يعد، ثم إذ به يعود من جديد. ولم يعد بى رغبة فى التفكير وارهاق النفس عما إذا كان هذا الشحرور هو نفسه الذى يعود دائما. ووجدت القفص وزكيبة أخرى فوقه مليئة بالكتب. وفى استطاعتى أن أقول لك أنى ما كنت فى حياتى إنسانا طيبا كما صرت منذ ذاك اليوم الذى ملكت فيه الشحرور. ولكنى فى الغالب قد لا أستطيع أن أصف لك ما هو الانسان الطيب.

وسأله آ١ بمكر : وهل تحدث إليك بعد ذلك كثيرا ؟

فأجابه آ٢ : أبدا، لم تعد تتكلم. ولكنى أحضرت لها طعاما وديدان. لقد كان من الصعب بعض الشىء أنها تأكل الديدان، وكان على أن أحافظ عليها كأمى — ولكنى أقول لك أن كل شىء يمر، فما هو إلا عادة، وكيف لا يتعود المرء على الأمور اليومية! ومن ذلك الوقت لم أبرح الشحرور. وأستطيع أن أضيف لمعلوماتك بأن هذه هى القصة الثالثة، أما كيف ستنتهى فلا أدرى.

«ولكنك تلمح إلى أن لكل ذلك معنى مشتركا ؟» هكذا حاول آ١ أن يتأكد فى حذر.

وناقضه آ٢ : «يا للسماء! لقد حدث كل شىء على تلك الوتيرة، ولو عرفت ذلك المعنى لما كنت بحاجة لأن أقص عليك كل ذلك. ولكنه كما لو كنت تستمع إلى همس أو مجرد حفيف دون أن تستطيع أن تتميزه!»

ترجمة : مجدى يوسف

البنفسجات الثلاث

محمد الفيتوري

Muhammad al-Faituri: Die drei Veilchen

Wenn plötzlich Rubine sich ergössen,
O meine schwarze Fürstin,
Wenn das Schweigen in Brand geriete,
Wenn die Mauern der Häuser sich krümmten,
Wenn du einen Dichter sterben sähest,
Sein toter Leib hingestreckt,
Sein Herz eine geschlachtete Taube,
Sein Blut ein roter Mantel auf den Erdboden gebreitet,
An dem die Raben und die buckligen Schildkröten picken,
Was würdest du dann tun,
Was würdest du tun?
Du würdest weinen!
Du würdest den Hochzeitsputz von dir reissen
Und das Kleid der Trauer anlegen
Und Totenklage halten,
Und vielleicht würdest du Rache speien gegen den Folterer,
Weil er die Brust deines Dichters zerriss,
Die Brust deines Mannes zeriss,
Vielleicht auch würdest du daran denken, wie seine Augen aussahen,
Und schluchzen, o meine Fürstin,
Aber wie lange?

*

Der erste deiner Liebhaber kam, nachdem ich dahingegangen war,
Ich sah ihn auf meinem Grabe gehen, doch ich lächelte.
Ich riss meinen Mund auf,
Während seine Hand in deiner Hand ruhte.
Dann lieft ihr beide laut lachend
Und eilend davon.
O mein Gott!
Sei doch behutsam!
Dies sind die Überreste meines Leibes.

لو فجاة تدفق الياقوت
يا اميرتى السوداء
لو تضرم السكوت
لو تعرجت حوائط البيوت
لو رأيت شاعرا يموت
جثته طريحة
وقلبه حمامة ذبيحة
ودمه على الثرى عباءة حمراء
تنقرها الغربان والسلاحف الحدباء
فما الذى كنت ستصنعين
ما الذى كنت ستصنعين ؟
تبكين . . . !
تنتزعين زينة العروس
وتلبسين زينة الحداد
وتندبين
وربما بصقت نقمة على الجلاد
لانه مزق صدر شاعرك
مزق صدر رجلك
وربما ستذكرين مقلتيه كيف كانتا
وتشهقين يا اميرتى
لكن الى متى ؟

*

اول عشاقك جاء بعدما ذهبتْ
رأيتُه يمشي على قبرى فابتسمتْ
فغرت فاهى
يده تنام فى يدك
ثم مضيتما تقهقهان
وتركضان
يا الهى
اتئدى
هذا رفات جسدى

رودولف كوجلر : انطباعات من مصر (لوحة بالألوان المائية)
Rudolf Kügler: Ägyptische Impressionen.

يوجعنى كل رفات جسدى
ازهرت البنفسجات السود فى يدى
العقم والظلام والصقيع
فلتتمدد الجذوع
ان وراء هذه اللحود
مسافرا على قطار لن يعود
اواه ... يا أميرتى الحزينة
لضعفنا .. نحن رسوم الزينة
الأصص ... الزخارف
الساعة فى واجهة المدينه

*

بداية الرواية الألم
خاتمة الرواية الألم
اكذوبة هى الروايه
اكذوبة هو الألم

Alle Überreste meines Leibes bereiten mir Qual.
Es sind erblüht die schwarzen Veilchen in meiner Hand:
Die Unfruchtbarkeit, die Finsternis und der Frost.
Die Stämme der Bäume mögen hingestreckt liegen!
Wahrlich diese Gräber bergen in sich
Einen Reisenden auf einem Zug, der nicht zurückkehren wird.
Wehe ..., o meine traurige Fürstin,
Über unsere Kraftlosigkeit,
Die wir nur Bilder irdischer Zier sind,
Blumentöpfe ... Dekorationen,
Eine Wanduhr an der Fassade der Stadt.

*

Der Anfang der Geschichte ist Leiden,
Das Ende der Geschichte ist Leiden.
Lüge ist die Geschichte,
Lüge ist das Leiden ...

(Aus dem Arabischen übertragen von Hans Wehr)

يحدثنا الشاعر فى قصيدته «البنفسجات الثلاث» عن مأساة خلع عليها صورة أسطورة رمزية، ومزج فيها الحلم بالواقع. وليس الغرض من هذه السطور هو تحليل هذه القصيدة بالتفصيل .. وإنما تحفيز القارئ على فهم ما وراء رموزها ..

نلاحظ هنا أن اللون الأسود — رمز المأساة — هو لون البنفسج والأميرة فى نفس الوقت. والمرجح أن يكون الأصل المختفى وراء هذه الغلالة الاستعارية الرائعة هو بشرة الشاعر التى نعلم عنها أنها داكنة السمرة، وأنها كانت من العوامل الأساسية فى تشكيل شاعرية الفيتورى وتوجيهها .. (راجع مقالة تجربتى مع الشعر التى صدر بها محمد الفيتورى ديوانه الأخير «أذكرينى يا أفريقيا»).

يبلغ الشاعر قمة الروعة التى تجمع الشعر والفلسفة فى بوتقة واحدة حين يقول :

أواه .. يا أميرتى الحـزينـة
لضعفنا .. نحن رسوم الزينـة
الأصـــص .. الزخـــارف
الساعة فى واجهة المدينـــة .

فهنا تكثيف لمأساة الواقع الانسانى يذكرنا بتشاؤم سارتر من تحول «الذات الواعية» إلى «موضوع». وهو على أى حال موقف تنعدم فيه حرية الذات ويحل فيه الموت الوجودى.

نفاجأ فى البيتين الأخيرين من القصيدة بالشاعر منكرا للرواية والألم .. الألم الذى تمزقت له أفئدتنا طوال القصيدة! ولكن هذا اللامعقول هو النافذة الوحيدة التى يقفز منها الشاعر قبل أن تهبط به سفينة المأساة الغريقة إلى قاع الموت .. وهذه النافذة هى الاستعلاء على الألم ..

من أسباب الروعة الجمالية فى بناء هذه القصيدة أن الشاعر يجمع دائما بين المتناقضات فى وحدة يبرز منها الرمز وتتجسد فيها التجربة الفنية، فالياقوت مثلا لا يتدفق ولكنه هنا فى حالته الصلبة ولونه الأحمر ونفاسته يرمز إلى الدم الزكى المنهال .. إلا أن هذه الحركة الديالكتيكية نفسها على حيويتها وديناميتها قد أدت بالشاعر إلى زلل شكلى فى البيت الذى يقول فيه :

تنقرها الغربان والسلاحف الحدباء

فالسلاحف لا تنقر(!) وإنما الذى جعلها تنقر فى الغالب هو ارتباط القافية فى «الحدباء» بقافية البيت الذى قبله فى «حمراء». ثم أيضا جمال التناقص بين صورتى الغربان والسلاحف وهما قائمين بنفس الفعل .. إذن فأسباب الزلل الشكلى هنا ترجع إلى انحصار المضمون تحت ضغط الاطار الخارجى والبناء الداخلى للقصيدة. والملاحظ أن هذا الانحصار فى المضمون سمة عامة فى كافة الأعمال الفنية والشعرية التراجيدية حتى لو لم يؤد إلى أخطاء شكلية. فمهما تعقدت صور القصيدة أو العمل الفنى ومهما تعددت رموزها ووسائلها التعبيرية فهى تنحصر وتنحصر حتى تبلغ فى النهاية شيئا واحدا هو آخر نقطة فى كوز الانحصار وهو ألم الشاعر من هول الخطب، أى الاحساس الذاتى الذى يعذب الفنان كفرد. من هنا نستطيع أيضا أن نفهم لماذا كان يرفض برتولد برشت الشعر التراجيدى والحماس الانفعالى فى العمل الفنى بصفة عامة .. فهو قد قلب الكوز التقليدى لشعر المأساة رأسا على عقب وأصبح المرء كلما تعمق القصيدة بمفتاح الديالكتيكا الهيجلية كلما انفتح أمامه عالم من الأفكار لا نهاية له. ولكن برشت عاش فى القرن العشرين وكتب لجيل عصر العلم. عصر التشكك المنهجى لا الانفعال. أما الفيتورى فتتلمذ على بودلير واتخذه رائدا روحيا له، حيث يقول فى مذكراته : «لقد عثرت اليوم على شاعر فرنسى، اسمه بودلير، طاش له صوابى .. قدرته غير عادية على خلق الصور، وتجسيد الرموز، وتكثيف الحقائق والأوضاع اللامتناسقة فنيا .. إنه ينفذ إلى ما وراء الأشكال والمظاهر .. الأروع من ذلك أنه كان يحب جارية سوداء اسمها چان ديڤال .. شاعر أبيض يحطم الفوارق بطريقته الخاصة .. سيان كان من أجل الجسد أو من أجل الشعر .. إن شارل بودلير يقترب منى أكثر فأكثر، كلما تغلغلت فى ديوانه أزهار الشر .. إننى أنتمى إلى بودلير بصلة ما ..» وبودلير شاعر رومانسى عظيم ولكنه عاش فى القرن التاسع عشر ..

تأثر الفيتورى ببساطة ت. إس. إليوت فى التعبير الشعرى كما استفاد من شعراء المهجر وبخاصة أبى شبكة وغيرهم من رواد الشعر المعاصر فى العالم كله ابتداء من ناظم حكمت حتى بابلو نيرودا ولونجفلو. وهو لذلك ظاهرة أدبية وشعرية معاصرة فى العالم العربى تستحق كل اهتمام ودراسة ليس فقط على مستوى البلاد العربية ..

مجدى يوسف

عبر الحدود

ملاحظات حول لوحة للرسام الباكستانى «زبيرى»

التقينا أثناء زيارتنا لمدينة حيدرآباد فى الباكستان برسام شاب يدعى «زبيرى» وكان معلما للفنون الجميلة فى المكتبة العامة بحيدرآباد وهى مكتبة تقوم على تربية الصبية على حب التقاليد الثقافية السندية، فضلا عن نشر وتدريس الفنون الشعبية. وكان لهذا الرسام بعض اللوحات التى تعكس الروح الأدبية السندية على أروع صورة ..

ومن المعلوم ان بلاد السند كانت أول منطقة فى الهند فتحها العرب فى عام ٧١١ تحت قيادة محمد بن القاسم، ولما تزل حتى الآن تستأثر بالتقاليد والفنون العربية (فى موسيقاها مثلا)، وهى فى الوقت نفسه تعد موطنا لكبار المتصوفين والشعراء. وتشيع فى هذا الإقليم، الذى يشكل واحدا من أهم بقاع الباكستان الغربية، كثرة من الروايات الشعبية، التى عالجها المتصوفون بدورهم مفسرين إياها حسب نظراتهم. وكان البطل الحقيقى فى كل هذه الروايات إما فتاة او امرأة تحب محبوبها لأقصى درجة بينما هو يغيب عنها او يفترق عنهما الصحب والأقارب، وتلهث الفتاة المسكينة بحثا عنه حتى تودى بحياتها من أجله وتصير بذلك مثالا حيا لقول الصوفيين: «من مات فى سبيل العشق فقد مات شهيدا.»

فهذه «سهنى» تسبح كل ليلة حتى الجزيرة التى يسكنها معشوقها إلى أن تموت غرقا، وتلك «سسى» التى عشقت أميرا من البلوج، فحضر أخوته ذات ليلة ليخطفوه من بين أحضانها وهى نائمة، وفى الصباح بحثت عنه وتعقبته فى الصحارى والجبال على نحو ما طلب مجنون ليلى معشوقته، وفى النهاية تموت وسط رمال الصحراء تحت حرارة الشمس القيظاء ... وها هى «مروى» التى خطفها أمير عظيم من وطنها بل ومن بين اصدقائها الرعاة، فتشتاق اليهم الى ان يرق لطلبها قلب الأمير ... وهناك كثير من النساء اللاتى تحرقن شوقا إلى أحبائهن، وكل منهن قد صارت رمزا للروح الإنسانية التى تشتاق الى الله، الى المحبوب السرمدى ... وأصبحت نساء هذه الروايات البسيطة أمثلة للعشق المطلق الذى لا يتحقق إلا بالقربان والموت والاستشهاد.

ولعلنا لا نألو جهدا للتعرف على أثر التقاليد على لوحات هذا الرسام الشاب ... فما تلك الفتاة الحزينة إلا نموذج لأولئك الفتيات والنسوة اللاتى أبدع شعراء السند القدماء والمحدثين على السواء فى وصفهن.

وكأننا نقرأ على شفتى هذه الفتاة كلمات «سهنى» الغريقة:

فى عباب اليعبوب الفظيع ترتع تماسيح مهولة،
فى النهر تنينـات مهيبـة لا حصر لهـا ..
وفى جسدى ما وجدت قوى، بعيدة عنك، يا رفيقى!
يا اميرى، يا مددى، أوصلنى إلى مقصدى، يا كريم!

او نسمع شكوى «سسى» وقد خيم عليها اليأس:

لوكنت أحسست بأن فراقك سيصيبنى يوما ما
لغسلت ما خط القضاء عن اللوح الأزلى،
ولما أحسست الآن بالآلام على طريقى اللانهائى!

هذا الصوت هو صوت المرأة المشتاقة الذى وصفه الشاعر السندى الكبير شاه عبد اللطيف (المتوفى عام ١٧٥٢) قائلا:

يا صوت فى الصحارى، كأنه صوت الوقوق
غناء الحزن والغم – هو آهة العشق ...

يا صوت فى الصحارى، كأنه صوت الببغاء –
حنين الحسرة، هو آهة العشق.

يا صوت فى الصحارى، كأنه صوت إوزة برية
صيحة من أعماق المياه – هى آهة العشق.

يا صوت فى الصحارى، كأنه رنين الرباب
هذا غناء العشق نفسه – ولكن الناس ظنوه غناء مرأة ...

او نصغى الى كلام «مروى» الأسيرة فى قصر الأمير حين تقول:

ضيعت جمالى، واعتلانى الغبار
كيف أذهب الى حيث لا يأتى سوى الجميل؟

ضيعت حسنى وبهاءه الرائع
فى قلبى دخان البلاء – ووجهى علاه الهباب!

ضيعت جمالى – اين راح كمالى؟
كيف ابلغ وطنى وأنا على هذا الحال الأليم؟
من اين لى بالجمال كى أبصر الرعاة المحبوبين؟

هكذا تشكو الروح التى عفرتها حوادث الدنيا بترابها الآسن، وهكذا تشتاق الى الوطن الأزلى الأبدى، وتنتظر يوم الوصال، يوم الموت الذى هو «قنطرة توصل الحبيب بالمحبوب».

(متن الأشعار السندية مأخوذ عن «شاه جو رسالو» اى ديوان شاه عبد اللطيف البهتائى)

In der furchtbaren Flut des Flusses die mächtigen Krokodile,
Gewaltige Alligatoren im Strome, unzählbar viele,
Ich finde im Leib keine Kraft mehr, getrennt von dir, o Gespiele!
Fürst, Helfer, — zum Reiseziele
laß mich, o Edler, gelangen!

Hätt' ich doch ahnend gefühlt, daß einst die Trennung mich träfe,
Hätt ich die Schrift des Geschicks von urew'ger Tafel gespült,
Hätte dann wohl nicht gefühlt
Leiden auf endlosem Pfad!

O Stimme in der Steppe: als ob der Kuckuck schreit,
Ein Jammerlied und Leid — es ist der Liebe Ach.

O Stimme in der Steppe: als sei's des Sittich's Sagen!
Es ist der Sehnsucht Klagen — es ist der Liebe Ach.

O Stimme in der Steppe, als ob die Wildgans riefe —
Schrei aus der Wassertiefe — es ist der Liebe Ach.

O Stimme in der Steppe, wie einer Geige Klang:
Das ist der Liebe Sang — das Volk nur hielt's für Weibes Lied.

Verloren hab ich die Schönheit, bin schmutzig anzusehen —
Wie kann ich dorthin gehen, wohin nie ein Unschöner kommt?

Verloren hab ich die Schönheit, die Lieblichkeit lichten Strahl —
Im Herzen der Qualm der Qual — so ward mein Antlitz beschmutzt.

Verloren hab ich die Schönheit — wo ging die Vollkommenheit hin?
Wie kann ich nach Hause gelangen, so elend wie ich bin?
Wer gibt mir der Schönheit Gewinn, damit ich die Hirten erblicke?

لوحة «فتاة سندية» لأختر زبيرى ، حيدرآباد (باكستان)

قال كشاجم يصف اصطرلابا

BESCHREIBUNG EINES ASTROLABS VON KUŠĀĞIM

Ein Vollmondrunder, aber flach von Seiten,
wo in Quadranten sich die Zeichen breiten;
Ein starrer Kreis, geschmeidig durch den Stift,
Abbild des scharfen Auges der Gescheiten.

Nur spannenbreit, umspannen seine Scheiben
die Klimata im Glanze ihrer Breiten —
Als würden da die sieben Himmelssphären
um Feuer, Wasser, Luft und Land sich spreiten.
Den Stern, der in sein Haus steigt, zeigt er an:
der Sonne Stand und der Planeten Gleiten.
Ob Stunden oder Teile von Sekunden
verstrichen, du erfährst es durch sein Leiten;
Denn er bereinigt richtig jeden Zweifel
am Maß, das er bemißt, für deine Zeiten.
Er scheidet die Aspekte der Gestirne,
die Unheil, und die Vorteil uns bedeuten.
Am Rücken trägt zwei weise Augen er,
von Licht erfüllt, das sie im All erbeuten.
Ja, seiner Zeichen Kreise eignen Sprüche,
die den Verstand zur Fruchtbarkeit geleiten.
Doch heben nur das Wissen, das er birgt,
die Klugen, scharfen Geistes, Spürbereiten,
Bis sie — du siehst's — den Grund, der sich verbarg
vor jedermann, aus seiner Gruft befreiten.
—: Produkt der Zeit, des Denkens. Ihn erschuf
verständ'gen Sinns bedächtig-sich'res Schreiten.

Deutsch von Christoph Bürgel

هذا الشعر مأخوذ عن ابن رشيق، عمدة، طبع القاهرة ١٣٢٥، ج ٢ ص ٢١٩؛ ويوجد ايضا فى طبعة هذا الكتاب التى اصدرها محمد محيى الدين عبد الحميد بالقاهرة ١٩٦٣ ج ٢ ص ٢٩٨.

قال المأمونى يصف اصطرلابا

AL-MAʿMUNĪ ÜBER DEN ASTROLAB:

Der Sonne gleicht er; unter ihren Blicken
entwendet ihre Kunde er verhüllt.
und kundiger als sie — obgleich auf Erden —
ist des er, was das Himmelsrund erfüllt.

Des Verborg'nen ist er kundig
ohne Aug' und Herz und Hören,
läßt vom Licht der Sonne immer
neuer Dinge sich belehren.
Schauend scheint sie seine Brauen
mit Gedanken zu beschweren;
Ja, sie gab ihm ein das Wissen
aus der Brust bewegter Sphären.

Deutsch von Christoph Bürgel

هذان الشعران مأخوذان عن يتيمة الدهر، وقد الف مترجمهما كتابا قيما فى شعر المأمونى:
Die ekphrastischen Epigramme des Abū Ṭālib al-Ma'mūnī, Göttingen 1966.

اصطرلاب، مصنوع من البرنز، موطنه ايران، عام ١٢٢٤ هـ / ١٧١٢ م. من عمل عبد الأئمة بأمر حاجى اسمعيل بيك. وهو محفوظ فى متحف تاريخ العلوم الطبيعية بمدينة أوكسفورد.

عن كتاب :

Henri Michel: Messen über Zeit und Raum. Messinstrumente aus 5 Jahrhunderten. Bearbeitung der deutschen Ausgabe von Paul Adolf Kirchvogel. 106 Farbtafeln und 25 Zeichnungen. Chr. Belser Verlag, Stuttgart 1965. Französische Ausgabe: Albert de Vischer, Éditeur, Bruxelles.

تاريخ

المؤتمر الدولى الاول لعلماء الدراسات الإيرانية فى طهران من ٣١ — ٨ الى ٧ — ٩ — ١٩٦٦

لاول مرة اجتمع تحت رعاية جلالة الشاه محمد بهلوى ما يقارب المائتى عالم بالشئون الايرانية من جميع العالم كان بينهم ١٢٥ عالماً من خارج إيران. وكان البلاط الامبراطورى والمكتبة البهلوية التى انشئت لأبحاث التاريخ الايرانى قد وجها دعوة سخية لجميع العلماء الذين اشتغلوا بالقضايا الايرانية. وهكذا فقد اجتمع علماء من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى والمغرب والهند وتونس وتركيا وألمانيا وفرنسا وانجلترا والباكستان وبولونيا وايطاليا وتشيكوسلوفاكيا وسوريا وغيرها من الدول الكثيرة للتباحث طيلة اسبوع فى أحدث نتائج ابحاثهم. والقيت اثناء ذلك محاضرات فى تاريخ ايران وتاريخها الحضارى والكتابة الفارسية القديمة والرسوم الفارسية المنمنمة فى العهد الاسلامى، كما تناولت محاضرات اخرى قضايا فلسفية ودينية ككتابات الاسماعيلية والمساهمة الفارسية فى الطب الاسلامى وغير ذلك من الموضوعات، وعالجت اخرى قضايا الادب الفارسى الحديث. وكانت الأقسام المختلفة تجتمع كل صباح، وقرئت فى نهاية المؤتمر القرارات الختامية لكل قسم لغرض مواصلة العمل عليها.

وكان المؤتمر كما ذكرنا تحت رعاية جلالة الشاه الذى القى بنفسه كلمة الافتتاح وخاطب جميع المشتركين شخصياً أثناء حفلة استقبال فى حديقة قصره بكلمات ودية رقيقة. واتيحت لأعضاء المؤتمر فرصة زيارة أهم متاحف ومكتبات طهران؛ كما استمعوا إلى الموسيقى الفارسية وشاهدوا الرقصات الايرانية الشعبية وغير ذلك من خصائص البلاد، وقدمت لهم بسخاء أحدث منشورات المعاهد العلمية المختلفة ومؤلفاتها القيمة. وفى نهاية المؤتمر نظمت للأعضاء جولة ختامية إلى اصفهان وشيراز وبيرزبوليس مكنتهم من إلقاء نظرة سريعة على اهم الاماكن التاريخية.

ولاشك أن رئيس الوزراء الايرانى كان محقاً عندما أولى هذا المؤتمر دور عامل من عوامل التفاهم بين الشرق والغرب. إذ أن كل من لمس الضيافة الحارة والتنظيم الممتاز للمؤتمر سيحمل معه أجمل الذكريات عن ايران؛ وفوق ذلك كان من المهم جداً أن تتاح الفرصة للمستشرقين الأوروبيين والأمريكيين للتعرف عن كثب على الابحاث العلمية لزملائهم الايرانيين ولتبادل وجهات النظر معهم. إن مثل هذه الالتقاءات البشرية من افضل السبل لخلق تفاهم صحيح بين شعوب الشرق والغرب. واننا لنعتبر مؤتمر طهران سابقة طيبة للتعارف الذى يزداد وثوقاً بين العالم الإسلامى والعالم الاوروبى — الأمريكى.

اسم على بن ابى طالب فى الخط الكوفى الشطرنجى.

عن مخطوطة دونت فى القرن الخامس عشر ويرجح مرجعها الى آسيا الوسطى، غالبا مدينة سمرقند، وهى محفوظة الآن فى موزه توب قاپوسراى فى استانبول، خزينة ٢١٥٢، ورق V 9.

وقد شبه الأستاذ ريشارد ايتنجهاوزن فى مقاله عن الفنون الجميلة فى تركيا هذه اللوحة بلوحات الرسام المعاصر «پيت موندريان» أحد اساتذة الرسم الحديث فى اوروبا (المتوفى عام ١٩٤٤).

عن كتاب :

E. Akurgal, C. Mango und R. Ettinghausen: Die Türkei und ihre Kunstschätze. Édition d'Art, Albert Skira, Genéve, 1966.

نشكر ادارة موزه توب قاپوسراى فى استانبول لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة، ونقدم الشكر الجزيل لدار نشر سكيرا التى اعارت لنا كليشه اللوحة.

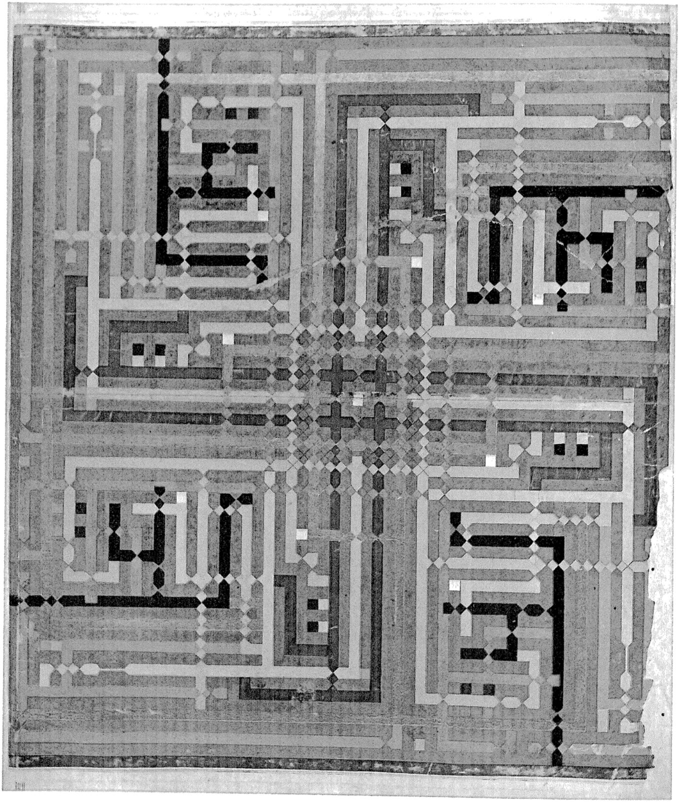

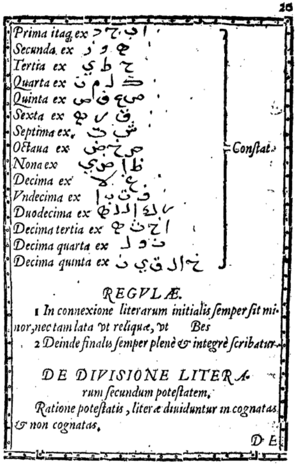

صحيفتان من كتاب النحو العربى الذى ألفه بارتولوميوس رادمان، وكان هذا العالم استاذ اللغة العبرية وبعد ذلك استاذ اللاهوت فى جامعة فرانكفورت على الأودر، وقد توفى عام ١٦٠٠. وصنف رادمان هذا الكتاب سنة ١٥٩٢ مستعينا بكتاب النحو العربى لڤيلهم پوستل (المتوفى ١٥٨١) وكتاب النحو العربى المعروف ب Alphabetum Arabicum cum isagoge scribendi legendique Arabice لمؤلفه يعقوب كريستمان (١٥٥٤ – ١٦١٣) الذى دونه سنة ١٥٨٢؛ وكان كريستمان هذا اول عالم اقترح تأسيس كرسى لدراسة العربية فى جامعة هايدلبرج، وصار هناك اول استاذ للغة العربية عام ١٦٠٩.

اما رادمان فأضاف الى محتويات الكتابين المذكورين بعض المعلومات التى أخذها عن أحد الأتراك كان اسير الحرب فى المجر ثم جاء الى براندنبورج حيث تنصر وسمى «باول ڤيليش». وصور رادمان الحروف العربية ثم جعل لها احد المتخصصين فى الطباعة نماذج خشبية.

(نشكر الأستاذ يوهان فوك فى مدينة هاله لتكرمه بافادتنا بهذه المعلومات).

طلائع الكتب

Wilferd Madelung: Der Imam al-Qasim Ibrahim. W. de Gruyter Verlag, Berlin 1966.

يعتبر معهد الأبحاث الشرقية فى جامعة هامبورج منذ أعوام عديدة مركزاً لدراسة الحركة الزيدية. فمنذ أن نشر الاستاذ رودلف شتروتمان Rudolf Strothmann ، المتوفى عام ١٩٥٥، مقالته الأولى حول الزيدية كرس هذا العالم حياته لدراسة هذا الاتجاه الشيعى فى الإسلام، بحيث أن عمل مادلونج Madelung الذى بين أيدينا الآن ما هو إلا تعميق لأبحاث شتروتمان ومتابعة لها بمفهومه .

لقد اعتبر شتروتمان القاسم بن ابراهيم المؤلف الأول للكتب والرسائل الزيدية عن وعى. فقد ظهر القاسم، بصفته سليل نسل على بن ابى طالب، كامام وعالم، ليشكل من الفئات الزيدية المختلفة حركة موحدة. ومما عرقل تعاليم القاسم عما ينتظر لها من تأثير سيطرة مذهب الناصر الأطروش فى الدولة الزيدية الشمالية فى طبرستان، بينما تمكن الهادى، حفيد القاسم، من نشر تعاليم جده فى اليمن. ويتابع مادلونج دراسة الحركة حتى نهاية القرن الثالث عشر، عندما تشتت زيدية الشمال وأصبحت زيدية اليمن تمثل وحدة هذه الحركة.

ويحاول المؤلف رسم صورة لشخصية زيد كما ظهرت فى التيارات الدينية والسياسية لعصره. وهناك أهمية خاصة لبحثه أمر العلاقة بين الزيدية والمعتزلة، فقد تعمق مادلونج فى دراسة تعاليم المعتزلة الأولين وخاصة واصل بن عطاء، وتوصل فى ذلك إلى نتائج مهمة، كما أنه أكد على الرابطة القوية التى كانت تجمع بين جماعة المعتزلة والعباسيين، حتى قبل تسلمهم زمام الحكم. وهو يقارن تعاليم المعتزلة المذهبية بالعقيدة الزيدية المبكرة التى انقسمت كذلك إلى عدة اتجاهات. ويعتمد المؤلف فى ذلك على كتاب مجموع الفقه لأبى خالد الواسطى الجارودى الذى نقل كذلك تفسير زيد للقرآن. ويظهر الكتابان معالم واضحة للجبر، أى الايمان بعدم حرية الاختيار. وإلى جانب اللهجة المعادية للقدرية، أى حرية الاختيار، التى تنم عنها كتب أوائل الزيدية، فاننا نجد فيها كذلك هجوماً على المرجئة. ويظهر مادلونج بالإشارة الدقيقة إلى جميع المحدثين والمؤرخين هذه الخصائص التى امتاز بها الزيدية الأوائل قبل أن يفرد باباً مفصلا للرجل الرئيسى الذى يهمه أمر البحث فيه، نعنى القاسم بن ابراهيم (٧٨٥ – ٨٦٠). وكان هذا قد عاش فترة فى مصر ثم مضى إلى الراس بالقرب من المدينة. وقد ظل عدد كبير من مؤلفاته الزاخرة بالعلم محفوظاً، وقد ازداد أسلوبه سلاسة مع مرور الزمن. وقد اختلف فى معالجة بعض المسائل الشرعية الأساسية عن غيره من علماء الزيدية الآخرين، كما يتضح ذلك من مخطوطات أعماله المحفوظة فى برلين. ويدرس مادلونج فى كتابه مبادئ الأمامة: فأساس الايمان بالنسبة للقاسم يقين من الله، بينما يستقى البرهان على وجود الله من نظام العالم. وقد درس القاسم صفات الله بالتفصيل ورد على الآراء التى تتعارض وتعاليمه. ويؤمن القاسم كذلك بعدل الله، مما يتضمن حرية الاختيار أيضاً، أى أنه أخذ بوجهة نظر المعتزلة فى ذلك، رغم أنه اختلف عنهم فى مسائل اخرى. ومن مبدأ العدالة الإلهية يشتق مبدأ الوعد والوعيد. وقد خصص ثلاثاً من رسائله لتمجيد القرآن. وفى الظلم الذى يعم العالم الإسلامى، على حد رأى الإمام القاسم، يجب على المسلم الحقيقى أن يرحل – وألا يخرج بالسيف فى وجه الائمة الباطلين، بل أن يهجر موطنه – ومن ذلك نشأت الممالك الزيدية على اطراف العالم الإسلامى. والصفة المميزة للإمام هى القرابة من الرسول وكمال الحكمة. ولكن لا يجوز رفع مقام الإمام عن مقام الرسول كما يفعل الرافضون ذلك. وإن ما يهم القاسم هى إمامة العلم وليس إمامة الحكم الدنيوى. وقد كان كذلك واعظاً اكثر منه مذهبية لكل فكرة أساسية من علماء المعتزلة المذهبيين، لدعم تعاليمه؛ وإن عملية استقبال تعاليم المعتزلة هذه تشغل تاريخ القرون التالية.

وقد اضيفت فى كتاب مادلونج ابحاث تاريخية اخرى حول قضايا خاصة تتعلق بالمذاهب الإسلامية، كما أن فهرس المراجع والمؤلفات والمخطوطات الوافر يظهر مدى العناية والدقة اللتين بذلهما المؤلف فى جمع وتقييم ما صعب مناله وما نآى من المخطوطات حول تاريخ الزيدية ونظرياتها المذهبية. وبذلك يصبح هذا الكتاب كنزاً للمعلومات الهامة بالنسبة لتاريخ الفكر الإسلامى وتتمة للطريق التى بدأها الاستاذ شتروتمان قبل اكثر من نصف قرن فى هامبورج فى استقصاء الزيدية ودراستها.

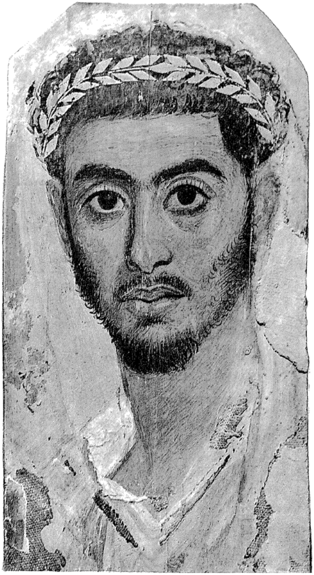

صورة مومياء، من عصر الامبراطور هادريان (١١٧ – ١٣٨) على خشب مذهب.
وهى محفوظة فى موزه بروكلين (عدد ٤٠٣٨٦)، نيويورك.

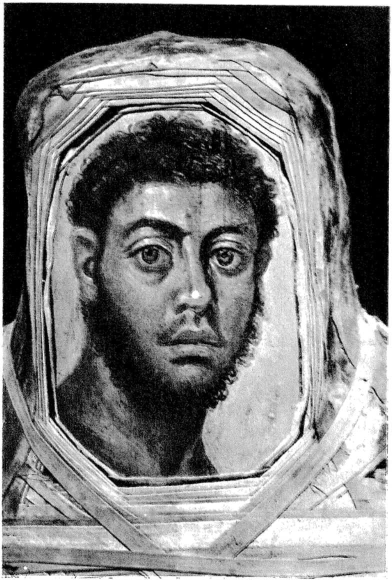

صورة مومياء: لرجل من النوبة؛ وجدت فى حفريات حواره؛ وهى محفوظة فى متحف برلين
(العدد ١١٦٧٣).

كلا اللوحتين مأخوذ عن كتاب : .Klaus Parlasca: Mumienporträts
نشكر دار نشر فرانتس شتاينر فى ڤيز بادن لإعارتها لنا كليشيهات هاتين اللوحتين.

Klaus Parlasca, Mumienporträts und verwandte Denkmäler (Veröffentlichung des Deutschen Archäologischen Instituts, Berlin). Franz Steiner Verlag, Wiesbaden 1966.

إن الصور المخصصة للجثث المحنطة كما وجدت فى مصر منذ عهد الحكم الرومانى فيها، لتعد ميدانا مشوقا يقع على الحدود بين تاريخ مصر القديم وتاريخ الفن الكلاسيكى. وكانت تلك اللوحات فى أحسن أزمان تطورها ترسم على خشب ممتاز وتثبت فوق الجثث بعد تحنيطها. ويمكن الاطلاع على الأشكال السابقة على تلك المرحلة فى صور الكتان التى كان يقمط بها المومياء مباشرة، قبل وضعها فى داخل القناع الذى يغطيها على شكل صندوق من الخارج. وقد عثر على هذا النوع بالذات من لوحات الجثث المحنطة فى منطقة الفيوم بالدرجة الأولى، بينما كانت أقنعة الموتى فى مصر العليا تدهن عادة بالملاط.

وقد جمع المؤلف العلامة فى كتابه الضخم ذى الحجم الكبير، والذى أصدره معهد الآثار الألمانى، كل ما توصل إليه البحث العلمى الحديث حول صور الجثث المحنطة فى عصر الرومان وما اتصل بها من ظواهر أخر. وقد اشتهرت هذه الصور لأول مرة فى عام ١٨٨٧ حين اكتشف فى منطقة مقابر الربويات بالفيوم عدد كبير منها. وإن أكثر ما سبق أن جمعه التاجر تيودور جراف من هذه اللوحات موزع اليوم فى متاحف العالم، كما انضم إليها الكثير مما عثر عليه حديثا فى هذا المجال. وبالطبع كانت الجثث المحنطة ذات اللوحات المذكورة أندر بكثير من سواها المحنط فقط. ذلك أن إنتاج الصورة فى تلك العصور كان يكلف أموالا طائلة. ويكفى أن مجرد تحنيط الجثة كان يقتضى أكثر من دخل عامل زراعى فى عام كامل! ويزيد على ذلك تكاليف الصناعة الفنية ووفرة الذهب المستعمل فى تلك اللوحات البارزة..

ويعالج المؤلف كافة الموضوعات المتصلة بهذه اللوحات، كمسألة تأريخها التى يتعين للوقوف عليها تحليل دقيق لنوع الملابس وقصة الشعر، وهنالك جثث مسماة، وأخرى تعرض صور ضباط وكهنة، ثم كيف نشأ هذا الطرز الفنى الذى لابد أنه تأثر بالرومان. وقد ثبت بالفعل أن المومياء كانت توضع بشكل قائم بحيث تقابل المشاهد لوحتها المجسمة. ويرى المؤلف أنه فى كثير من الحالات كانت تلك اللوحات تعد لأصحابها أثناء حياتهم. ويفرد الكاتب دراسة خاصة للمكتشفات الأثرية التى تمت بالقرب من تل العمارنة، فى أنتنيوبوليس، أى خارج نطاق الفيوم. ثم يحلل فى النهاية الاجابة على السؤال عن مدى إمكان اعتبار أقماط الجثث المرسوم عليها مراحل سابقة على رسم اللوحة لشخص معين.

وهو يرى أن نهاية هذه العادة التى كانت تقضى بتزويد الجثث المحنطة بالصور المرسومة للفقيد، كانت على يد القيصر تيودوسيوس، الذى قضى — فى عام ٣٩٢ م — بعقوبات رادعة على كل من يمارس تلك الشعائر الوثنية.

وإن احتواء هذا الكتاب على ببليوغرافيا تحليلية دقيقة، فضلا عن عدد كبير من الفهارس والمعاجم اللفظية ليجعله مرجعا لا غنى عنه لكل مهتم بالفن المصرى والرومانى. وإن اللوحات المنشورة فى هذا السفر — ٨ صور بالألوان و٦٢ بلا ألوان — بالاضافة إلى عشر رسومات مصورة للنص، لتجعل القارئ المتخصص يحس بروعة تلك اللوحات القديمة التى كثيرا ما تبدو لنا حديثة العهد.

Arabien. Mit einer Einleitung von Professor Dr. Hermann Wissmann. Dokumente zur Entdeckungsgeschichte. Band I. Henry Goverts Verlag, Illustriert, Stuttgart, 1965.

نجد هنا مجموعة من التقارير عن شبه الجزيرة العربية، ابتداء بالرحلة الاستكشافية التى أمرت بالقيام بها الملكة حتشبسوت فى عام ١٤٩٣ ق.م. وقد صورت بعض هذه الأخبار بكتابات بارزة أو منحوتة على جدران معبد دير البحرى، حيث نعثر فى هذا الكتاب على بعض لقطات منها.

ويمتاز هذا السفر بكثرة الشواهد التى تمضى من ابن بطوطه ونيبور حتى العصر الحاضر. ومن خلال ثبت المراجع الوارد فى مؤخرة الكتاب، نستطيع دراسة مصادره والتحقق منها على صورة أدق، وأن نستكمل ما قرأناه من أخبار ومعلومات عن الجزيرة العربية بما أتى به الرحالة الأخر.

والمؤلف — هرمان فون ڤيسمان — الذى يعد بنفسه من فطاحل الدارسين لشبه الجزيرة العربية قد وسع تاريخ اكتشاف هذه المنطقة حتى جعله جزءا من حضارتها.

وتكمل الصور المحفورة بالطرق الحديثة النص الجيد لهذا الكتاب على أحسن وجـه.

Wolfdietrich Fischer: Farb- und Formbezeichnungen in der Sprache der altarabischen Dichtung. Untersuchungen zur Wortbedeutung und zur Wortbildung. Verlag Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1965.

فى هذا البحث المتعمق، الذى يزيد حجمه عن ٤٠٠ صفحة، يعرض فيشر، تلميذ المستشرق المعروف هانس ڤير، والأستاذ بجامعة إرلانجن، تحليلا دقيقا للصفات باللغة العربية من صيغة أفعل، وهى التى تعرف عامة باختصار بكونها : «صفات الألوان والعلل». وقد قام الباحث بتمحيص بالغ لمادة اللفظ فى الأدب العربى القديم مكنه — بالاستعانة بالمناهج الحديثة لعلوم اللغة — من أن يتجاوز فى كثير من الحالات ما ورد فى القواميس العربية القديمة من معانى للمفردات العربية. وحتى يبين المؤلف علاقات مجاميع المعانى المختلفة والخاصة بالصفات التى تتخذ صيغة أفعل، أورد لنا فى القسم الأول من كتابه بحثا مستفيضا عن نظام الاشتقاق وما يترتب عليه من صيغ أفعل الوصفية التى يمكن أن يكون لها علاقة بأسماء أفعل التفضيلية.

وهو يبحث أولا صيغ أفعل فى اللغة العربية القديمة والحديثة، ثم توزيعها فى العربية المعاصرة، ويعود ليمحص قيمة ما تورده القواميس العربية المنسوبة إلى التراث القديم من معانى لكلمات كأزرق وأسمر وجوز، ويقوم بعد ذلك بوصف مضامينها وتحديد معانيها على نحو جديد دقيق، مستشهدا بعدد كبير من أمثلة البيان العربى. فمثلا كلمة أزرق تعنى فى الأصل بريقا ولمعان، ثم استعملت فيما بعد بمعنى «ذى العيون المزرقة الخاطفة البريق» ثم بمفهوم الزرقة كلون. وهى تصف كافة درجات خفة اللون فى العين. — بعد ذلك يتطرق فيشر إلى بحث تعريف الأشكال المتعلقة بخواص الجسم، وهى التى تصف أحد أجزائه أولا ثم حامل ذلك الجزء بعد ذلك، فمثلا أخزر (من العين) ويقال «إنسان أخزر ذو نظرة مسترِيبة». (وهى مشتقة من خنزير). وهنالك الكثير من الصفات المصاغة من الأسماء حيث تعنى «التميز باحدى الخواص» مثل «أعنق» باعتباره «متميزا بالعنق».

يعالج المؤلف بعد ذلك خواص الشكل والسلوك والألوان، ويدقق البحث فى صفات أفعل ونشأتها مستعينا فى نفس الوقت بغيرها من الصفات والأسماء. وإن المادة الغنية التى يكتنز بها القسم الأول من هذه الدراسة العلمية لتقدم لكل مشتغل بالأدب العربى القديم العون كل العون. — أما القسم الثانى من هذه الرسالة فيقتصر على معالجة تعاريف الألوان فى لغة الأدب العربى القديم. وإن تعدد معانى الكثير من كلمات الألوان فى الأدب العربى القديم قد أثار اهتمام العلماء منذ زمن بعيد. واتضح لـ «فيشر» أنه لا يوجد من الألوان الأساسية بجوار الأبيض والأسود، باعتبارهما يدلان على درجات الفاتح والغامق، سوى الأخضر والأحمر والأصفر. علما بأن الأخضر يعتبر من مجاله الداكن، و الأحمر والأصفر يعبران عن المجال الفاتح ومن المعروف أن الحضارات القديمة — واليونانية من بينها — لم تميز الألوان فى مجالاتها الداكنة مثلما كانت تفعل بالنسبة للأخرى الفاتحة. ويقدم الكتاب مزيدا من المعارف الدقيقة حول هذا الموضوع عن طريق إيراد صفات أخرى ثانوية. وهكذا يتوصل فيشر إلى النظام الخاص للألوان عند العرب القدماء (ص ٣٨٢) .

ثم يبحث المؤلف العلامة فى ملحقين صيغ أفعل الجانبية وهى افعلى وفُعلى (خاصة لأنواع الطيور)، وكذا صيغ افعلانى المزدوجة، مثل ابهران. ولا يستحق هذا الكتاب النفيس أن يحظى باهتمام علماء اللغات فحسب، وإنما أيضا بتقدير كل مهتم بالأدب العربى أو بتاريخ الحضارات عامة.

Max Weisweiler: Arabische Märchen. Band 2. Verlag Eugen Diederichs, Köln 1966.

نود أن نسترعى نظر القارئ إلى أنه قد صدر ضمن سلسلة كتب «أساطير من الأدب العالمى»، التى تصدر الآن فى طبعة جديدة عن دار نشر «أويجن ديديرشز»، الجزء الثانى من مجموعة «الأساطير العربية»، حيث كان قد نشر الجزء الأول منها فى عام ١٩٦٥. وهى ليست هذه المرة أساطير شعبية بقدر ما هى حواديث وقصص مختلفة من بحر الأدب العربى الفسيح. ومن بين المصادر التى استقى عنها المترجم الألمانى نصوصه : كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، الفرج بعد الشدة للتنوخى، العقد الفريد لابن عبد ربه، كتاب الحيوان للدميرى، روض الرياحين لليافعى، وقد جمع هذه الخرافات وترجمها إلى الألمانية ماكس ڤايسفايلر Max Weisweiler الذى ندين له بعدد كبير من التراجم الألمانية عن الأدب العربى التقليدى (ككتاب طوق الحمامة لابن حزم). وقد زود ڤايسفايلر ترجمته لهذه الأساطير بعدد كبير من الهوامش والشواهد مما يجعلها تفيض بالأفكار على قارئ الخرافة وتفيد باحث الاسطورة فى آن واحد.

يوهان آدم كلاين : أتراك ثلاثة فى جلسة على مقهى فى مدينة ڤينا (لوحة بالألوان المائية) ڤينا ١٨١٧.
عن كتاب :
Dr. Wilhelm Schwemmer: Johann Adam Klein (1792–1875). Ein Nürnberger Meister des 19. Jahrhunderts. Verlag Hans Carl, Nürnberg 1966.

نشكر دار نشر هانس كارل لاعارتها لنا كليشه هذه اللوحة.

E. A. Kömürcüoğlu, Das alttürkische Wohnhaus. Verlag Otto Harrassowitz, Wiesbaden 1966.

مما هو جدير بالثناء أن يقدم لنا إخصائى تركى فى تشييد المدن بحثا جامعا وملخصا للعمارة التركية فى القرن الماضية. ولإن وجدت هنالك دراسات سابقة عن أنواع مختلفة من الدور فى شتى المناطق التركية، فانا نعثر هنا على محاولة لعرض أهم الأطرزة المعمارية السائدة فى جميع أنحاء تركيا. ويعين على فهم النص بصورة أوضح عدد كبير من الصور الفوتوغرافية والرسوم التخطيطية لواجهة الدار وتوزيع مساحاتها الداخلية. ويميز المؤلف بين شكل الدور فى جنوب شرقى تركيا، حيث يتوسط البيت فناء رحب، وبين العمارة العادية التى يخرج فيها الطابق العلوى على الذى يدنوه. ولعلنا نرى المقدمة العامة للكتاب على شىء من السطحية خاصة حين تذكر «أن الاسلام يتطلب من المؤمنين به أن يغتسلوا من الرأس حتى القدم خمس مرات فى اليوم قبل كل صلاة ..». وربما كان من الأفضل فى رأينا لو استعين هنا بالمقال القيم الذى كتبه امل اسين عن سعد الله باشا ياليسى (من جنكلكوى) الوارد ذكره فى هذا السفر. وفيما عدا ذلك يبدو لنا عرض الكتاب لفنون العمارة التركية دقيقا ومفيدا.

Praktische Fachglossare (Physik): Deutsch-Arabisch-Griechisch. Max Hueber Verlag, München, 1965.

الكتيب الذى بين أيدينا امتداد لما صدر قبله من كتيبات شبيهة اختص كل منها بترجمة الألفاظ المستعملة فى فرع معين من فروع العلوم. وقد سبق أن أثنينا عليها فى مثل هذا المكان من «فكروفن — العدد ٦»، ورجونا لهذه السلسلة أن تتقدم فى رسالتها الحميدة. وها نحن نستقبل الكتيب الرابع منها، وهو الحاوى على ترجمات عربية ويونانية لاصطلاحات علم الفزياء فى اللغة الألمانية — ولا يخفى أننا نود هنا التعرض للترجمات العربية، إلا أننا نفاجأ أثناء تقليبه بالكثير من الترجمات التى كنا نرجو لها أن تكون أفضل وأدق من ذلك، فمثلا فى ص ٦ نجد أمام كلمة Anodenspannung الترجمة التالية: التوتر الكهربائى بين القطب السالب والموجب؛ وصحها: الجهد الكهربائى بين القطبين السالب والموجب؛ والفارق بين التوتر والجهد الكهربائى هنا هو أن «جهد» هى الكلمة الاصطلاحية باللغة العربية فى مجال الكهرباء، أما استعمال لفظة «توتر» فبعيد عن ميدان الكهرباء وقريب من المفهوم العام لكلمة Spannung الألمانية فى الحياة اليومية. وفى ص ٧ أمام كلمة Argon الترجمة التالية: غاز خامل، وكان يجدر أن يعطى الاسم العربى لهذا الغاز: الأرجون، وأن توضع العبارة التى تعرفه بين قوسين هكذا: (غاز خامل). وفى ص ٢٤ نعثر أمام كلمة Essigsäure على الترجمة التالية: حامض الخل؛ وصحتها: حامض الخليك. ونجد خطأ شبيها على صفحة ٥٨ حيث ترجمت Schwefelsäure بحامض الكبريت؛ وصحها فى اللغة العربية: حامض الكبريتيك، ذلك أن للكبريت حوامض كثيرة أحدها الكبريتيك، وهو المقصود هنا. ونلحظ عامة أن الترجمة فى هذا الكتيب تلجأ إلى العبارات العربية الشائعة الاستعمال فى مختلف أغراض الحياة اليومية بدلا من الإتيان بالاصطلاحات الخاصة بعلم الفزياء الحديث فى اللغة العربية، وهى التى يبدأ الطالب العربى بالتعرف عليها وهو لازال فى المدرسة الثانوية. فمثلا كلمة Härte — ص ٣٣ — تقابل بالعربية الاصطلاحية فى مجال الفزياء كلمة «عسر» وليست «قساوة» كما أتت فى الترجمة.. إذ يقال «عسر الماء» وليس «قساوة الماء». وعندما تطلعنا إلى ظهر الغلافة الأولى من هذا الكتيب تبين لنا سر هذا التخبط: فأسماء المترجمين هى نفسها التى سبق أن تكررت فى الكتيبات الثلاثة الماضية رغم اختلاف الميادين العلمية التى تعالجها بحيث يندر أن يتخصص فيها جميعا نفس المترجم. ولعله كان من الأفضل أن يختار لكل كتيب يعالج مصطلحات فرع علمى جديد مترجمين عرب سبق أن تخصصوا فى هذا العلم أو تمرسوا به وبلغته العلمية على الأقل.. ولما كان من المتعذر إن لم يستحل على المترجم أن يكون متخصصا فى جميع الميادين العلمية، فانه يفضل دائما، وخاصة بالنسبة للقواميس الفنية، الاستعانة بأهل الاختصاص.. وهو ما نرجو أن نراه فى الكتيبات القادمة من هذه السلسلة النافعة..

(مجدى يوسف)

Der arabische Dialekt von Bišmizzīn. Herausgegeben von Michel Jiha, Beirut 1964; in Kommission bei Franz Steiner, Wiesbaden. اللهجة العربية العامية فى بشمزين، تاليف ميشيل جحا.

كانت اللهجات العربية العامية فى الأعوام العشرة الماضية موضوعا مرغوبا فيه للبحث لدى علماء اللغة، وبعد نشر عدد لا بأس به من البحوث فى اللهجات الاقليمية على العموم وتحليلها واثبات قواعد اللغة فيها، جاوز اللغويون ذلك الى درس فروع هذه اللجات، واظهار الفرق بين لهجات المدن والقرى فى البلاد ذاتها. ولا شك ان هذا المجهود لا يزال فى بدء نشأته. وعند بحث اللهجات اللبنانية، لم يكن الموقع الجغرافى للبلدة هو الدافع الوحيد لجعل لهجتها موضوع بحث لغوى، بل لعب المذهب الدينى الذى يعتنقه سكانها دورا مهما، لأن هناك علاقة محسوسة بين تطور اللهجة وبين النحلة المتبعة. وقد صدرت بحوث فى لهجة كل من سكان كفر عبيده وزحلة وطرابلس، والبحث الذى بين ايدينا يتناول لهجة قرية ارثوذكسية تقع على بعد ١٥ كيلو مترا جنوبى طرابلس (ومن المعروف ان عدد الأرثوذكسيين فى لبنان يبلغ ١٥٠ الف نسمة يسكن معظمهم فى البقاع). ومؤلف هذا الكتاب من اهل هذه القرية، نشأ وترعرع فيها، ودرس فى بيروت ثم فى المانيا عند المستشرق المعروف هانس وير، الذى شجعه على القيام بدرس لهجة بلده، فجاءت بحثا دقيقا للغاية ومصدرا وثيقا لمن يهتم باللغات الدارجة. والكتاب ينقسم الى قسمين: الاول من صفحة ١ — ١١٣ وفيه نصوص بلهجة القرية مع ترجمتها الألمانية، وهى عبارة عن ٢٥ قصة مشوقة لأحد عشر شخصا من اهل القرية، لها قيمة من الوجهة الأجتماعية واللغوية على السواء. والقسم الثانى (صفحة ١١٥ — ١٨٢) يحتوى على قواعد اللفظ والصرف ولا يتعداها الى النحو لأن الاختلاف بين اللهجات معظمه فى مضمارى اللفظ والصرف.

(ريمون عازر)

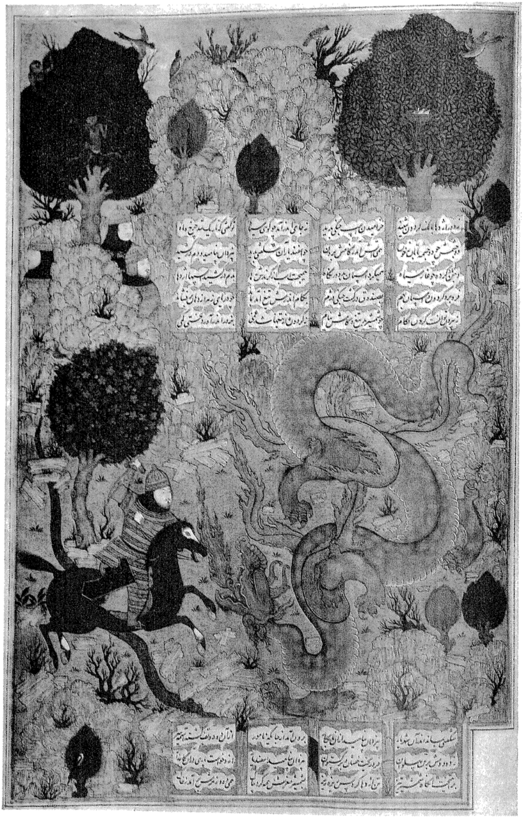

قتال اسفنديار مع التنين.
عن مخطوطة شاه نامه لأبي القاسم فردوسى، دونت عام ١٠٢٣ هـ / ١٦١٤ م فى مدينة اصفهان، ايران. وهى محفوظة فى نيويورك، لدى Spencer Collection, The New York Public Library. الذى صرح لنا بنشرها.
نشكر كذلك دار نشر بروكمان F. Bruckmann بميونخ لاعارتها لنا كليشه هذه اللوحة.

Grace Rasp-Nuri, Brücke in die Fremde. K. Thienemann Verlag Stuttgart 1966.

إنه لما يثلج الصدر أنه قد صدر فى هذا العام كثير من كتب الشباب الّتى تدور حول الشرق. وأحد هذه الكتب بقلم الأديبة الايرانية الأصل جريس راسب – نورى، الّتى تعيش فى المانيا منذ سنوات طوال حيث اشتهرت بقصصها المستمدة من حياة الشعب فى الأناضول. وتعرض المؤلفة فى هذا السفر، الذى يمثل يوميات طالبة ألمانية فى تركيا، لتوتر الصلات بين أوروبا والشرق والمسيحية والإسلام. فالفتاة الألمانية تحب هنا شابا تركيا وتتعرف على كافة مناحى الحياة فى ذلك البلد، ولكنها تلقى عدم التقبل من مواطنيها لتصرفها هذا. والكتاب يخلف فى ذهن القارىء صورة متغلغلة فى أعماق حياة الأتراك والعقلية السائدة بينهم. وهو بعد ذلك مناسب تماما لتعريف الشباب الغربى بعالم الشرق فى حنوكبير.

Hans Henle, Der neue Nahe Osten. Holsten-Verlag, Hamburg, 1966.

يتميز هذا السفر عن سواه من كتب الرحلات المألوفة بسعة معارفه التاريخية عن العالم العربى. هذه المعارف الّتى تمتزج فيه –كما هو الحال مثلا فى كتاب أرنولد هوتينجر– من خلال المشاهدة والتجربة الذاتية للأقطار المعروضة، مكونة وحدة متداخلة تجعل من هذا السفر مرشدا رائعا ومرجعا قيما.

ولعل بعض القراء قد لا يتفقوا مع المؤلف فى كلّ نقاط كتابه. إلا أنهم لن ينكروا عليه نزعته الموضوعية المخلصة .

Hermann Schaefer: Im Lande der Könige. Verlag Eugen Diederichs, Köln 1966.

تنقل المؤلف كثيرا فى أنحاء إيران، حيث تتميز أفلامه التلفزيونية الّتى أعدها عن هذا القطر بتغلغله العميق فى عقلية الفرس. وها هو ذا قد وضع أفكاره وخبراته فى كتاب يعنى بالدرجة الأولى ببلاد العجم القديمة وملوكها السوالف، وإن لم يغفل ظروف المجتمع الحديث فى إيران. كما يحاول أن يعالج مشاكل البدو الرحل الذين عاش معهم طويلا. ومن أطرف ما جاء فى كتابه وصفه لحياة المعتقدين بدين زرادشت فى يزد، وهم الذين اختصوا بأكبر حبه وميله. على أن أمتع فصول الكتاب هو ذلك الذى يصف فيه «أبراج الصمت» الّتى شاهدها عن قرب كما يندر أن يشهدها غريب.

وهكذا يقدم الكتاب لجمهور القراء نظرة مليئة بالحب فى مختلف أحقاب التاريخ الايرانى مارا بعاهلى الأخيميين وأمراء البدو الرحل حتى حكام ايران المعاصرين.

Eberhard Rhein/A. Ghanie Ghaussy, Die wirtschaftliche Entwicklung Afghanistans 1880–1965. Schriften des Deutschen Orient-Instituts: Monographien. C. W. Leske Verlag, Opladen, 1966.

إن أفغانستان من أكثر أقطار آسيا الّتى تجذب الاهتمام من وجوه عدة. فهى لا تعنى عالم الآثار ومؤرخ الفنون وحسب، وإنما هى تمثل كذلك بالنسبة لباحث الاقتصاد القومى منبعا فياضا بالاكتشافات. فلازال الاقتصاد الأفغانى، شأنه فى ذلك شأن مجتمع ذلك القطر، بحاجة كبرى إلى البحوث العلمية، لاسيما وأن بياناته الاحصائية تكاد أن تكون فى مجموعها إما غير كافية أو غير موثوق بها.

ولعل فضل إيبرهارد راين يرجع إلى التثبت من صحة هذه البيانات وتوسيع مداها بحيث صارت بمثابة تتبع وصفى لاقتصاد هذا القطر منذ نهاية القرن ال ١٩ حتى اليوم. وهو يتعرض فى هذا السفر للزراعة والصناعة والتجارة الخارجية والمواصلات، والشئون المالية والنقدية. وقد أضاف ع.ج. غوثى A. G. Ghaussy إلى كل ذلك فصلا فى النظام التربوى المتبع بأفغانستان. وفى الفصل العاشر من هذا الكتاب تعرض نتائج هذه البحوث وإمكانيات تطويرها فى المستقبل. كما يتمم هذه الدراسة الجادة ١٤ جدولا وخريطة لأفغانستان وقائمة بالمراجع الهامة عن ذلك البلـد.

Weimar, Goethe-Haus. Bibliothek.
Foto: Klaus G. Beyer, Weimar (1966)

المكتبة فى دار جوته بمدينة ڤايمار.
تصوير : كلاوس ج باير (ڤايمار ١٩٦٦)

FIKRUN WA FANN

ÜBERSEE-VERLAG · HAMBURG

9